

الدكتور عزيز العظمة

# الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية

مقدمة

في أصول صناعة التاريخ العربي



دار الفكر - بيروت

الكتابة التاريخية  
والمعرفة التاريخية

حقوق الطبع محفوظة  
لدار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

ص.ب. ١١١٨١٣

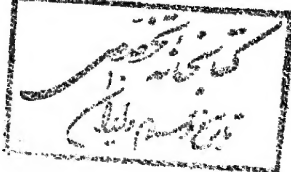
تلفون ٣٠٩٤٧٠

٣١٤٦٥٩

فاكس ٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى: تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٣

الطبعة الثانية: نيسان (أبريل) ١٩٩٥



الدكتور عزيز العظمة

# الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية

مقدمة

في أصول صناعة التأريخ العربي

دار الطليعة للطباعة والنشر  
بيروت

# المحتويات

٧	مقدمة .....
١١	الفصل الأول : أصول التاريخ .....
٤٣	الفصل الثاني : انشاء التاريخ .....
٩٣	الفصل الثالث : زمان الأرض وتاريخ السماء .....
	الفصل الرابع : ملاحظات ختامية : سلطان المعرفة
١٢٩	ومعرفة السلطان .....
١٤١	ثبت المصادر .....

« هذه الحكاية وجدناها في كتاب التاريخ كما سطرناها ،  
وهي حكاية مستفاضة ، قد سمعناها مختلفة النسبة الى  
عدة ملوك ، والله أعلم بالصحيح » .

مسكويه

(تجارب الأمم ، ٤٢/٣)



# مقدمة

سيرى قارئ هذا الكتاب أن ثمة غرابة تثوى خلف الرتبة المعهودة للكتابات التاريخية في التراث العربي - الإسلامي . فسيلحظ القارئ أن ثمة عبثية تحتجب وراء تسلسل اشياء التاريخ ، عبثية لم تعد مألوفة في عصرنا الموسوم بالافكار التطورية وبالغائيات التاريخية على اشكالها ومشاربها . كما انه سيشهد كيف ان اعتماد التاريخ العربي على صحة النقل يجعل من الكتابة التاريخية ممارسة لا تتوسل الحق ، على ما في هذا التصور لاجبار التاريخ من غرابة وهجانة في عصرنا الذي ينتضد من مفهوم « الموضوعية » - تلك الخاصية التي اصر عصرنا على امكان امتلاكها رغم مراوغتها وعدم استسلامها - سلاحاً يعضد الحداثة والعلم في تفاؤلية تاريخية لم تبتدىء حدودها بالبروز للعيان الا اخيراً .

ليس ملامح الغرابة هذه - وغيرها من الملامح الاقل أهمية - بالجديدة جدة تامة ، بل أن كثيراً من الدارسين ابدى الملاحظات حول منهج الاسناد ، وحول الجفاف المفهومي للتاريخ الحولي ، وحول فقر أي علم تاريخي لا يتجاوز مجالات الملوك الى مراتب العوام ومشاكلهم وغيرها من الموضوعات التي لم تثر اهتمام كتاب التاريخ من العرب المسلمين ( والمسيحيين مثل المطران غريغوريوس الملطي ( ابن العبري ) الذي يجرى الاستشهاد به في هذا الكتاب ) . بيد أن الملاحظات المتفرقة التي جاء بها الدارسون لم تتعد اطار المواضع المتفرقة التي اتت بها ، ولم تؤخذ على محمل الجد بالكلية المطلوبة . فهي اعتبرت كنواقص في اطار



علموي يرى في كتابة التاريخ ممارسة سرمدية لا ترتبط بعصر ، بل هي واحدة ، تترقى مع الزمان حتى تصل الى النموذج الذي وضعه المؤرخون الوضعيون في القرن التاسع عشر على انه سبيل الحقيقة الموضوعية<sup>(١)</sup> ، حتى ان كل ما يضرب بينها وبين التاريخ الوضعي من فروق لا بد وان يرد الى مجال الهفوات والنواقص والاتفاقات التي لا تطال الاصل والجوهر . ليس من شك في ان هذا التصور ينهل ، في حاضرننا العربي ، من منهل آخر يرفده ويقوي من سطوته ، الا وهو طائفة باعة التراث ، الذين يرون في كل ( أو بعض ، لا فرق ) ما أنتجته ثقافتنا الماضية استباقاً لكل ما هو خير ومتقدم ومتم للحداثة في الحاضر والمستقبل . ومن هذا « الموضوعية » و « التاريخ العلمي » .

منحى هذا الكتاب موجه وجهة مقابلة ومناقضة . فهو يرى في غرابة التراث التاريخي - لا في قرابته - محور ولب هذا التراث . ما يراه جل الباحثين على انه انحراف عن سوية التاريخ العلمي يرّد في هذا الكتاب الى مجال الخصوصية والتميز والتعين التاريخي . ويجري اعتبار مقالات المؤرخين حول الاسناد وغير ذلك من الامور غير المنتسبة الى « التاريخ العلمي » ، وذلك احتراماً لهم ولاكتفاء عصرهم عنا وللموضوعية والعلمية الحقّة المتمثلة في التاريخية على حد سواء ، على انها بالفعل الامور التي توجه كتابة التاريخ وعلى انها شؤون ترتب عليها نتائج هامة فيما يتعلق ببني ومفاهيم هذه الكتابة . فهذا الكتاب محاولة في اعطاء التراث حقه في الخصوصية والتميز المطلقين ، واعادة التوكيد على ماضوية الماضي واكتفائه بنفسه ، وفرضه على كل ما يصدر عنه شروط وضوابط تختص به بما هو ثقافة متكاملة ليست بحاجة لنا لكي ننقذها من ماضويتها .

ليس هذا الكتاب تأريخاً للكتابة التاريخية العربية ، بل دراسة بناها كما

---

(١) في الاسس الميتافيزائية لهذه التصورات ، يراجع الكتاب النافذ (WHITE (1973) الذي ما يزال للاسف ينتظر الترجمة الى اللغة العربية . ترد الإحالات مختصرة في الهوامش ، وعلى القارئ الرجوع الى الثبت الجليوغرافي في نهاية هذا الكتاب للتفاصيل التي قد يطلبها .

تتبدى في نتائجها الناضجة<sup>(١)</sup> التي وسمتها وحدة ذات معالم محددة وقابلة للعزل والوصف . وهو ليس بالمقدمة التي تصف وتعرض ، بصورة تعليمية ، اسس هذه الكتابة ، بل هو يفترض معرفة اساسية بأدبيات التاريخ في الثقافة العربية - الاسلامية . كما ان هذا الكتاب ليس دراسة هستوريوغرافية تنظر الى مدى صحة الاخبار الواردة في كتب التاريخ ، بل هي تنطلق من هذه الاخبار بما هي معطيات رأى أرباب التاريخ في الثقافة العربية - الاسلامية ضرورة الاخذ بها لاسباب يتناولها الفصل الاول . فكون شعوب عاد او ثمود او يأجوج ومأجوج اقوام لها وجود او لاوجود لها ، وكون نوح(وطوفانه) وعدنان شخصيات اسطورية ، ليس من شأن هذه الدراسة ، فالهدف من الصفحات القادمة تبيان اسس كتابة التاريخ في حقل ثقافي وتاريخي محدد ومعين ، وذلك بناء على المحور الاساسي الذي ينتظم هذا الكتاب : محور المعقولة . ليس مرادنا المعقولة المجردة التي يتسم بها التاريخ الوضعي بل المعقولة التاريخية التي تصف الأشياء في الموقع الذي تحتله في مكان وزمان معينين . فـيأجوج ومأجوج شعب له معقولة معينة في اطار معين ، معقولة تفرض الأخذ بان اصحاب التاريخ سلموا بوجوده ، والنظر في مسوغات هذا الأخذ ونتائج ، دون ان يعني ذلك اقتناعنا بحقيقة انطولوجية لهذا الوجود . فوجوده تاريخي بكل ما لهذه الكلمة من معنى : ليس مرادنا الامكان ، بل شروط الامكان في التاريخ ، ومن هذه الشروط الخرافة .

على ذلك ، ينطلق هذا الكتاب من دراسة اصول التاريخ كما تتمثل في عنصره الأساسي وهو الخبر . فتردد الخبر الى عناصره المفاهيمية وتستخرج منه اسس كتابة التاريخ . ثم تتناول دراستنا صلة عناصر التاريخ - الاخبار - ببعضها

---

(١) نشوء الكتابة التاريخية العربية وتاريخها وروافدها ثم تناولها من قبل عل ( ١٩٥٠ - ١٩٥٤ ) و Gibb و Sezgin . وقد عولج مؤخراً في كتاب كامل (FARUQI(1979) ، وانظر مصطفى ( ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ) . اصبحت الملامح العامة لتطور الكتابة التاريخية العربية واضحة الا ان دراسة تركييبية وتحليلية لتاريخها ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، لم تر النور بعد .

البعض في بناء موضوعات الكتابة التاريخية وفي انساق الكتابة التاريخية التي تفصح عن ترابط الأشياء الماضية على صور يدرسها هذا الكتاب ببعض التفصيل في الفصلين الثاني والثالث ، اللذين يحتويان على تحليل منطقي لآليات المعرفة التاريخية ، ولكنه يصف المفاهيم الأساسية في التاريخ ، كـ « الأمة » والتابع والزمان والتحول وغيرها . ويختم الفصل الرابع هذا الكتاب الصغير بمحاولة للتركيب فيما بين النتائج التي توصل إليها البحث في فصوله الثلاثة بحيث يبرز العناصر التي تحكم انضباط الكتابة التاريخية وتجعل منها ، بالتالي ، شيئاً مستمراً موحد الممارسة ، ملحقاً بالسلطان ، دون ان يكون تصور هذا اللاحق اختزالياً بل تكاملياً .

جاء الكتاب ، تبعاً لضرورات موضوعه ، وصفاً للكتابة التاريخية العربية . فالكتابة هنا ، كما سنرى ، لا تتناول موضوعاً له ارهاصات نظرية تجعل منه علماً ، بل هي ممارسة صناعية تقنية لها قواعد دون أن تكون لها شروط مطلقة . فضوابط الكتابة التاريخية واسسها ليست مثل العناصر المطلقة التي تصف حدود علم ، بل هي ضوابط وامس احصائية ، غير ملزمة ، يجري وصفها كضوابط بسبب تواترها لا بسبب ضرورتها . ولذا ، فقد جاء الكتاب مقتصراً على وصف لمناحي الكتابة التاريخية المستقرأة من تواترات لا مجال لاحصائها ولا فائدة من احصائها ، تواترات جاءت في الصفحات القادمة بصورة امثلة . فلكتاب التاريخ ممارسة صناعية تجريبية ، والشواهد على قواعدها لا تحصى ، ولا فائدة من احصائها باليد المجردة ، وقواعد هذه الممارسة قواعد وجهة ليست قواعد قانون . وربما كان عدم كون التاريخ علماً له حيزه المستقل من النظرية والممارسة والمؤسسة احد اهم نتائج هذا الكتاب .

شباط ١٩٨٢

الفصل الأول

أُصُولُ التَّارِيخِ

ليس التاريخ علماً بالواقع ، بل معرفة بخبر عن الواقع . فكتابة التاريخ إخبار وإعلام عن الحادثات الماضية ، والتاريخ ، حسب الكافيحي أحد منظريه القلائل ، منقول عرفي « كسائر المنقولات الشرعية والعرفية كالأيمان والصلاة ونحوها وكالدابة ونحوها »<sup>(١)</sup> . كما هو « ذكر الاخبار الخاصة بعصر أو جيل » حسب التعريف الذائع لابن خلدون<sup>(٢)</sup> ، اذ هو « علم من الاخبار »<sup>(٣)</sup> التي تتناول « احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وانسابهم ووفياتهم »<sup>(٤)</sup> ، و « ذكر احداث مشهورة كانت في أزمنة خالية ... كطوفان مخرب او زلزلة مبيدة او أوباء وقحوط مستأصلة لأمم واسماء الملوك المذكورون في الاقاليم بعددهم وأيامهم ومدة ملكهم وانتقال دولهم »<sup>(٥)</sup> . وباختصار ، فالتاريخ « فن يبحث فيه عن وقائع الزمان »<sup>(٦)</sup> .

بهذه الصورة ، التاريخ خبر ، كما ان الحديث والقرآن والشعر خبر . والفرق بين التاريخ والأطر الأخرى لسياقة الاخبار - من كتب في الخراج والحديث والفقه والادب والتفسير - هو في انحصار الاخبار التاريخي في ذكر الملوك والرسل والصحابة وتسواريخ مولدهم ووفاتهم ،<sup>(٧)</sup> تعييناً بالزمان وتحديداً بالتأريخ من

(١) الكافيحي ، مختصر ، ص ٥٤٨ .

(٢) المقدمة : ١ / ٥٠ .

(٣) المسعودي ، مروج ، ١٣٥ / ٣ .

(٤) يرد هذا التعريف بحرفيته لدى حجي خليفة ، كشف الظنون ، ٩٥ / ٢ وطاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ٢٥١ / ١ والجبرتي ، عجائب الآثار ، ٦ / ١ .

(٥) ابن فريغون ، جوامع العلوم ، ص ٥٣٩ .

(٦) السخاوي ، اعلان ، ص ٧ .

(٧) الطبري ، تاريخ ، ٦ / ١ .

اجل « ضبط الحوادث » بتاليها<sup>(١)</sup> . فالتاريخ ليس إخباراً « بحثاً » بل هو « تعيين الوقت » لحادث من الحوادث ، هو تأريخ شيء بالنسبة لشيء حدث قبله ضمن اطار تقويم ما ،<sup>(٢)</sup> اذ هو « يبحث فيه عن الزمان واحواله وعن احوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته »<sup>(٣)</sup> .

ليس مرادنا هنا فاعلية التعيين الزمني التي تفصل التاريخ عن الاطر الاخرى لسياقة الاخبار ، وسيكون هذا التحديد للتاريخ موضوعاً لفصل لاحق من هذا الكتاب . فبغض النظر عن هذا التحديد وعن انحصار الإخبار التاريخي بزم من الموضوعات تشكل الموضوع الذي يفصله عن غيره - وهذه الزمر بدورها ستكون موضوع فصل لاحق - فاننا سنعالج التاريخ بما هو فاعلية إخبارية ، فالإخبار ، اكان مترافقاً مع تعيين زمني ام لا ، هو إخبار عن وقائع . وصلة هذا الإخبار بالحداثات التي يخبر عنها ، كصلته بتواتر هذا الإخبار واندرجه في اطار سردي ما ، لا تمت بصلة الى تعيين وقت هذه الحداثات إلا بما يكون تعيين الوقت هذا عنصراً من « محتوى » الخبر ، وهي تتصل بمحتوى هذه الحداثات وتعيينها الزمني بصلة تندرج ضمن خصائص الخبر الذي هو موضوع الاخبار ، اذ ان علاقة هذا الخبر بموضوعه علاقة لها خصائص سنتناولها الآن ، وهي خصائص لا تحدد خصوصية الاخبار التاريخي بل تسم كل خبر اينما كان اطاره العلمي او المؤسسي او التاريخي . لا تختلف علاقة الخبر التاريخي بالواقع عن تلك التي تربط اي خبر آخر بالواقع الذي يخبر عنه ، فكلاهما علاقة ابلاغ .

(١) مقرزي ، خطط ، ٢٥٠/١ .

(٢) انظر التعريفات الشائعة : على سبيل المثال ، لسان العرب ، مادة « أرخ » ، والتهانوي ، كشاف ، ٥٦/١ ، وحجي خليفة ، كشف ، ٩٥/٢ ، والايحي ، تحفة ، الترجمة في Rosenthal (1969) ، ص ٢٠٧-٢٠٨ ( وللأسف فان روزنتال لم يقدم للقارئ النص العربي ، وعلى القارئ ان يعذر من ترجمته - راجع كتابنا Al- Azmeh (1981) الفصل الثاني ) .

(٣) الكافيحي : مختصر ، ص ٥٤٩ ، وقارن تعريف السخاوي في اعلان ، ص ٧ : « فن يبحث فيه عن وقائع الزمان في حثية التعيين والتوقيت » .

على ذلك ، ليس أبداً بمستغرب أن يسمّى التاريخ بعلم الخبر . فابن حزم مثلاً يطلق عليه هذا الاسم ويعالجه وكأنه متضمن اخباراً بحثاً دون الالتفات الى التعيين الزمني للفاعلية التاريخية ، وذلك في رسالة قيمة من جهة ابلاغنا حول التوازيات المفهومية بين العلوم المختلفة في الثقافة العربية - الاسلامية .<sup>(١)</sup> كذلك الامر ، يورد الخوارزمي علم الأخبار بوصفه احد العلوم العربية الستة التي تتضمن الكلام واصول الفقه والنحو وغيرها .<sup>(٢)</sup> ويتوازي هذا الادماج المفهومي التام للتاريخ في الاطار الاوسع للخبر مع ادماج سوسيولوجي - ثقافي للفاعلية التاريخية في الاطر الثقافية الاوسع للثقافة العربية - الاسلامية . فليس ثمة مؤرخون محترفون في الثقافة العربية - الاسلامية ، وذلك شأن جميع الثقافات غير البورجوازية الحديثة ، كما في روما وأثينا القديمتين مثلاً<sup>(٣)</sup> أو في أوروبا العصور الوسطى<sup>(٤)</sup> . لم يكن للتاريخ مؤسسة اجتماعية وثقافية خاصة<sup>(٥)</sup> كما كان للفقه مثلاً ، من مدارس واقاف ومذاهب ومرتببات وآليات تنفيذية من قضاء وغيره . ولم يكن للتاريخ نظام نموذجي علمي يفصله عن غيره ، نظام نموذجي يتبدى في فصله الصريح عن غيره من العلوم في تصانيف العلوم التي نراها عند ابن خلدون أو الفارابي مثلاً<sup>(٦)</sup> ، بل هو ، عندما كان يرام الدفاع عنه وتثبيت فاعليته العلمية ، كان يرد الى الفقه والحديث وغيرها من العلوم بما هو آلة لها وخادم . وهذه بالضبط هي الصورة التي قدمها السخاوي في الاعلام بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ والكثير غيره ممن مارس الكتابة التاريخية واضطر للدفاع عنها او رام تقييدها . فالتاريخ فاعلية تنتج معرفة توظف في اطر شتى - من حديث

(١) التقريب لحد المنطق ، ص ٢٠٢

(٢) مفاتيح العلوم ، الباب السادس .

(٣) Auerbach (1965) ص ٢٣٩ .

(٤) Bloch (1962) 1/88 .

(٥) راجع H.A.R. Gibb في دائرة المعارف الاسلامية ، الملحق للطبعة الانكليزية الاولى ، مادة

« تاريخ » ، ٢٣٨ أ - ب ، ٢٤٠ او Rosenthal (1969) 45ff .

(٦) انظر ، مثلاً ، ملاحظات 86-87 (1976) Cahen .

وفقه وتفسير وتصوف ووعظ - ، ولكنها معرفة تنتج من أصول ليست خاصة بهذه الفاعلية . فأصول التأريخ ليست من التأريخ بل هي من خارجه ، فهي من مفهوم الخبر .

لهذا السبب ، فإن التأريخ ليس بعلم مستقل ، وهو لا يعرف حداً لموضوعه كما هي الحال في العلوم كافة في الثقافة العربية - الإسلامية<sup>(١)</sup> . وبما انه لا يعرف الحد فهو لا يخضع للمعالجة المنهجية المفلسفة التي نرى فيها ترقياً بين البسيط والمعقد وبين الخصوص والعموم ، كما ان تقسيم مسائله واحصائها لا يعود لاندراجها اندراجاً نوعياً تحت موضوعها ، بل لتفرعها الى مطالب لا موضوع لها ولاجنس ، بل ان مفردات هذا «الموضوع» تساق في اطارها كمفردات على قدم المساواة فيما يتعلق بعمومها وخصوصها ولها بالتالي الخصائص المعرفية عينها . هذا هو فحوى التحليل الصائب لفخر الدين الرازي الذي يرتب التأريخ بين الحديث والمغازي ويقسمه الى مطالب هي مفرداته : فالتأريخ ينقسم الى السيرة وتاريخ الخلافة واخبار علي بن ابي طالب ثم الى بني امية وبني العباس والغزنويين وخوارزم شاه ولي نعمته<sup>(٢)</sup> ، وهو عين تصور ابن خلدون للحوادث التي « لم تعلم اصولها وانواع لم تعتبر اجناسها ولا تحققت فصولها »<sup>(٣)</sup> . ويتوازي مع هذا تقسيم الخوارزمي لعلم الخبر الى مطالبه : اخبار الفرس وملوك الاسلام والروم واليونان واليمن والمغازي والجاهلية<sup>(٤)</sup> ، ومع تقسيم السخاوي المحتوي على « مولد الرواة والائمة . . . . وما يتفق من الحوادث والوقائع الجلية من ظهور ملة وتجهيد فرض وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وانتقال دولة »<sup>(٥)</sup> . تلك هي الوقائع المفردة التي يضطلع التأريخ بتأريخها ، وتلك هي « الأحداث

---

(١) التهانوي كشف ، ٦٨٨/١ ، الجرجاني ، تعريفات ، ص ٢٥٦ .

(٢) Rosenthal (1969) ص ٣٨ .

(٣) مقدمة ١ / ٤ .

(٤) مفاتيح ، الباب السادس

(٥) اعلان ، ص ٧ .



المشهورة»<sup>(١)</sup> التي تؤرخ وتساق بما هي أخبار مفردة ، شأنها شأن « كتاب من جمع بين اختين » و« كتاب اللواطيين » للمدائني <sup>(٢)</sup> و« كتاب نسب الخيل في الجاهلية والاسلام » لهشام بن محمد الكلبي <sup>(٣)</sup> ، وسياقة ابن قتيبة لـأخبار البرص في المعارف أو الكتاب مجهول المؤلف حول «تاريخ غرباء مصر»<sup>(٤)</sup>. فكل هذه تحتوي على أخبار مفردة هي مساقاة بما هي أخبار ومن باب « المحاضرات والتواريخ » التي تتضمن المغازي والسير والطبقات وغيرها من الحوادث الماضية<sup>(٥)</sup>. الواقع ان انعدام حد للتاريخ يجعل لمجال اخباره رحابة تكاد تكون لامتناهية ، واللامتناهي هذا يندرج بدوره في باب انقسام التاريخ الى مطالب دون ان يكون له موضوع يحده .

وهذا الانقسام اللامتناهي الى مسائل هو انقسام الى اخبار . فالتاريخ ، حسب التعريف الاكثر منهجية ونسقاً في الثقافة العربية - الاسلامية ، هو صنف من علوم الخبر التي تتضمن ايضاً السير والقصص والانساب والآثار : فهو علم ادبي ( ادبي بما هو ليس شرعياً ) يتناول الاعيان في نثر متبع بحسب المعنى دون اللفظ<sup>(٦)</sup> ، وعدم اشتراط دقة اللفظ فصل له عن الحديث . والاخبار تحتل حيزاً يتوسط بين الاسماء المفردة والبرهان ، كما يتبين من ترتيب ابن حزم لكتابه في التقريب لحد المنطق .

التاريخ اذن إخبار ليس انشائياً<sup>(٧)</sup> أي انه لا يؤدي بالضرورة الى عمل ، من امر ونهي وما الى ذلك . ولكن كونه غير شرعي لا يبطل من فاعليته في الشرع ، فان الشرع بحد ذاته يبتنى على أخبار هي ، وان كانت ذات فحوى

(١) ابن فريغون ، جوامع ، ص ٤٥٩ .

(٢) النديم ، فهرست ، ص ١١٤ ، ١١٧ .

(٣) Sezgin I/269 .

(٤) حجي خليفة ، كشف الظنون ، ١٣٨/٢ .

(٥) طاش كبرى زاده ، مفتاح ، ٢٧١/١ ، ٢٨٢ - ٢٨٦ .

(٦) الايجي ، تحفة ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٧) لهذا المفهوم ، انظر التهانوي ، كشف ، ١٣٦٠/٢ وابن الحاجب ، مختصر ، ٦٨ ،

و Van Ess (1966) ص ٩٧ - ٩٨ .

انشائي كخطاب الشرع كما نراه في القرآن والحديث والاجماع ، تظل أخباراً .  
فالتاريخ كما قال المسعودي « كل علم من الاخبار يستنبط ، تبتنى عليه الاقيسة  
ويستشار منها الفقه ويحتج بها اهل المقالات وتوجد فيها امثلة الحكماء وتلمس  
منها سياسة الملوك والحرب »<sup>(١)</sup> . وبيقاتها اخباراً ، فان الانشاءات الشرعية  
تخضع ، معرفياً ، لعين المتطلبات التي يخضع لها الخبر غير الانشائي من خبر  
تاريخي وغيره . فالخبر ، كما يقول منظر فذ ، سبب العلم لعامة الخلق بمجرد  
كونه خبراً ، و« مع قطع النظر عن القرائن » ، مثل كونه خبر الرسول او خبر  
التواتر عن الملوك السابقة ، فكلاهما « مساويان بالضرورة » وثابتان كثبوت  
المحسوسات والبدهييات<sup>(٢)</sup> .

الخصائص المعرفية للخبر ومجمل بناء قضايا لا معالجة لها في اطار علم  
التاريخ ، بل هي اجزاء من علوم اخرى . والخبر بحد ذاته لا يجد تعريفاً في  
ادبيات التاريخ . وتبيننا موسوعة التهانوي ان الخبر لفظ يطلقه الاصوليون  
والبيانون المنطقيون والمتكلمون « على الكلام التام غير الانشائي »<sup>(٣)</sup> . الخبر ،  
حسب التعريف المعتمد في كل العلوم ، هو القول الذي يدخله الصدق  
والكذب ، اي ما هو اما صادق واما كاذب<sup>(٤)</sup> . اما الصدق والكذب ، وهما  
الوجهان الحصريان للخبر ، فهما يعتمدان على « المطابقة » وهو المفهوم الذي  
تلقاه المفكرون العرب - المسلمون من علوم اللغة اساساً ، والذي اطلق شهرته في  
عصرنا كلام ابن خلدون . فالخبر « كلام يكون لنسبته خارج تطابقه تلك النسبة  
فيكون صادقاً او لا تطابقه فيكون كاذباً »<sup>(٥)</sup> . فصدق الخبر مطابقته لهذا  
الخارج وكذبه عدم مطابقته له .

(١) مروج الذهب ، ٣ / ١٣٥ .

(٢) التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، ص ٣٥ ، ٣١ ، ٣٤ .

(٣) كشاف ، ١ / ٤١٠ .

(٤) لسان العرب ، مادة « خبر » وابن الحاجب ، مختصر ، ٦٨ ، والبغدادي ، كفاية ، ١٦ .

و Goichon ، ٢٠٦ .

(٥) التفتازاني ، شرح ، ٢٨ .

علاقة الخبر بخارجه ، إذن ، علاقة تسببية . فالمطابقة التي تحكم على الخبر بالصحة ليست مطابقة ضرورية ذات شروط واضحة ، كما أراد ابن خلدون في وصفه لمعرفة طبائع العمران وكأصل تعرض عليه الاخبار في سبيل الحكم بالمطابقة او بعدمها ، وهي الارادة التي ، كما يبيننا في مكان آخر ، بقيت على صعيد التمني اذ لم تكن هناك سبل معرفية في متناول الثقافة العربية - الاسلامية لتطوير هذا التمني نظرياً ولتطبيقه عملياً<sup>(١)</sup> . فالصدق والكذب «نستبان بين الخبر ومتعلقه عدميتان لا وجود لهما في الاعيان بل في الازهان»<sup>(٢)</sup>، إذ أن الخبر في الواقع، وبغض النظر عن الدور المنطقي المتعلق بتعريفه، «لفظ دال بالوضع على نسبة معلوم الى معلوم او سلبها» ، وذلك «على وجه يحسن السكوت عليه»<sup>(٣)</sup> .

إن النسبة الوهمية التي يحسن السكوت على وجهها مفتاح انطولوجيا الخبر . فان علاقة الخبر بأصله - أي بخارجه وبما يخبر عنه - لا تتضمن أي قدر من الضرورة، وهذا الواقع يصب بدوره في اعتبار التاريخ اخباراً عن واقعات مفردة تسرد بما هي مطالب لا اجناس لها ولا مواضيع . فعلاقة الخبر بخارجه بالمطابقة او عدمها لا تقوم على اساس من الخبر او على أصل من خارجه ، بل هي دلالة موضوعية . وكونها موضوعية يعني انها ليست بالدلالة الطبيعية والضرورية التي تتسم بخصائص معرفية منها البداهة والحدس . فما من شيء يؤكد ان خبراً ما ينبيء عن حادثة انباء صحيحاً ، من وجه حقيقة الحدوث اولاً ودقة الانباء ثانية ، وهذا ينطبق على كل خبر في كل ثقافة وفي كل علم - وربما كان التحول الحاصل اليوم في علم التاريخ والمؤدى الى البحث عن المعقولة بدلاً من البحث عن صحة الخبر التي افتن بها التاريخ الوضعي في ثقافته المختلفة ، تحولاً يدل على بداية انقطاع محمود مع ميشولوجيا الصحة التاريخية . فليس من ضمان لصحة الخبر إلا من باب الثقة بالناقل . وهذا ما تنبه اليه جل من كتب التاريخ في

(١) العظمة ، ابن خلدون ، الفصل الثاني القسم الثالث .

(٢) القرافي ، تنقيح الاصول ، ص ١٥٠ .

(٣) الأمدى ، الاحكام ، ١٢/٢ .

الثقافة العربية - الاسلامية . فما هو الطبري يبلغنا اعتماده الكلي على النقل والاسناد « دون ما ادرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس الا اليسير القليل منه . . . اذ كان العلم بما كان في اخبار الماضي . . . غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس »<sup>(١)</sup> . وها هو « العقلاني » الكبير المسعودي يصصر على ان مروج الذهب « كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر »<sup>(٢)</sup> ، بينما نرى احد أكبر المحققين ، وهو ابو الريحان البيروني ، ينفي « انتقاد الاخبار » عن مقاصد التأريخ<sup>(٣)</sup> ويصصر على ان اخبار السالفين لا يمكن التوصل اليها « من جهة الاستدلال بالعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب . . . [ وجعله ] أسأ يبنى عليه بعده »<sup>(٤)</sup> .

ليس ثمة برهان على صحة خبر ، اذن ، واقصى ما يرومه المرء هو الترجيح . كما ان اسس الترجيح ، كما يعرضها احد كبار المحدثين والمؤرخين ، تتناول في الاساس مطابقة المرجح « لعمل الامة » ، او رواية الخبر في تضاعيف قصة متواترة ، معروفة عن اهل النقل ، هذا بالاضافة الى العوامل المتعلقة مباشرة بنمط النقل الذي يجري الخبر نتيجة له<sup>(٥)</sup> . وحتى الراجح مما لم يخالف العادة لا يتعلق بامكان ناتج عن طبيعة الخبر او طبيعة خارج هذا الخبر ، بل هو

---

(١) تاريخ ، ١ / ٦ - ٧ إلا ان هذا لا يعني مطلقاً ان الطبري او غيره من المؤرخين لم يرجحوا ، على الأقل ضمناً . هو في العادة يورد ما يراه القول الحق ، ثم يرفده بما يعضده من أقوال وما يخالفه من اخبار ، مستعملاً عبارات مثل « ما صح عندنا » و « والصواب في القول من ذلك عندنا » انظر ، على سبيل المثال ، لعب ما يراه صحيحاً وما لا يراه صحيحاً في الاخبار حول خلق القلم في تاريخ ، ١ / ٢٩ وما يليها . راجع (Hodgson 1974) ، ١ / ٢٥٤ - ٢٥٧ لتحليل ثاقب حول الأساليب غير المباشرة التي يستخدمها الطبري لترجيح ما يراه صحيحاً وذلك عن طريق غمط ترتيب الاخبار والإشارة الى أخبار مقتل عثمان .

(٢) مروج ، ١ / ١٥١ .

(٣) آثار ، ص ١٠٠ .

(٤) آثار ، ص ٤ .

(٥) كفاية ٤٣٤ - ٤٣٦ .

« من جهة المخبرين لتفاوت المهمم »<sup>(١)</sup> . ومن هذا الباب ، فإن ابن خلدون يناقش الانساب المعتمدة عند الكافة ويشك في انحصار نسل الخليفة في أولاد نوح الثلاثة ، إلا أنه يعود فيقول ان هذا هو المتناقل بين النسابة فيعتمده ويبنى عليه مقاله<sup>(٢)</sup> - جارياً بذلك على النسق الوحيد الممكن في ممارسة تاريخية تعتمد الخبر اساساً لها ، وهو اعتبار الثقة بالنقل - وليس من ثقة بالنقل أكثر من التواتر الذي يتحدث عنه ابن خلدون - معيار الصحة التاريخية . فليس هناك من خبر يعلم صدقه عن طريق غير طريق روايته - فالخبر الذي يعلم صدقه ضرورة هو الخبر المتواتر ، وخبر الله والرسول والاجماع ، وما وافق النظر المبني على ذلك كله<sup>(٣)</sup> - هذا مع ان ابن خلدون بعد موافقته على كفاية الثقة بالرواة لاعتبار صحة التكاليف الانشائية ، اصر على طرح مشروعه المستحيل لاعتبار المطابقة في سبيل تحديد الصحة وبغض النظر عن النقل<sup>(٤)</sup> ، وكأنا قياس الغائب بالشاهد الذي يقترحه المفكر الكبير قادر على بيان الصحة كما هو قادر على بيان الفساد والمحال .

الظن بصدق خبر ما استناداً على صلابه رجاله كاف للعمل به ، ناهيك عن اعتماده في خطاب التاريخ<sup>(٥)</sup> . والحق انه « إذا فكر المؤرخ في ان ما يكتبه لا بد وان يكون محققاً ومقطوعاً بصحته ، فانه لن يستطيع ان يكتب اي تاريخ »<sup>(٦)</sup> . ونحن نرى في الواقع ان الشروط التي وضعها شهاب الدين الایحي

(١) البيروني ، تحقيق ما للمهند ، ص ٢ .

(٢) التعريف ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٣) ابن الحاجب ، مختصر ، ص ٦٩ .

(٤) مقدمة ، ٦٠/١ - ٦١ .

(٥) حسب الفقهاء الاصوليين ان معظم التكاليف الانشائية ظنية في نفسها ، ولكن هذا لا يمنع من كونها موجبة للعمل : انظر التهانوي ، كشف ، ٧١/١ والامدي ، احكام ، ٧/١ -

٨ ، ١١٠ والبيضاوي ، منهاج ، ٣ - ٤ .

(٦) رشيد الدين ، جامع ، ١٩٨/١ .

بقبول مصداقية خبر ما في مجال التاريخ<sup>(١)</sup> - وتحليل الايجي هو التحليل الأكثر تطوراً في الثقافة العربية - الاسلامية - لا تبتعد في مجالها المفهومي عن دائرة الاصول التي نعتد البعض من اسسها في نقاشنا هذا ، ولا تفترق في تفصيلها عن ترتيب علم الحديث لقرب او بعد اخباره عن اليقين استناداً على الرجال وعلى الاجماع بقبول الاحاديث : من اخبار صحيحة وحسنة وضعيفة وسقيمة وتشعب كل من هذه الانماط ، واخرى متواترة او مشهورة او مستفيضة او عزيزة او غريبة ، ثم تصنيفها حسب اصلها الى متصل ومقطوع ومنفصل ومعلق<sup>(٢)</sup> . فاليقين لا يقوم على معاناة الخبر معاناة طبيعية ، بل هو قائم على اعتبار الرجال . ولذا فنحن نرى ان العرض المفصل الذي يعطينا اياه الايجي بصدد اسس ترجيح صحة خبر ما<sup>(٣)</sup> يقوم في اصله على عناصر خارجة عن الخبر وعن المخبر عنه . فمن هذه الاسس السبعة ، هنالك اربعة تتعلق بالنقل ، وهناك اساس خامس ذو علاقة بفصاحة الخبر وصياغته وصراحته ، وسادس ذو صلة باخلاقيته ، ولا نجد الاً أصلاً واحداً يتناول كثرة الأدلة على الصحة دون تعيين معنى الدليل - والأرجح ان الأدلة في هذا الاطار تشير الى القرائن ، اذ ان هذا يتماشى مع ما اسلفنا به القول من انه ليس لصحة الخبر صلة « طبيعية » بخارجه او بألية نقله مما يمكننا من التوصل الى هذا الصحة بالنظر وبالدليل ، والقرينة - وهي الايماء والتداعي - أقرب الى واقع الحال من الدلالة ومن البرهان<sup>(٤)</sup> . فلا برهان الا المشاهدة ، ولا تصديق للمشاهدة الا بتصديق الراوي وبالثقة في سلسلة نقل القول الاول الى الحاضر - ولهذا طبعاً ترجمة دقيقة في المصطلحات المستخدمة في

(١) الايجي ، تحفة ، ٢١٩ - ٢٢٣ .

(٢) يمكن مراجعة اي كتاب كلاسيكي في الحديث بصدد تعريفات درجات يقينه وشروط صحته ، وربما كان العرض الاكثر انضباطاً ومنهجية في ابن الصلاح ، علوم الحديث ، ١٠ - ١١٤ ، والدراسة الحديثة للصالح ( ١٩٧٩ ) .

(٣) تحفة ، ٢٣٦ وما يليها .

(٤) حتى أدلة الاصول تقوم على قرائن تسمى « عللاً » .

نقل الاخبار من « اخبرنا » و« حدثنا » وما الى ذلك<sup>(١)</sup> ، والتي تتعلق جميعاً وبدون استثناء بقياس دقة النقل واقتراب نص الرواية التابعة للرواية السالفة واقتراب الجميع لنص الرواية الاولى والمؤسسة للخبر موضع النقل .

الثقة بالنقل اذن ، اصل النقل الخبري واصل السرد التاريخي والإخبار عن الماضي . وليس من شك في دخول البطلان على الخبر ، اذ ليس ثمة برهان على الصحة ، كما قلنا ، كما ان عدم وجود طبيعة للاشياء تحكم بصحتها يجد تتمته في انعدام اصول للباطل وللامتناع ، اللهم الا ما خالف البدهة والتواتر كما سنرى . ومخالفته هذه يكون قد خالف الامكان ودخل في باب المحال . ذلك ان « الابطال التي تدخل جل الاخبار والاحاديث . . . ليست كلها داخلة في حد الامتناع . . . لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد آخر » ، ويصبح بذلك جل طموح فاعلية النقد التاريخي « ان نأخذ الاقرب من ذلك فالاقرب ، والاشهر فالاشهر ، ونحصلها من اربابها ونصلح منها ما يمكننا اصلاحه ونترك سائرهما على وجهها »<sup>(٢)</sup> . فالنقد التاريخي هو في اساسه فاعلية ترميمية للاخبار ، ولذا فان النقد التاريخي في مجمله ينصب على ضبط التواريخ والاسماء ، وتطبيق مقومات البدهة العقلانية البسيطة في ترميم الاخبار التي فسد البعض منها على اساس الفساد البديهي والضروري<sup>(٣)</sup> . فهو لا يؤسس اخباراً صحيحة في اصولها ، بل هو يعارض بعضها ببعض الآخر ويقابل فيما بينها وما بينها وبين « ما علم بالضرورة وما من شأنه أن يتواتر

---

(١) افضل دراسة واكثرها دقة لهذا الموضوع في Sezgin, 1/77ff ، وانظر في أقسام تحمل الحديث ، ابن الصلاح ، علوم الحديث ، ١١٨ - ١٥٩ ، وقارن الموافي (د.ت) ص ٥٠ وما يليها .

(٢) البيروني ، آثار ، ص ٥ .

(٣) هناك امثلة كثيرة على ذلك في السخاوي ، إعلان ، ٨ وما يليها . لنماذج من النقد العقلاني البسيط هذا عند مؤرخين من المحدثين ، انظر العمري (١٩٧٥) ٩٨ - ١٠١ ومعروف (١٩٧٦) ٤٥٥ - ٤٥٧ لا يحيد المنهج العقلي للمعتزلة في نقد المتن عن هذه العقلانية البسيطة : راجع الموافي (د.ت) ١٤٦ - ١٤٧ .

ولم يتواتر<sup>(١)</sup> ثم يصار الى رفض ما يتناقض مع البداهة والتقليد وما لا تتلقاه العقول بالترحاب من امور مجردة ، بالاضافة الى ما هو مستحيل صراحة - ولو ان هذا الاخير امر عزيز على النفوس وخصوصاً نفوس العامة ، التي تتلقاه وتستحبه<sup>(٢)</sup> . ويقابل هذا التعداد الاخير ما تتقبله النفوس من اخبار : فهي تعتمد ما هو مألوف وما هو محسوس ، كما هي تتقبل ما تقبله الاخلاق وما هو عبره وما ينقله الثقاة وما يتوافق مع أهوائها<sup>(٣)</sup> .

ليس ثمة انتظام في العناصر التي يوردها الايمحي والتي اوردناها لتونا ، وهي في مجملها تفصيل لما يجمل عادة بالقول ان النفس تتقبل الامور القريبة وبعض الامور البعيدة وتنفّر عما سواها ، وهو تفصيل غير منضبط ، فهو مجرد تعداد لا يتضمن أية اسس لتصنيف ما هو موقع العدد . ولا مناص من التردد مرة اخرى ان هذا راجع لعدم وجود طبيعة ما للخبر ، فالخبر موقع للرواية ، والرواية هي مادة التاريخ والاخبار عموماً ، وليس للرواية بدورها طبيعة تخرجها عن كونها انباء محضاً ، فهي قول دون ان تكون خطاباً ، ولو ان لمحتواها فحوى خطايها . ولكن هذا الفحوى الخطابي شأن لا علاقة له بالرواية كفاعلية محصورة بالراوي وخارجه عن بنى الرواية عينها . ونحن نرى أنه حتى ابن خلدون الذي حاول ان يجعل للخبر طبيعة خاصة به ، يرد هذه الطبيعة الى علاقة الراوي بالخبر وسطوة الاول على الثاني : فاسباب كون « الكذب متطرق

(١) القراني ، تنقيح ص ١٥٣ .

(٢) الايمحي ، تحفة ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، قارن إشارة البيروني ( هند ، ص ١٩ ) الى « خرافات العوام في تكثير الغدد وتمديد المدد » .

(٣) الايمحي ، تحفة ، ص ٢٢٧ . يجب الآنسى ذكر البعض من الاخلاق الذي يدخل في التاريخ : فنحن نرى ابن خلدون يرفض الخبر المتواتر عن مضاجعة جعفر البرمكي للعبسة اخت الرشيد لأن ذلك مستحيل بسبب كون العباسة سليله النبي العربي ، ( مقدمة ، ١/١٨ وما يليها ) كما نرى ابن قاضي شهبة ( كواكب ، ١٨٢ ) لا يقبل ما ينسب احد المؤرخين الى نور الدين زنكي مما لا « يليق » .



للمخبر بطبيعته « ترجع للراوي بجملتها وتفصيلها : فالتشيع للمذاهب والثقة بالنقلين والذهول عن مقاصد الرواة وتوهم الصدق والجهل بطبائع العمران<sup>(١)</sup> ، كل ذلك من باب الرواية وليس من باب الخبر ، مما يجعل استخدام ابن خلدون لتعبير « الطبيعة » بالإشارة الى الخبر استخداماً مجازياً بحثاً يقوم فيه الخبر كناية عن رواية في وضع يكون فيه الراوي ، في الواقع ، اصل الخبر ومنتهاه . فلا الخبر وحده له شروط في أصله الطبيعي ، ولا لبني الخبر الداخلية طبيعة خاصة تؤثر على روايته . فالاعتماد على الرواية - اي الواقعية الاسمانية التي ترى في الصحة محاكاة لواقع فرد والتي ترى في السرد التاريخي بذاته محاكاة لا تختلف عن الاخبار الاصلية الذي تبتني عليه ، دون ان تخدع نفسها بكلام حول التحقق من الصحة على أسس تخالف الاعتماد على صحة الرواية - يرد قضية الصحة والثقة بأكملها الى مجال هو ليس سردياً خطائياً ، ولا هو بطبيعي : الى الاهواء القاطنة في سيكولوجية المؤرخ ، الى عطل في أداة النقل .

من هنا رأى البيروني ان الكلام عن الأمم المغايرة مليء بأساطير وأباطيل سببها سيكولوجية متلقّي واقع هذه الامم : فقصارى جهد المخبر بها ان يجعل من الحقيقة اسماراً يستمتع اليها التذاذاً ، وليس تصديقاً لها واعتقاداً<sup>(٢)</sup> . ومن هنا لا يجد المحققان الكبيران ، الذهبي وابن حجر العسقلاني ، حرجاً في قبول خبر عن بنت عبدالله الاندلسية المتوفية في العام ٧٠٥ للهجرة التي « أقامت عشرين سنة وأزيد لا تأكل البتة وأمرها في ذلك شائع لا ريب فيه ، حدثه [ أي حدث به الذهبي ] به ابو عبدالله بن ربيع المحدث ومحمد بن سعد العاشق وغيرهما . . . وذكر الشيخ عز الدين السفاروقي ان امرأة كانت بناحية واسط اقامت مدة مثل هذه لا تأكل شيئاً ، وذلك بعد الستمائة ، واخرى كانت في دولة المعتضد بخوارزم وقصتها صحيحة ذكرها الحاكم في تاريخ نيسابور<sup>(٣)</sup> . ولا

(١) المقدمة ، ٥٦/١ - ٥٧ .

(٢) تحقيق ماللهند ، ص ٤ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢٣٦/٢ - ٢٣٧ .

يستغرب المرء من اخبار الف ليلة وليلة حول بشر عيونهم في صدورهم<sup>(١)</sup> عندما يروي رجل عقلائي مثل ابن فضلان انه رأى بعينه رجلاً من يأجوج ومأجوج « واذ هو بذراعي اثنا عشر ذراعاً ، وله رأس كأكبر ما يكون من القدور ، وانف أكثر من شبر ، وعينان عظيمتان ، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر »<sup>(٢)</sup> ، كما لا يجد المقرئ حرجاً من رواية خبر تواتر حول غلاء العام ٦٩٦ للهجرة ، حيث قال ثور لصاحبه في بعض قرى دمشق بعربية فصحي « الحمد لله والشكر له . ان الله تعالى وعد هذه الامة سبع سنين مجدية فشفع لهم النبي ﷺ » ، وان الرسول امره ان يبلغ ذلك واخبره ان علامة صدقه عند الامة ان يموت بعد تبليغ الرسالة ، فمات ، « وعقب ذلك انجلت الاسعار وجاء الله بالفرج »<sup>(٣)</sup> . لا ريب لدى المحققين الذين اقتبسنا مقتبساتهم لتونا في صحة ما يروونه ، فخير بنت عبد الله الاندلسية اصله ابو عبد الله بن ربيع وغيره ، وخير الثور صاحب النبوة اصله تواتره ، اما خير ابن فضلان فأصله مشاهدته وهي ، كما رأينا بصدد عرف علم الخبر ، ترتبط بروايته برباط ترجمة متبادلة ، حيث الرواية مشاهدة للمشاهدة والمشاهدة مجرد مشاهد للمشاهد ، بحيث تكون المشاهدات المتسلسلة كناية عن بعضها البعض ، وحيث يأخذ اللسان مكان العين ويعمل كناية عنها عملاً لا يختلف في جوهره عن عملها : الاعلام عن حدث بشكل هذا الحدث ولسانه ، اي ترجمة الحدث الى قول .

لا يدخل الخبر اذن تأويل او تفسير . فالخبر ، كما يقول ابن خلدون بصدد الانساب والقبصص ، امر لا يدخله النسخ ولا يبقى الا تحري صحته في « النسخ الصحيحة والنقل المعتبر »<sup>(٤)</sup> ، فهو لا يقتني حيزاً ما وراء الخبري كما في

(١) الف ليلة وليلة ، ٤٧٩/١ .

(٢) رسالة ، ص ١٦٥ .

(٣) اغانة الامة ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) تاريخ ، ١٠/٢ .

الاحبار الشرعية التي تنسخ بعضها البعض لانها خطاب مطلق يقتضي ان تتوافق معه جميع الالفاظ . ولما كان الخبر بمنأى عن الفاعلية التفسيرية ، فلا يبقى الا القبول او الرفض دون المعقولة ودون المرور بأية من المجالات التي يحدها القبول من جهة والرفض من جهة اخرى . فليس هناك ثمة خلل وانحياز في منحى سردي ما ، بل هناك فقط الخطأ . وليس هناك ايمان خاطيء ، بل هناك مجرد الوهم<sup>(١)</sup> . فليس في الواقع فاعلية للأباشرة ، بل هو قائم في وضعانيته . كذلك الامر ، ليس في الاخبار عن هذا الواقع اية فاعلية خطافية ، بل هو يقوم على الانباء المباشر والتام . وكل ما عدا المباشرة هذه كذب بالنسبة للواقع ، وتحريف ( عوضاً عن تفسير ) للنص . فالنص ، شأنه شأن الواقع ، حيّز للمعاني التي لا تستقيم إلا بثبوتها الحاصل في ثباتها ، وتصبح العملية التفسيرية بمثابة بحث قاموسي لفاعلية ترجمة تتم فيها المطابقة التامة ، معرفياً وانطولوجياً ، بين الواحد والآخر ، بين العين واللسان ، وبين اللسان والقلم ، بين الخبر والقول ، وبين القول والخطاب - يجري بين هذه كلها حيّز استمرار تام يجعلها طبقات خارجية لوحدة جوهرية هي الواقع الذي ينتقل من العيان الى الورق . ولئن اصاب العلماء في بيانهم ان العلاقة بين الكتابة والعبارة والذهن والعيان علاقة دلالة المتقدم على متأخر<sup>(٢)</sup> ، إلا ان فعل الدلالة في اطار علم الخبر يَحْتَزِل الى واحد من الحدين اللذين يحصران مجال المعاني الذي تعبره عبارة « دلالة » ، الا وهو اتصال الاشياء صلة المثل بالمثل . فالوحدة دلالة تامة ومطابقة مطلقة .

تتبدى ثنائية الصدق / الكذب في الممارسة السردية للتاريخ في الثقافة العربية - الاسلامية التي تجعل من سيكولوجية الناقل - وفي احيان قليلة ، من

(١) انظر تعابير ابن خلدون في المقدمة ، ٩/١ - ٤٢ .

(٢) ابن حزم ، المنطق ، ص ٤ ، يسمي هذه « مراتب الاشياء في وجوه البيان » . انظر ايضاً طاش كبرى زاده ، مفتاح ، ٧٤/١ ، والمؤلفون العرب يسترجعون تقسيماً لوححدات الوجود شاع عند العرب الذين اخذوه عن النظرية الرواقية في اللغة التي تقسم وحداتها الى القول . Lekton ، الوهم fantasia logiki والعين tyxanon .

عناصر أخرى خارجة عن الخبر وعلاقته بالعين المخبر عنه - محكاً أصيلاً لصحة الخبر أو كذبه ، لمطابقته للعين أو عدم مطابقته له . فهذا هو ابن خلدون يدخل في خانة « ببدء الوهم والغلط » الرواية المتواترة والخاصة بتعداد جيوش بني اسرائيل<sup>(١)</sup> ، جرياً على شك بهذه الرواية لم ينفرد به هو<sup>(٢)</sup> ، ولكن دون ان يحاول تفسير الوهم والغلط او يردهما الى اي شيء خارج عن التوهم وارتكاب الغلط وسوء التقدير . كذلك الأمر ، يرد المقرئ في نفى المؤرخين انتساب الفاطميين الى علي بن ابي طالب الى رغبة العباسيين في « طمس انوارهم والحق الفساد والقيح بهم »<sup>(٣)</sup> ، دون ان يرى في عملية تلفيق او طمس الاخبار فاعلية لها شروط تخرج عن اطار ثنائية الصدق / الكذب الذي يحرك كل نقد تاريخي عربي ، ومنها نقد ابن خلدون ، الذي يرى في النقل مجرد « المحافظة على النقل »<sup>(٤)</sup> .

ولا شك ان من الطرائق الاساسية المتفرعة عن الشروط المفهومية السالفة للنقد التاريخي هو تراتب الروايات حسب الرواة ، وقد يكون من الممكن للباحث ، خصوصاً وان استخدم حاسبة آلية ، ان يصدر جداول بمصادر كتب التاريخ العربية ترتب هذه المصادر حسب هرمية للثقة ، وذلك استناداً الى ما يذكر عن هذه المصادر في الكتب التاريخية اللاحقة عليها . وقد يكون من المجدي مقارنة هذه بجداول أخرى ، هي اقرب مثلاً بسبب كثرة كتب الرجال ، تتناول مصادر الحديث . والدرجة الاولى في تراتب الرواة من البشر هو التواتر ، كتواتر وشهرة انساب العرب الى عدنان « لا لبس فيها »<sup>(٥)</sup> ، وكنسبة البربر الى كنعان

(١) المقدمة ، ٩/١ - ١٣ ، هذا على ان ابن خلدون ( تاريخ ، ١١٢٣/٥ ) لا يرى حرجاً في قبول خبر يقول بأن كفور خان المغولي سار الى محاربة نازو خان في جيش مؤلف من ٦٠٠,٠٠٠ جندي .

(٢) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨ / ٢ .

(٣) اتعاظ الحنفاء ، ٣ / ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) المقدمة ، ٥ / ١ .

(٥) ابن كثير ، بداية ، ١٩٥ / ٢ .

بن سام بن نوح بدلاً من انتمائهم الى جَمَيْرَ ، وهو قول باطل ، اذ « ما علم  
النسابون لقيس بن عيلان ابناً اسمه برّ أصلاً »<sup>(١)</sup> . ثم هناك تفضيل الرواة  
والثقة بهم كأساس للمفاضلة بين الروايات . فرواية ابن حزم عن اصل البربر  
افضل من رواية نسابة البربر مثل سليم المطعاطي وهاني ابن مسرور والكومي ، اذ  
ان « رواية ابن حزم اصحّ لأنه اوثق »<sup>(٢)</sup> . اما ابن كثير ، فهو يفضل رواية علي  
رواية « ابن دحية عن خط الوزير ابي رافع بن الحافظ ابن محمد ابن حزم عن  
ابيه » - بصدد تاريخ مولد النبي ، لان « الصحيح عن ابن حزم الاول انه لثمان  
مضين منه ( ربيع الاول ) كما نقله الحميدي ، وهو اثبت »<sup>(٣)</sup> . ومن هذا الباب  
اعتماد ابن خلدون لرواية لابن عساكر كان قد نقلها الاخير عن مصدر لم يفصح  
عنه ، على اساس « الظن انه ينقل عن مستند »<sup>(٤)</sup> . ونجد عين الاعتبار في  
قول ابن النديم أن العلماء قالت « ابو مخنف بأمر العراق واخبارها وفتحها يزيد  
على غيره . والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس . والواقدي بالحجاز والسير .  
وقد اشتركوا في فتوح الشام »<sup>(٥)</sup> ، كما نجده في اعتماد الطبري مصدراً اكبر  
للاخبار التاريخية في الكتب اللاحقة عليه<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن حزم ، جبهة انساب العرب ، ص ٤٦١ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ١٧٧/٦ .

(٣) بداية ، ٢٦٠/٢ .

(٤) تاريخ ، ٢٨٤/٢ .

(٥) الفهرست ، ص ١٠٦ .

(٦) لتراتب مصداقية الرواة الذين يعتمد عليهم الطبري ، انظر جواد علي ، « مصادر تاريخ  
الطبري » ، في مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ١ - ٣ ( ١٩٥٠ - ١٩٥٤ ) . حفاظاً على  
تكامل الماضي واستمرارية الثقافة العربية - الاسلامية ، كان الجرح والتعديل في الواقع عملية  
فيها شيء من التسامح الا في حالات استثنائية . ويعبر السبكي عن هذا خير تعبير في سرده  
لقاعدة في الجرح والتعديل « نافعة لا ترواها في كتب الاصول » ( طبقات الشافعية الكبرى ،  
٩/٢ ) : « فانك اذا سمعت ان الجرح مقدم على التعديل ، وكنت غرا بالامور او ندماً  
مقتصراً على منقول الاصول ، حسبت ان العمل على جرحه . فاياك ثم اياك ، والحذر كل  
الحذر من هذا الحسبان ، بل الصواب عندنا ان من ثبتت امامته وعدالته ، وكثر مادحوه =

هنالك طبعاً درجة اعلى من التواتر والثقة بالنقلين ، بمعنى ان خبرها ينقض ما جاء متواتراً وعن ثقة . وهذه هي درجة الخبر ذو العصمة من خبر القرآن او خبر الحديث الصحيح . وتلك هي الأخبار التي تستخدمها كتب «التاريخ على طريقة المحدثين» ، كما يسميها حجي خليفة<sup>(١)</sup> ، مثل تاريخ ابن حبان وتاريخ زهير النسائي وتاريخ البخاري . فابن كثير يقول صراحة انه سيسوق الأخبار ثم يتبعها بالأحاديث بما يشهد لها بالصحة أو يكذبها<sup>(٢)</sup> ، وهذا منهج يجرح بأصحاب التواريخ مثل ابن إسحق لتساهلهم في الاسانيد<sup>(٣)</sup> .

= ومزكوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه ، من تعصب مذهبي او غيره ، فانا لا نلتفت الى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة ، والا فلو فتحنا هذا الباب ، واخذنا تقديم الجرح على اطلاقه ، لما سلم لنا أحد من الأئمة . فشرط المؤرخ حسب السخاوي ( اعلان ، ٦٣ ) العدالة مع المضيئ الناشئ عن الاتقان والتحري . في شروط الجرح والتعديل ، انظر ابن الصلاح ، علوم الحديث ، ٩٤ - ١٠٠ ، وانظر دراسة معروف ( ١٩٧٦ ) ٤٥٨ - ٤٦٥ لممارسة التعديل عند الذهبي ، دفاعاً عنه . وقد أخذ أحد الدارسين على ابن خلدون نقده لمحدثين كان الاول به ان يعتدل في نقدهم : ابن الصديق ، ابراز . فالعدالة من نتائج سمعة ناقل الخبر ( انظر الخطيب البغدادي ، كفاية ، ٧٨ وما يليها ) ؛ ومع ان السخاوي دعا الى عدم التشدد في ذم الآخرين وجرحهم ولو كذبوا في الحديث ( اعلان ، ٦٨ - ٦٩ ) ، إلا اننا نجد الكثير من الذم الجارح في الضوء اللامع . وقد الف السيوطي ، رسالة مقامة الكاوي على تاريخ السخاوي ( محفوظ في دار الكتب المصرية برقم ١٥١٠ أدب ) افتتحها بالكلمات التالية : « ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه اكابر واعياناً ، ونصب لاكل لحومها خواناً ، ملاء بذكر المساوي وثلب الاغراض ... وجعل لحم المسلمين من جملة طعامه وإدامه ، واستغرق في اكلها اوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير ... وامتد حتى الى العلماء والاعلام ، وقضاة القضاة ومشايخ الاسلام ( النص في ابن تغري بردي ، نجوم ، ١ / ٢٤٠ حاشية ) .

(١) كشف الظنون ، ٩٥/٢ وما يليها .

(٢) البداية ، ١٨/١ .

(٣) جواد على ( ١٩٥٠ ) ، ص ١٥٦ - ١٥٧ . يقول ابن هشام ( السيرة ، ٤/١ ) انه وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء . وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً =

ونحن نرى الكثير من المؤرخين ، ومنهم ابن كثير ، يورد من اخبار الاوائل والاسرائيليات استناداً على القرآن أولاً ، ثم المؤرخين والرواة من وهب بن منبه وغيره ثانياً . وما من شك ان هناك تراتباً في مجال الاخبار المعصومة الواردة في الكتب المقدسة ايضاً ، اذ ان القرآن نسخ جميع الاخبار الواردة في الكتب المقدسة السابقة عليه مما يجعلها عرضة لتأويل سنلمع اليه للتو ، كما هو يصحح ما جاء في أي مصدر آخر . من هنا مثلاً ، تصحيح ابن خلدون لما جاء في بعض الادبيات النسبية من ان جالوت ينسب لقيس بن عيلان . فهذا كما يقول ابن خلدون ، « امر بعيد عن القياس . ويشهد لذلك ان معد بن عدنان الخامس من آباء قيس انما كان معاصراً لبختنصر . . . وانه لما سلط على العرب اوصى الله لارمياء نبي بني اسرائيل ان يخلص معداً ويسير به الى ارضه . وبختنصر كان بعد داود بما يناهز ٤٥٠ من السنين ، فانه خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدة . فمعد متأخر عن داود بمثلها سواء . فقيس الخامس من ابنائه متأخر عن داود وبأكثر من ذلك . فجالوت على ما ذكر انه من ابناء قيس متأخر عن داود باضعاف ذلك الزمان . وكيف يكون ذلك مع ان داود هو الذي قتل جالوت بنص القرآن؟ »<sup>(١)</sup> ينسخ القرآن الأخبار جميعاً، المقدسة وغير المقدسة . وتفعل الكتب المقدسة غير المسلمة نفس فعل القرآن بالنسبة للأخبار التي قد تعارضها . فابن خلدون يفضل أخباراً واردة في التوراة على نصوص أخرى تخالف نصّها لدى هوروشوش<sup>(٢)</sup> ، وهو يفضل الخبر الذي ينقله المسلم على الخبر الذي ينقله من ليس مسلماً<sup>(٣)</sup> .

---

= له . ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار . . . واشياء بعضها يشفع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . وبعض لم يقر لنا البكائي [ الراوية ] بروايته . انظر أيضاً النديم ، فهرست ، ١٠٥ . ابن كثير (بداية ، ١/٢٢٢) يرى وهباً بن منبه « من علماء بني اسرائيل » ، ويطعن بكعب الاحبار (١٨/١) .

(١) تاريخ ، ٦/٧ .

(٢) تاريخ ، ٧٩/٢ وفي اماكن اخرى .

(٣) تاريخ ، ٤٠٢/٢ .

ونسخ الاسلام لما جاء قبله من الشرائع والاختبار محك للطعن في الاخبار اللااسلامية ، كما يفعل ابن كثير بصدد خبر توراني لا يتوافق مع خبر قرآني<sup>(١)</sup> . هذا ولو كان من كان أقل تعصباً من ابن كثير يرفض أخباراً انجيلية دون أن يطعن فيها ، كخبر صلب المسيح<sup>(٢)</sup> . وكذلك الأمر يرد ابن خلدون معتقد التثليث إلى حمل كلام المسيح على ظاهره دون الاهتداء لفهم معانيه<sup>(٣)</sup> . وعلى العموم ، هناك اتجاه لإرجاع عدم سلامة مقولات أهل الأديان المغايرة إلى الخلل في نقل كتبهم ، أي تحريفها عن كلامها الأصلي<sup>(٤)</sup> .

كل هذه التراتبات المعرفية تراتبات قيمية واخلاقية في جوهرها ، اذ هي لا تنبع من الرواية بمضمونها ومآلها ، بل من مفاضلة قبلية بين فاعليات قول ، فرداً كانت ام كتاباً ام ديناً ، يضاف على قولها شحنة معيارية ايجابية في مواجهة ما عداها . وتتصل هذه الشحنة بكل ما يمت للقداسة بصلة . فلدى مناقشة خبر بعضهم ان سارة كانت بنت اخ ابراهيم وان زواج ابنة الاخ آنذاك كان مشروعاً ، يختتم ابن كثير كلامه بقوله انه لو كان فعلاً زواج ابنة الاخ مشروعاً كما نقل عن الربانيين اليهود ، « فان الانبياء لا تتعاطاه والله اعلم »<sup>(٥)</sup> . والقداسة هذه تتناول الامور المستحيلة التي لا يجب ان تكون مستحيلة بحسب مصدرها المقدس ومن هذه الاسرائيليات المتواترة تواتراً شديداً في الادب التاريخي والوعظي<sup>(٦)</sup> والتفسيري<sup>(٧)</sup> العربي - الاسلامي وفي مجمل مجالات الثقافة

(١) البداية ، ٩٩/١ .

(٢) البعقوبي ، تاريخ ، ٧٧/١ - ٧٩ .

(٣) تاريخ ، ٢٩٩/٢ .

(٤) راجع الكلام الواضح في ابن حزم ، رسالة التوقيف ، ١٣٧ - ١٣٩ .

(٥) البداية ، ١٥٠/١ .

(٦) أهمية هذه في الادب الوعظي واضحة من التشديد عليها في الكلام عن الوعظ . انظر ابن الجوزي ، اخبار القصاص . والمذكرين ، ص ١٠ - ١١ ، وابن عبد البروف في الحسبة ، ص ١١٣ .

(٧) أهمية الاسرائيليات في التفسير ، وتداخل مادة التفسير بمادة التاريخ ، امران اوضحهما جواد علي في «مصادر» ( ١٩٥٠ ) ص ١٤٩ وانظر ابن خلدون ، مقدمة ، ٣٩٣/٢ .



العربية - الاسلامية ، الشعبية<sup>(١)</sup> منها والعليا . واكثر هذه الاسرائيليات منقولة عن كعب الاحبار وابن اسحق وابن سلام وخصوصاً عن وهب بن منبه<sup>(٢)</sup> . ولكن هذه المادة كانت موضع شك لدى عدد كبير من المؤرخين الذين رأوا فيها قصصاً اكثر من تاريخ<sup>(٣)</sup> . وكونها قصصاً لا يعني بالضرورة انها أكاذيب - فهي على تماس بالقدس ، ولو كان قدساً « منسوخاً » بالقدس الاسلامي - بل هي « اخبار فيها نظر » ، كما كان ناقدو الاخبار يقولون . فمن المستحيل ان تكون الاخبار الصادرة من التوراة وما في معناها اخباراً كاذبة - الا اذا عارضت بصريح نصها صريح القرآن والحديث ، وهذا قلما حدث . ليس المراد هنا ان المؤرخين وجدوا طابعاً مختلفاً للاخبار الواردة في الكتب المقدسة والتي لم ترد فيها - فنرى نفس القدر من الخرافات يقبلها ابن قتيبة ( وغيره ) ان اتت من الكتب المقدسة ، مما يرفض ان اتى من القصص<sup>(٤)</sup> . ومن هنا الاحاديث التي كثيراً ما أوردها المخبرون والمؤرخون والتي تميز النقل من بني اسرائيل وابرزها الحديث : « وحدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » . واكثر المؤرخون من ايراد حجة اساسية وهي انه يجوز رواية الاخبار التي لا تصدق ولا تكذب<sup>(٥)</sup> ، كالاسرائيليات والاخبار الضعيفة<sup>(٦)</sup> ، على سبيل الاعتبار والتعجب ومن باب

---

(١) انظر الاستشهادات باسرائيليات وهب بن منبه وكعب الاحبار في سيرة عترة ، ٨/١ وما يليها .

(٢) هناك احصاء شبه كامل للمادة التي اخذت عن وهب بن منبه في كتب التاريخ في (1972) KHOURY ص ٢٢٧ - ٢٤٦ .

(٣) انظر ، على سبيل المثال ابن خلدون ، تاريخ ، ٣٣/٢ . ولكن السبب في ذلك ليس مفهوماً للموضوعية وللعلم التاريخي بمفهومه العلمي الشائع ، كما يظن عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ ، ص ١٣٥ .

(٤) انظر (1958) LECOMTE ص ٤٥ .

(٥) ابن كثير ، بداية ، ٦/١ .

(٦) الكافي ، مختصر ، ص ٥٥٦ .

الترغيب والترهيب<sup>(١)</sup> - وان كانت باطلة ، فعلى سبيل الإنكار والابطال<sup>(٢)</sup> .

وهذه الاخبار التي اعتمدت في كتب التاريخ وان لم تعتمد للعمل - وربما كان هذا سبب كون تفسير الطبري ذو الفحوى العملي في النهاية فيه قدر من النقد التاريخي وتفضيل الروايات اكبر بكثير من الموجود في التاريخ<sup>(٣)</sup> - تمثل في واقعها ، وبسبب تماسها بالقدس الاسلامي ، مجرد تحريف للحقيقة وليست مجافاة تامة لها . فالحقيقة لا تزال موجودة فيها ، ولكن المجانبة النسبية التي تبديها الاسرائيليات تجاه الحقيقة لا يمكن ان تصدر الا عن خطأ ميكانيكي فيما يتعلق بالواقع . فالتحريف ليس عملية سردية لها قوانينها وخصائصها الخاصة المرتبطة بالتاريخ وبالنص ووثوقه اللامتناهية من المعنى ، بل مجرد ازاحة لوحدين من طبيعتهما أن تتطابقا . لما كان اللاتطابق حاصلًا في وقت هو مضاد لطبيعة الأشياء ، الاخلاقية والميتافيزيائية هنا ، والتي تفترض التطابق ، كان اللاتطابق عملية اقتضائية ، اذ انه من المستحيل ان يخالف الطبيعة - وهي هنا من طبيعة القدس - الا بصورة لا طبيعية . والمخالفة اللاطبيعية مخالفة اصطناعية ، ظرفية ، خارجية ، لا تمس طبيعة الأشياء . هذا هو أصل أدبيات «تحريف» الكتب المقدسة<sup>(٤)</sup> . وبينما حمل البعض السجالات القرآنية ضد اليهود حتى عصره ووسم التحريف بانه عملية متعمدة ، على الأقل في جزء منها ، تستند الى مقاصد فاسدة وآراء باردة<sup>(٥)</sup> ، كان البعض الآخر اكثر تمسكاً بروحية مفهوم النسخ المتضمن احتراماً ولو اسمياً للاديان غير الاسلامية . فاحتج ابن خلدون بحديث نقله البخاري عن ابن عباس من ان التحريف المتعمد بعيد ، اذ « معاذ الله ان تعتمد أمة من الامم الى كتابها المنزل وعلى نبينا فتبدله ... قال وإنما بدلوه

---

(١) انظر ابن كثير ، بداية ، ٦/١ و ١٦٣ والكافيحي ، مختصر ، ص ٥٥٦ والمسعودي ،

أخبار الزمان ، ص ٣١ وابن خلدون ، مقدمة ، ٣٩٣/٢ .

(٢) ابن كثير ، بداية ، ٧/١ .

(٣) جواد علي ، ( ١٩٥٠ ) ، ص ١٦٨ .

(٤) انظر Bacher (1872) و Matteo (1922) .

(٥) . بكثير ، بداية ، ١٣٢/٢ - ١٣٣ .

وحرّفوه بالتأويل... وما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها اليهم ، فإلما المعنى به التأويل ، اللهم الا ان يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط»<sup>(١)</sup> .

التبديل غفلة وعدم الضبط هو بالضبط آلية التحريف التي تتوافق مع منافاة التحريف للطبيعة بشكل اكمل ، وهي في الواقع الآلية التي تثير اهتمام المؤرخين العرب - المسلمين . فهذا ابن خلدون يرجع التحريف الى اصول بقوله انه أمر لا يستعصى على الفهم ، خصوصاً « وملكهم » ( أي بني اسرائيل ) قد ذهب وجماعتهم انتشرت في الافاق واستوى الضابط منهم وغير الضابط والعالم والجاهل ، ولم يكن وازع يحفظ ذلك لذهاب القدرة بذهاب الملك ، فتطرق من أجل ذلك إلى صحف التوراة في الغالب تبديل وتحريف... ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها إذا تحرّى القاصد ذلك بالبحث عنه»<sup>(٢)</sup> . التحريف اذن مجرد عملية ازالة بسيطة يمكن التغلب عليها والرجوع الى الطبيعة الأصلية لقدسفة النص .

ويذهب المؤلفون إلى أن هذا التحريف أضحي أكثر خطورة في التوراة المعربة التي تتضمن ، حسب أحدهم ، تغييراً في القصص بالإضافة إلى تبديل وتحريف للألفاظ<sup>(٣)</sup> . ويؤدي هذا إلى أغلاط تاريخية ، خصوصاً فيما يتعلق بالأسماء الأعجمية وتصحيفها<sup>(٤)</sup> ، وتغيير مخارج حروفها<sup>(٥)</sup> ، مما يؤدي إلى تشويهها - وهذا ما حاد بابن خلدون إلى إفراد قسم تناول مخارج حروف اللغات البربرية في مستهل كتاب العبر . ويورد ابن خلدون مثلاً على ذلك من

---

(١) تاريخ ، ١١/٢ .

(٢) تاريخ ، ١١/٢ .

(٣) ابن كثير ، بداية ، ١٤٩/٢ .

(٤) ابو القداء ، مختصر ، ٢٠/١ .

(٥) ابن خلدون ، تاريخ ، ٣٠٩/٦ .

نسب الترك ، فهم اولاد يافث «باتفاق الخليفة . فعند نسبة العرب انهم من عامور بني سويل بن يافث . وعند نسبة الروم انهم من طيراش بن يافث . هكذا وقع في التوراة . والظاهر ان ما وقع لنسابة العرب غلط ، وان عامور هو مصحف كומר ، لان كاهه تنقلب عند التغريب غينا معجمة ، فربما صحفت عينا مهملة او بقيت بحالها . اما سويل فغلط بالزيادة»<sup>(١)</sup> . وقد افرد طاش كبرى زاده بابا مستقلا - وان لم يكن كبيراً - لعلم مخارج الحروف<sup>(٢)</sup> .

وتجري المحافظة على النص المقدس احيانا بتأويله تأويلاً يحافظ على اكتمال نصّه الاصيلي . من هذا الباب الاخبار عن عمر الدنيا من الخلق حتى الساعة ، وهو ستة آلاف سنة حسب الطبري<sup>(٣)</sup> - وهذا القول ، شأنه شأن التأريخات الأخروية الأخرى التي لم تتحقق ، كاذب . فنقله عن ابن عباس ان عمر الدنيا ٥٠٠ عام بعد الاسلام خاطيء ، ويؤول ابن خلدون هذا الكلام حتى ما يورد التقويم ايراداً مجازياً بما هو دال على قرب الزمان وكون النبي خاتمة المرسلين<sup>(٤)</sup> . ويذهب آخرون الى انه لا عدد معروف يتناول الملاحم<sup>(٥)</sup> ، الا ما اتصل سنده الى الرسول<sup>(٦)</sup> - واقوال الرسول بهذا الشأن شديدة الاغلاق والابهام<sup>(٧)</sup> - ويرد الآخرون عدم تحقق التوقعات الأخروية ، كما هو الامر بصدد التحريف ، الى أخطاء في النقل<sup>(٨)</sup> . في كل الاحوال ، نرى حفاظاً على اكتمال القول الاساسي مع تفسير البعض من عناصره تفسيراً يبعد من شأن عدم الايمان

(١) ابن خلدون، تاريخ، ٧٩٨/٥ .

(٢) مفتاح السعادة ، ٩٩/١ - ١٠٠ .

(٣) تاريخ ، ١٥/١ .

(٤) المقدمة ، ١٧٩/٢ - ١٨٠ .

(٥) ابن حزم ، الفصل بين الملل ، ١٠٥/٢ .

(٦) سخاوي ، اعلان ، ٦٣ .

(٧) Al- Azmeh (1981) ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٨) الشعراني ، مختصر التذكرة القرطبية ، ١٣٨ .

بها : فعندما ينقل احمد بن حنبل عن الرسول قوله ان اربعة انهار تفجرت في الجنة وهي الفرات والنيل وسيحان وجيحان ، يعقب ابن كثير بقوله انه اسناد احمد « صحيح على شرط مسلم . وكان المراد والله اعلم من هذا ان هذه الانهار تشبه انهار الجنة في صفاتها وعذوبتها وجريانها »<sup>(١)</sup> .

لم تكن فاعلية نقد الاخبار التاريخية كلها متجهة نحو الحفاظ على كمال النصوص المقدسة . فلم تكن كل النصوص مقدسة ، ولا كانت كل الأحاديث صحيحة . فكثير من الاحاديث التي ، على سبيل المثال ، تتناول يأجوج ومأجوج ، من انهم خلقوا من نطفة آدم حين اختلطت بالتراب ، ومن ان بعضهم يفتش اذنه ويغطي جسده بالآخرى ، هي ، كما يقول ابن كثير ، رجم بالغيب واقوال بلا دليل<sup>(٢)</sup> . هناك أيضاً مسوغات للخطأ وللكذب والبهتان غير التحريف . فهناك اللامطابقة التامة التي رأينا البعض من أمثلتها والتي يناقشها ابن خلدون مطولاً في نصوص معروفة<sup>(٣)</sup> . فهناك إجماع على ان تواريخ الاقدمين تشوبها شوائب عدة ، ليس اقلها كثرة النقل « من كتاب الى كتاب » مما يقع فيه الغلط « بالزيادة والنقصان »<sup>(٤)</sup> ، خصوصاً في تواريخ الفرس القدماء التي نقل فيها أخبار تأبأها العقول ، « من الزيادة في الخلقة ، حتى يكون للواحد عدة افواه وعيون ، ويكون للآخر وجه من نحاس ، ويكون على كتفي آخر حيتان تطعمان ادمغة الرجال ، وطول المدة في العمر ، ودفع الموت عن الناس ، واشباه ذلك مما لا تدفعه العقول ويجري فيه مجرى اللعب والهزل ، وما لا حقيقة له . . . ولهم اخبار قد اثبت رأينا اكثر الناس ينكرونها ويستشعونها ، فتركناها ، لان مذهبنا حذف كل مستبشع<sup>(٥)</sup> » وحذف كل ما يأباه العقل ويمجّه

(١) البداية ، ٢٦/١ .

(٢) البداية ، ١١٠/١ .

(٣) المقدمة ، ٩/١ - ٤٢ .

(٤) الأصفهاني ، تاريخ ، ١٠٢ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ١٥٨/١ - ١٥٩ .

السمع»<sup>(١)</sup> . ومن هذا الباب أيضا اخبار العرب العاربة من عاد وثمود والتبابعة ممن « اختلفت احوالهم واتفقت اسماء كثيرة من ملوكهم ووقع اللبس في نقل ايامهم ودولهم »<sup>(٢)</sup> ، والكثير من اخبار التاريخ المصري التي « تخرج من العادة وتكرها العقول »<sup>(٣)</sup> . ومنها على وجه الخصوص اخبار ما قبل الطوفان التي لا يوردها مسكويه في تجارب الامم لقلة الثقة بها<sup>(٤)</sup> وللتزوير الذي طرأ عليها من جريان الزمان<sup>(٥)</sup> .

ولكن الفاعلية النقدية التي تطال اللامطابقة الناتجة عن بعد الزمان وفساد الاخبار التي تتناول القرون الماضية والامم والدول البالية ، او تلك الناتجة عن التخيل ومحبة الغريب ، من تلك التي ذكرناها للتو ، والتي تناولناها في مواضع سابقة من هذا الفصل - هذه الفاعلية النقدية ليست فعلاً فاعلية « طبيعية » تقيس الخبر على الواقع المفترض او بالاحرى الواقع الواجب بموجب الواقعية والحس السليم - بل هي تتناول النقل . فليس ثمة اصل « طبيعي » ، ليس ثمة جوهر تتناوله هذه الفاعلية وتستند اليه في عرضها الاخبار على اصولها . ان ما لدينا هو نقد للنقد ، وبالتالي اعلان بعدم الثقة باخبار اعترت مسيرة نقلها شوائب شوهت منها وحرفتها عن مواضعها الاصلية - هذا ما يحدث في النقل عن القدماء البائدين ، وهذا عين ما يجري في اطار التحريف . فليس ثمة اختلاف كامل ، بل تحريف لخبر كان في اساسه صحيحاً ، اي مطابقاً للعين المخبر عنه .

بكلمة اخرى ، ان ما نحن بصده ليس نقداً لخطاب او لنمط منه ، كما هو ليس نظرة لعلاقة الواقع بالفعل الاخباري كوحدة مستقلة . بل ان ما نحن بصده يتناول اعتبار اخبار مفردة بعلاقتها المفردة من الاعيان . هذه هي الخاصة الاساسية لكل فاعلية تاريخية ، خبرية بحثة كانت ام تأريخية ايضاً ، في الثقافة

(١) ابو الفداء ، مختصر ، ٣٩/١ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ٩٣/٢ .

(٣) المسعودي ، اخبار الزمان ، ١٣٣ .

(٤) مسكويه ، « Textes » ، ص ٢٠٤ .

(٥) ابن فريغون ، جوامع ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

العربية - الاسلامية . والإخبار الفرد بالعين الفرد يجعل من المستحيل طبعاً اعتبار الخبر على انه شيء مستقل عن الفاعلية الاخبارية ويجعل من غير المجدي اعتبار اطر للخبر غير اطار فرديته وفردية مرجعه العيني . لذا فانه من الطبيعي في هذا الكون ذي الخصائص الانطولوجية الاشعرية ، ان يرتد الخبر الى فرادته المرادفة لصحته - فالصحة نصيب خبر واحد من عدة أخبار قد تتناول عينا « فردا » - وان ترجع المصدقية الى مصداقية الرواية الاولى والى مصداقية من حفظ هذه الرواية بنقلها عبر التاريخ الى السرد التاريخي والاخباري الاخير موضع النقد وموضع الكتابة وموضع العلاقة مع الاصل السردى للخبر والبحث عن حقيقته . فالمصدقية ذات علاقة حصرية بصحة النقل ، أي صدقه ، ولا مجال لمنزلة بين منزلي الصدق والكذب . فالامكان هو بصدد الاخبار التي لم تتحقق اصولها ، اي اخبارها الاول المشاهد . ومصدقية الرواية الاولى لا تتحقق بانخراط عينها في سياق يتخطى هذا العين ، بل ، على العكس ، هي لا تتحقق الا بسرد عينية هذا العين ، اي فرادته وحقيقته المفردة التي لا تمت بصلات الى حقائق اخرى اللهم الا صلة قرابة مكانية او خطابية ، لكنها في الحالتين تبقى صلة موضعية تشارف على الفيزيائية المحضة .

وعندما تقاس أخباراً بعيان مشاهدة او بالبداهة او بالعادة في سبيل التحقق من امكان هذا الخبر او في سبيل رفضه بسبب كونه مستحيلاً ، كما رأينا أعلاه بصدد اخبار كثيرة ، منها اعداد جيوش بني اسرائيل ، فان القياس الذي يقام ليس قياساً لخبر على طبيعة ينافيها اسمها « مستقر العادة » مثلاً . فمستقر العادة هذا يبتني في العملية القياسية التي يُعرض فيها الغياب على الشهود بشكل يتناسب مع فريدة الغائب موضع الشك . وهذا الشكل الذي تبتنى به « العادة » هو الشكل الذي يأخذه كل أصل لأي قياس ، تاريخياً كان ام فقهاً ( وبين الاثنين قرابة توازي مفهومي ) ، وهو الافراد الذي تقتضيه العملية التمثيلية التي هي القياس <sup>(١)</sup> . فتنحل العادة الى مفرداتها حتى يمكن من ادراجها - العادة - في

---

(١) عاجلت النواحي النظرية من هذه القضية باستفاضة في كتابي ابن خلدون وتاريخيته ، =

اطار عملية تمثيل قياسي يضرب الغائب بالشاهد ويستخرج وجود او عدم وجود امارة من الشبه تجعل محاكاتها لبعضهما البعض ممكنة - وتبرهن بالتالي على امكان الخبر موضع النظر . ليس اذن ثمة نسق في مستقر العادة عندما تدخل كأصل في عملية قياسية ، وتذهب البنى الداخلية التي تربط عناصر العادة بغلاقات تضفي عليها استمرارها - اي مستقرها - بذهاب تكاملها كعادة في مضممار تكاملها القياسي مع فزادة الخبر المعروض عليها . وتتعاطى العادة هذه مع الخبر المساق معاطاة الشبيه مع الشبيه ، اي المفرد النموذجي بالمفرد موضع الشك . فيتجرد المفرد النموذجي عن علائقه النسقية ويتحول الى عين نموذجي تمكن مشابته ، وبالتالي تمثيله ، ومن ثم - تقنياً - قياسه ، مع العين موضع البحث . يضحى العين - النموذج أصلاً يلحق به ويرد اليه العين موضع الشك . وعملية الرد والالحاق هذه ذات منطق ثنائي الحد ، يُكنى الحد الاول بالثاني والثاني بالاول . وفي اقامة الكناية هذه يصار بالضرورة الى قطع اواصر كل من الحدين الذي يصار الى تكتينتهما ، ويصار الى افراد كل منهما في عينية مطلقة .

هذه بالطبع خاصية مفهومية تحملها عناصر الاخبار التاريخي مما يسهل المهمة الثقافية التي ذكرناها في مستهل هذا الفصل الا وهي توفير مواد تبني منها العلوم الاخرى - حديث وغيره - مواضيعها ، فاستفراد عناصرها وغرقها في عينيتها يجعل من استنباعها أمراً يسيراً . ولكن هذا الاستنباع موضوع لا يطال صلب الخبر ولا ينتج بالضرورة عن بناءه ، ولذا فلن نتناوله الآن لخارجيته وبرانيتها بالنسبة لداخل الخبر . ولكن الموضوع الذي ينتج ضرورة عن بنية الخبر هو ، كما رأينا ، ترجمة العيان بالكتابة الخبرية ، وكفاية الخبر عن العين كفاية كاملة محتواة كلية في مفهوم الصفحة المناسب للخبر والذي درسنا بناءه في الصفحات السابقة . فعملية الكفاية لها نهاية ، وهي اعتبار الخبر مثلاً للعين ، وحضور الخبر يكافئ حضور العين ، فالاخبار الصحيح شهود ، والخبر الصحيح قول يتماهي

---

= الفصل ٢ القسم ٣ ، وبامكان القارىء مراجعة النص المذكور للمستندات والهوامش والتوثيق .



انطولوجياً مع العين المخبر عنه ، بحيث يضحى الكلام حضوراً ، والاخبار عن عين رؤية له : «فيا ليت شعري ، اي فرق بين من رآه أمس او سمعه ، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ، فاذا عاصرها فكأنه عاصرها ، واذا علمها فكأنه حاضرها»<sup>(١)</sup> .

وهكذا فان تماثل القول والشيء ينتج بالطبع غاية التاريخ كما يعرضها لنا اصحاب الكتابة التاريخية ، ألا وهي الاعتبار<sup>(٢)</sup> . فالتاريخ أخبار يجري الاعتبار بها للاقتداء بسير الماضين من الملوك والامم ، وذلك بهدف اجتناب ما هو ضار واتباع ما هو نافع . ان هذه الصياغة لهدف التاريخ تتردد في جميع كتب التاريخ والكتابات عن التاريخ في الثقافة العربية - الاسلامية دون اي استثناء ، وهو متواتر الى الحد الذي يجبرنا على عدم رده كلياً الى كونه تديباً طقسياً للنوع الأدبي « تاريخ » . فكون التاريخ اداة لهداية متعلمة وقارئة أمر ينتج تلقائياً عن بنية الخبر في علاقته بالعين هو ليس غاية للتاريخ بالمعنى الاجرائي البحث يكون فيه الخبر مستتبعاً استتباعاً تاماً وملحقاً لاحقاً خارجياً بهذه الغاية .

فتمائل العين والخبر هو ما جعل السخاوي يشدد على معاصرة الحدث في قرائته ، ومحاضرة الماضين في سماع اخبارهم . فبالتاريخ يهتدي الملوك الى عواقب الامور ، ويعتبر الوزراء بمراتب السيف والقلم ، ويتعلم القائد مكائيد الحرب ومقامات الطعان ، وتستفيد العامة على سبيل المسامرة لتحصيل انواع الخيرات واجتناب المنكرات<sup>(٣)</sup> . والتاريخ ، وان لم يعصم الانسان عن الخطأ ، الا انه قدوة ترغب وترهب<sup>(٤)</sup> . والترغيب والترهيب ليسا نظريتين فحسب ، بل

---

(١) السخاوي ، اعلان ( ط . بغداد ) ، ص ٤١٥ .

(٢) حول البنية المنطقية للاعتبار التاريخي ، راجع Al-Azmeh «Ecriture historique» .

(٣) السخاوي ، اعلان ( ط . بغداد ) ، ص ٤٣٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال ، ابن الاثير ، الكامل ، ٧/١ - ٨ وابن خلدون ، المقدمة ، ٨/١ والمقريري ، خطط ، ٢/١ ، وانظر لسان العرب ، مادة « عبر » ، وملاحظات الساعاتي ( ١٩٧٢ ) ص ١٤١ - ١٤٢ . ليس هذا المنظور النفعي للتاريخ مقتصرأ على الكتابة التاريخية العربية - الاسلامية . فالتاريخ الاوروي في العصور الوسطى يكتب بهدف =

هما بمثابة المشاهدة العملية . فليس الاعتناظ والاعتبار مقتصرين على عالم العلماء ، بل هما للعامّة ايضاً ، حيث نرى شهريار يشكر شهرزاد على الامثال التي اعطته اياها وبطلب الاستزادة منها<sup>(١)</sup> ، وهي على استعداد دائم للازادة ، اذ هي كانت قد قرأت « الكتب والتواريخ وسير الملوك المتقدمين وأخبار الامم الماضين ، قيل انها جمعت الف كتاب من كتب التواريخ المتعلقة بالامم السالفة والملوك الخالية والشعراء »<sup>(٢)</sup> . ويبدو ان التعليم بالقُدوة لم يقتصر على الثقافة الشعبية العربية - الاسلامية ، بل انتشر ايضاً في أرياف العصور الوسطى الأوروبية<sup>(٣)</sup> . والاعتبار بالقُدوة هو رؤية ومعاشية لهذه القدوة ، فان المعتبر يرى الامور الماضية وكأنها تجاربه «وقد دفع اليها واحتنك بها وكأنه عاش ذلك الزمان كله وياشر تلك الاحوال بنفسه»<sup>(٤)</sup> فلمعرفة الماضي اثر أساسي جداً ، وهو حصول ملكة التجارب لصاحبها<sup>(٥)</sup> .

الاخبار ، اذن ، بديل عن الحجج العقلية والبراهين والادلة ، كما قال بحق احد دارسي الف ليلة وليلة<sup>(٦)</sup> . فالاخبار تستعوض بمباشرة المشاهدة والعيان ، وبحضور العين في صلبها ، عن اية حاجة الى الاحتجاج ، وحتى الى البيان . فحضور العين يغني عن كل ما عداه . ولو كان التاريخ علم من الاخبار تبتنى عليه الاقيسة<sup>(٧)</sup> ، فان هذه الاقيسة المتعمدة مجالا للفقه . اما مجالا للحكمة

---

= الاعتبار والاقتداء بشجاعة الماضين وسيرة السالفين - انظر مثلاً مقدمة فرواسار لحوليياته Froissart, Chronicle, P. 37. وبصدد التاريخ الذي كتبه اصحاب الكنيسة ، فإن الهدف منه ايضاً هو اقتداء الحاضرين بمن سلف : Puech (1957) P.52 .

(١) الف ليلة وليلة ، ٣١٩/١ .

(٢) الف ليلة وليلة ، ٥/١ .

(٣) Le Roy Ladurie (1980) ص ٣٤٤ .

(٤) مسكويه (Textes) ، ص ٢٠٤ .

(٥) حجي خليفة ، كشف ، ٩٦/٢ .

(٦) ياسين (١٩٨١) ، ص ٨٧ .

(٧) المسعودي ، مروج ، ١٣٥/٣ .

والسياسة ، فعلاقتها بالاخبار اكثر مباشرة واكثر التصاقاً ، اذ ان امثال الحكماء توجد في الاخبار ، كما ان سياسة الملوك والحرب « تلتبس » منها<sup>(١)</sup> . يصبح الاعتبار بهذا الشكل قياساً خفياً تختفي فيه اهمية العلة القياسية ويضحى فيه الالحاق القياسي تماثلاً تاماً بين العين الاول المخبر عنه والعين الأخير وهو الفعل المقتدي بسابقه . والعلاقة مقامية بين عين وعين عبر حيز متوسط هو الخبر الذي يفرغ فيه العين الاول جوهره وحقيقته الى عينيته ، والذي يفرغ بدوره هذه العينية في عينية اخرى التي هي الفعل الناتج عن الاعتبار والاقتداء - يقفز العين الفرد من « الواقع » ، ويتحول الى قول ينحل بدوره الى عين هو فعل اقتداء . ويمثل توسط القول بين العين والعين مجرد أداة ترجمة تنتقل بموجبها تماثلات من حيز الى حيز يختلف عنه ولكن الاختلاف لا يمس الاعيان المعرفة بعينيتهما ، اذ هي اعيان دون علائق خارجية ، وهي مفردات تكرر نفسها ضمن منظور سكوني لأثر الزمان<sup>(٢)</sup> سنتناوله في فصل لاحق . وبذلك ترجع غاية الخبر الى اصل هذا الخبر وتغلق دائرة الخبر نفسها : من عين الى آخر هو عينه ، عبر مسار قوليّ هو ليس إلا أداة اتصال العين بحيزاته وفي تماثلاته . اما الاثر الذي لهذه البنية للخبر - فإدراك العين واستمراره عبر ادواره العينية والقولية والسمعية - على بنية الخطاب التاريخي في الثقافة العربية - الاسلامية ، فسنتناوله في الفصل القادم .

---

(١) المسعودي مروج ، ١٣٥/٣ . وانظر ، بصدد « الاعتبارية » في السياسة ، النقاش في مقالنا « السياسة واللاسياسة » .

(٢) ستعالج هذه المسألة في الفصل الثالث من هذا الكتاب . انظر أيضاً « Al- Azmeh » *ture historique* وقول مسكويه ( Textes ، ص ٢٠٤ ) : « فإن امور الدنيا متشابهة واحوالها متناسبة » ، المقرئ في احوال الامّة ( ط . بيروت ) ، ص ٤٠ .

الفصل الثاني

إنشاء التاريخ

التاريخ ، كما رأينا في الفصل الأول ، إخبار منضبط بتاريخ . لهذا الإخبار مجموعة من المطالب ، تتخلق حول موضوع الملك ومبطلقاته يتم أدائها بما هي إخبار عن أفعال . فالإخبار إخبار عن أمور حادثة ، والخبر هو ذلك القول السردى المتعلق بفعل ما بحيث أنه يسرد حادثة فيها انتقال من بداية إلى نهاية ، دون أن يتمكن من سرد أي شيء عدا الحوادث . فالخبر لا يسرد فكرة ولا يسرد أمرا إلا بما تكون الفكرة أو يكون الأمر نتاجا لفعل هو ، في الحديث والفقه ، فعل قول لا قوام للخبر (أي الحديث) . هو فعل قائم بصيغة حادثة يجري الإخبار عنها أو عن قسم زمني منها . فالحادثة حادثة بما هي فعل ينساب في اتجاه واحد مرورا بأدوار ثلاثة : دور تأسيسى افتتاحي ، ثم دور الاكتمال ، وأخيرا دور ختامي<sup>(١)</sup> . إن الحادثة المكتملة والمحتوية على أدوارها الثلاثة هي تلك التي حاول ابن الأثير استرداد اكتمالها في مناقشته لأسس السرد التاريخي . فقد نحا الطبري ، كما فعل الكثير قبله وبعده ، نحو تشتيت أدوار الحوادث وأدوار أدوارها في سنين أو أشهر عديدة من السنين وإلى تشتيتها في الإخبار المختلفة ، بحيث أن الحادثة الواحدة تقطع في سنة ثم تكمل في سنة ثانية ، أو تقطع حسب الأسانيد . فنجد الطبري في إيراد حادثة لقاء إبراهيم والنمرود ، يبتدىء بإيراد خبر عن ابن اسحق ، ثم يسرد نفس الحادثة وإن كانت البعض من تفاصيلها مختلفة ، استنادا على خبر عن ابن عباس ، ثم يعود ويستأنف خبر ابن اسحق الذي كان قد قطعه لإيراد خبر ابن عباس . بعد هذا يورد الطبري الآية القرآنية : ﴿ فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٠ - ٦٣) ، المتعلقة بفصل من حادثة لقاء إبراهيم والنمرود ، ويورد الآراء المختلفة في تفسيرها ، ثم يعود إلى خبر ابن اسحق الذي يقطعه الطبري خمس مرات . أخرى قبل العودة مرة أخيرة

(١) راجع (BULL (1968) ، ص ١٧ .

الى خبر ابن اسحق الذي يبيّن الحادثة عليه<sup>(١)</sup>. كما نجد أخبار العام ١٣٢ عند الطبري على الشكل التالي: (٢) روايتان عن «هلاک قحطبة بن شبيب»، ثم خروج محمد بن خالد من الكوفة مسوّدًا، ثم سبب خلافة أبي العباس، ثم «ذكر بقية الخبر عما كان من الاحداث سنة ١٣٢» المتضمن تمام الخبر عن بيعة أبي العباس وخبر هزيمة مروان بن محمد بالزباب وخبر مقتل ابراهيم بن محمد الذي يتبعه الخبر عن مقتل مروان بن محمد ثم الخبر عن تبيض أبي الورد، ثم خلع حبيب بن مرة، وأخيرا شخصوس أبي جعفر الى أبي مسلم في خراسان وحرب يزيد بن عمر بواسط وأخبار متفرقة أخرى<sup>(٣)</sup>.

لا شك أن في سياقة التاريخ بهذا الشكل تشتت لذهن القارئ. ولكن في هذه السياقة، كما سنرى، ممارسة صحيحة لكتابة التاريخ تتفق مع كل شروط الكتابة التاريخية والمفاهيم الماوراء تاريخية التي تستند إليها. وليس من شك في أن ابن الاثير ليس بعيداً بالمرّة عن معرفة هذا الامر، على الرغم من ذلك ولا سبب سنراها في سياق هذا الفصل. فقد قال عن المؤرخين، ومنهم الطبري: «رأيتهم... يذكرون الحادثة الواحدة في سنين، ويذكرون منها في كل شهر أشياء، فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض، ولا تفهم إلا بعد امعان النظر»<sup>(٤)</sup>، بحيث أن الأدوار الثلاثة للحادثة - الافتتاحي والاکتامي والختامي - تتناثر في زوايا نصيّة مختلفة وغير مرتبطة، مما يجعل من سياقتها باكتمالها شيء يستدعي «امعان النظر». وليس هذا بنقص أدبي فقط، بل ان امعان النظر يتبدى

---

(١) تاريخ، ٢٥٤/١ - ٢٦٦، وقارن ملاحظات جواد علي (١٩٥٠) ١٦٧، ١٧٣، و SEZGIN، ٢٤٢/١ - ٢٤٣، ٢٩٥، ومعروف (١٩٧٦) ٣٠٩. اذا كان الامر كذلك في تقطيع التاريخ بالسنة، فما بالك بترتيب الاخبار على السنين ثم الاشهر ثم الايام، كما في نزعة الرازي في التاريخ لابن تغري بردي (أنظر نجوم، ٢٧). أنظر معروف (١٩٧٦) ٣٠٧ - ٨ لنماذج عن توزيع الاخبار داخل السنة في الاطار الحولي.

(٢) المصدر السابق، ١٢/١٠ - ٥٨.

(٣) كامل، ٤/١.

(٤) المصدر السابق، ٣/١، ٤.

وكانه شيء خارج عن المتطلبات الطبيعية لقراءة التاريخ . كل من أدوار الحادثة في الكتابات التي يشير إليها ابن الاثير تقطع عن سياقها التساهلي المتكامل ، وبذلك فهي تردّ الى أدوار لازمانية ضرورية لها تربطها بزمانية الأدوار الأخرى ، ويستلزم رد التكامل إليها ايداع كل عناصر الحادثة في امكانها حتى تأتي «سياقا واحدا» . وبذلك فقد قام ابن الاثير ، كما قال ، بجمع الحادثة «في موضع واحد» ويذكر «كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت . فأتت متناسقة متتابعة ، وقد أخذ بعضها برقاب بعض» ، وتجاوز بصدد حادثة معينة - كما فعل مسكويه في تجارب الأمم<sup>(١)</sup> والذهبي في تاريخ الاسلام<sup>(٢)</sup> - الاطار الحولي كليا بتناوله حوادث تختص بالحروب الصليبية في السنوات ٦١٤ - ٦١٧ كوحدة زمانية واحدة دون تقسيمها الى حوادث جرت في سنوات مختلفة<sup>(٣)</sup> .

من الممكن نظريا ، أن يصار الى تجزئة كل حادثة الى وحدات حديثة أصغر ، لكل منها دور افتتاحي وآخر اكتمالي وأخير ختامي ، تتسلسل في غضون فترة معلومة من الزمان . فليس الطول الزمني للحادثة هو الذي يجعل منها حادثة ، وليس هنالك ثمة حدود قصوى ودنيا لطول الحوادث ، بل ان ما يحدد حديثة الحادثة هو اكتمالها بأدوارها واكتفاء الافعال الداخلة فيها والمروية عنها بذاتها ، بحيث أن غياب أحداث أخرى لا يؤثر على ذلك الذي يحدث والذي يكتمل من الافتتاح الى الاختتام . ذلك يعني أن ما يشكل الحادثة في اطار السرد هو كونها وحدة اداء إخباري . بذلك ، فإن مطلب ابن الاثير في النقد الذي وجهه للطبري لا يتناول عدم اقامة علاقات سببية وغيرها بين وحدات التاريخ المتتالية ، كما قد يتبادر لأذهان البعض للوهلة الأولى ، بل ان هذا النقد يطال سرد الادوار الداخلية لكل من هذه الوحدات ، هذا السرد الذي يفتت التكامل الداخلي لهذه الوحدات كلما قام الطبري ، مثلا ، بقطع التالي الداخلي للحدث من

---

(١) ARKOUN (1970) ص ٣٤٦ .

(٢) معروف (١٩٧٦) ٣٠٩ .

(٣) الكامل، ١٢ / ١٤٧ وما يليها .

اجل اضافة اخبار وأسانيد مختلفة حول تاريخ أو اسم أو حادثة استطرادية أو جانبية، قبل معاودة سرد الحادثة موضع السرد. يجب علينا بالتالي أن ننظر الى هم ابن الاثير على انه تعبير عن امر دارج وراجع للحكمة العملية التي تروم الوضوح، وهي بذلك شبيهة بما يعنيه صلاح الدين بن ابيك الصفدي عندما يقول بأن ترتيب الحوادث على السنين «اليق» بالتاريخ «لأن الحوادث والوقائع تحيى فيه مرتبة متتالية، تماما كما أن حروف المعجم اليق بالتراجم اذ يذكر فيها ما وقع الرجل في السنين المتعددة دفعة واحدة»<sup>(١)</sup>. في الحالتين، نرى أن الهاجس الاساسي والعامل الموجه في عملية ترتيب الاخبار التكامل الداخلي لوحداث السرد، التكامل الذي يترأى لابن الاثير وللصفدي وكأنه تكامل طبيعي يحاكي التكامل الموجود في العالم الخارجي.

التكامل الداخلي كتكامل موضوعي - أي تكامل موضوع (حادثة) معين خاضع للسرد - متعلق بالاخبار المكتفية ذاتيا، هو الرابط بين الحادثة المتحللة والاطار المعرفي الاوسع الذي في داخله وتبعاً له تتحدد تاريخية الاشياء وأهميتها التاريخية، وبالتالي دخولها في الكتابة التاريخية. هذا الاطار تكونه متعلقات الملك، كما سنوضح بتفصيل أكبر لاحقاً. التكامل الموضوعي ليس تكاملاً داخلياً صرفاً يختص بالحادثة المفردة، بل هو يرتبط أيضاً بالمطلب (TOPOS) الراجع لعلم التاريخ والذي تكون الحادثة سبيل تحقيقه في الكتابة التاريخية وعبوره اليها. التكامل الموضوعي موضوع المناقشة، اذا، بما يتضمنه من تاريخية الحادثة بذاتها ومبرر دخولها مجال الكتابة التاريخية وعالم موضوعية التاريخ، يشكل جزءاً من ذخير موضوع (مطلب) كبير، وهو ليس بالعنصر المعتمد على الاهمية والتاريخية اللذين تشكلهما الحادثة بقوتها الذاتية؛ وليس التكامل الذي يرومه ابن الاثير بذلك والذي يتطلب الاناقة السردية الآ الوجه المنظور لتكامل يجعل من الممكن ربط الحادثة المفردة بمطلبها الاوسع الذي ينضوى بدوره في دائرة زمرة المطالب التي تتناول كتابتها نصوص التاريخ. فان الزمرة الموضوعية هذه، وعن طريق

---

(١) الوافي، ٤٢/١. قارن ابن خلكان. وفيات، ٢٠/١.



متعلقاتها الفردية ، هي ما تضفي المعقولة والموضوعية ، وبالتالي الاهمية ، على الحادثة التي يتم اختيارها لدخول مجال السرد التاريخي . ولهذا فبان التكامل الذي يضيفه على الحادثة تسلسل أدوارها الثلاثة ليس بالتكامل المكتفي ذاتياً ، بل هو يعكس انخراط الحادثة في فقة أوسع في الحوادث التي تشكّل ذلك المتعلق الموضوعي ، ذلك المطلب ، الذي يتحقق في سرد الحادثة المفردة . وان انسياب الحادثة في زمان يبتدىء بافتتاحها وينتهي بختامها انسياب مستقل الى الحد الذي تقرره حاجة الحادثة الى المطلب الذي منه تحصل على فرديتها وعلى وجودها كحادثة تاريخية .

نجد في تاريخ ابن الأثير ، كما نجد في التواريخ الأخرى ، ان الفصل الكرونولوجي الذي تخضع له الحادثة عن الحوادث السابقة واللاحقة عليها - وهذا من نتائج الترتيب الحولي للحوادث ، بحيث لا يكون ثمة مرجع ورباط لحادثة الآ السنة التي تنتمي اليها - يتواكب مع ارتباط موضوعي لهذه الحادثة عينا . فتماسك الحادثة يرجع اذن الى تماسك أعرض يسم أحداث أخرى تعرض في عين الاطار السردى (الرسالة ، الكتاب ، الخ ) ، وتندرج في نفس الرابطة الموضوعية . التكامل بهذا المعنى تكامل معامل ربط عمودي ، تتلاقى في فعل الرزم الموضوعاتي (من موضوع) الذي يقوم به الحوادث المفردة تلاقيا في موضوعها ، بينما يضخى بالعلاقات الافقية (في نص السرد وفي «الواقع» ) لهذه الحادثة مع تلك التي تسبقها وتليها . وبهذا فنحن نرى ابن الاثير يسرد خبر مقتل مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الامويين في الشام ، في حوادث العام ١٣٢ ، قبل أن يورد خبر مقتل ابراهيم بن محمد بن علي كبير العباسيين ، الذي حصل قبل موت محمد ، لان ذلك من متطلبات تسلسل حادثة سقوط بني أمية<sup>(١)</sup> . يعني ذلك أن انسياب حادثة سقوط الامويين ، التي يرجع دورها الافتتاحي لتاريخ سابق على مقتل ابراهيم بن علي ، لم تتعرض لقطع من أجل سرد حادثة حصلت بين الاطارين الزمانيين ، الافتتاحي والختامي لهذه الحادثة . وللمنظ هذا من سياق الخبر

---

(١) الكامل ، ٥ / ٤٢٣ .

عند ابن الاثير فحوى ربما كان اكثر عمقا. فمع أن الحادثتين موضع البحث ترجعان الى فئة موضوعاتية واحدة، ألا أن هذا الرجوع الفردي لكل منها على حدة الى المرجع الموضوعاتي والرباط العمودي هو المهم. ولهذا العلاقة المرجعية أولوية على العلاقة «الفعلية» - التتابعية وغيرها - التي قد تكون قائمة بين هاتين الحادثتين المتعلقتين بموت مروان وابراهيم. المرجعية العمودية تشكّل رديف اللارتاباط الافقي بين الحادثتين، اللارتاباط المتبدي في التفتت الكرونولوجي. ولئن وجدنا تطبيقاً أكثر حزمًا لبنية التتابع الكرونولوجي في ايراد الطبري<sup>(١)</sup> وابن كثير<sup>(٢)</sup> لنفس الحادثتين، ألا أنه لا ينتج عن هذا الاختلاف افتراق البنى السردية للطبري وابن كثير من جهة، وابن الاثير من جهة أخرى. فمن زاوية البنية الداخلية للتسلسل السردى نجد تكافؤاً بين نص ابن الاثير والنصوص الحولية الأخرى. ففي كل هذه النصوص، لا يلتفت التسلسل السردى الى «المحتوى» ولا يعير اهتماماً للعلاقة بين السابق واللاحق، وعلاقة السابق باللاحق لا تواجهنا إلا في اطار الخبر الواحد عن الحادثة الواحدة.

يتبين هذا بوضوح من بنية الحادثة المفردة، إذ أن بينة هذه الحادثة، كما رأينا، حركة اكتمال بين نقطتين تشكّلان الحدين الزمنيين للحادثة. وبإمكان حركة الاكتمال أن تأخذ أي مقدار من الزمان، فمقدار الزمان الذي تأخذه هذه الحادثة يتحدّد بالمقدار المطلوب لإبراز اكتمال الحادثة، والاكتمال هذا من وظائف الرباط الافقي الذي يضيف على الحادثة حدثيتها بإبرازها على أنها متعلق معين من متعلقات مطلب تاريخي ما. وهذا هو سبب كون سرد الحادثة المفردة يصبو دائماً نحو اكتمال انسياب الفصول المركزية في هذه الحادثة من افتتاحها حتى ختامها. هناك في العادة فصل قد يكون فعل قتل أو نتيجة معركة أو تسنّم سلطة، يحدّد الحادثة، والحادثة المتكاملة - «المتناسقة المتتابعة» - هي تلك التي تجمع ما بين الفصل المركزي وبين مقدّماته ونتائجها. والفصل المركزي الذي

(١) تاريخ، ٢٣/١٠ وما يليها.

(٢) بداية، ٤٠/١٠ وما يليها.

ينساب في بداية وتأسيس وافتتاح الى ختام هو ذلك الذي يعطي اسمه في العادة لعنوان الحادثة في كتاب الحوليات، وهو ذلك الذي يجمع في داخله الفصول المتعلقة ببدايته أو بداياته والفصول المصاحبة له مصاحبة تداعي قريب أو بعيد . تتشكّل الحادثة المفردة، اذن ، من اجتماع لفصول حديثة مترابطة برباط زمني يجعل منها سلسلة في الزمان لا طول محدداً لها . في حوادث العام ١٣٩ ، مثلاً ، يستغرق سرد أسماء وأخبار الولاة الامويين في الاندلس من العام ٩٢ الجزء الأكبر من حادثة دخول عبد الرحمن اليها - والفصل المتعلق بدخول عبد الرحمن الاندلس قصير جداً، زمانياً ونصياً بالقياس إلى سجل ولاية بني أمية<sup>(١)</sup> وتتبع هذه الحادثة أخرى تناول سفر عبد الرحمن من المشرق<sup>(٢)</sup> .

ان ادراج الاخبار عن ولاية الاندلس في اطار حادثة دخول عبد الرحمن الاندلس لا يشير فقط الى أهمية اطار السبق في حكم الاندلس هذا، بل هو يشير ايضاً الى المرونة بخصوص طول الحادثة وكون تماسكها الاعتبار الاساسي في تحديد الطول - والتماسك هنا تماسك تتالي حكم - حتى انه في بعض الاحيان، وعند الطبري خصوصاً، يتلو أخبار السنة الواحدة ملحق يتضمن بعض الأخبار الجديدة بالاضافة الى اعادة لاخبار سبق وان سردت بطرق مختلفة<sup>(٣)</sup> . وبذلك فان فصول الاحداث الموصلة الى اكتمال الفصل المركزي في الحدث (والذي يعطى اسمه لعنوان الحدث ) تتفاوت في الطول . ولو اعتبرنا حدث فتك الرشيد بالبرامكة مثلاً، فسنرى ان اعدام جعفر ومتعلقات هذا الحدث من مصادرة وصلب فصل أساسي في الحدث، وهو فصل له عدد كبير من السوابق التأسيسية المفتوحة، ونرى المؤرخين يسردون هذه السوابق بالتفصيل وفي تنابعات مختلفة . فالطبري يرتب مادته بما يبدو أنه بنية خطية زمانية قائمة على تضمن الاخبار لبعضها البعض، بحيث ان خبرايتديء ثم ينقطع لسرد خبر آخر، ثم يعود الى الصدارة مرة أخرى . فالفصل الاول من فصول التأسيس عند الطبري يتناول

(١) ابن الاثير، كامل ، ٥ / ٤٨٩ - ٤٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٥ / ٤٩٣ - ٤٩٦ .

(٣) مثلاً ، ملحق أخبار ولاية السفاح في تاريخ ، ٣٤ / ١٠ وما يليها .

معاملة الرشيد ليحيى البرمكي بصورة تنم عن عدم الرضى ، ويتبع هذا الفصل فصول أخرى تتضمن ذكر الاخبار التي تذكر عادة لتفسير غضب الرشيد من آل برمك . ينقطع الدور الافتتاحي للحدث عند هذه النقطة ، حيث تسرد الوقائع الاساسية لنكبة البرامكة من سجن ومصادرة واعدام وابعاد وغيرها<sup>(١)</sup> . أما ابن كثير ، فهو يلخص أخبار الطبري ويضيف عليها بعض العناصر الحديثة الجديدة بصورة غير منتظمة تشير الى تواز في الاهمية فيما بين عناصر الفصول الافتتاحية ، فالتالي الذي تنتظم فيه نصيبا لا يبدو وكأن له أدنى أهمية ، بل من الواضح من انعدام المعنى في التسلسل النصي وعدم تلازمه مع تسلسل من أي نوع آخر (زماني أو غيره) ان العناصر الافتتاحية تتساوى . وهي لا تتساوى الا بما هي تابعة تبعية عمودية للفصل المركزي في الحادثة ، وهو تحطيم السلطان البرمكي<sup>(٢)</sup> . نجد البنية عينها في الحادثة كما يوردها ابن الاثير<sup>(٣)</sup> ، ولو انه يعبر عن تفضيله للاخبار عن بعض التصرفات الهرطقية من قبل يحيى البرمكي<sup>(٤)</sup> . هذا مع أن كل المقدمات الاخرى سواء كما تتساوى في خبر ابن كثير . الاعتبار المفضل لدى ابن الاثير ، بالاضافة الى الاشتباه بنية البرامكة في الاستيلاء على السلطة ، هما السببان - المقدمتان الافتتاحيتان - المفضلتان لدى طاهر بن المطهر المقدسي في سرد له من العقلانية المافوق - تاريخية المقدار الذي يخرج عن الكتابة التاريخية<sup>(٥)</sup> . اما ابن خلدون ، فمع رفضه خبر مضاجعة يحيى البرمكي للعباسة أخت الرشيد لان ذلك ليس من شيم العرب<sup>(٦)</sup> ، الا أن سرده لنكبة البرامكة<sup>(٧)</sup> يمتاز عن ذلك الوارد عند غيره بكون المقدمات المفتحة للفصل

(١) المصدر السابق ، ١١ / ٦٦٧ وما يليها .

(٢) بداية ، ١٠ / ١٨٩ وما يليها .

(٣) كامل ، ٦ / ١٧٥ وما يليها .

(٤) المصدر السابق ، ٦ / ١٧٦ .

(٥) البدء ، ٦ / ١٠٤ - ١٠٥ .

(٦) مقدمة ، ١ / ١٨ وما يليها .

(٧) تاريخ ، ٣ / ٤٧٣ - ٤٧٤ .

المركزي مرتبة زمنياً ، بحيث يقابل التسلسل النصي التسلسل « الواقعي » ، عملاً بالمفهوم الصارم للممارسة التاريخية .

ولكن بغض النظر عن «المحتوى» الذي تترتب على أساسه الفصول التأسيسية للحادثة ، ودون الالتفات لكون تسلسل هذه الفصول قائماً على اعتبار السبق أو التضمن أو التزامن أو الأهمية ، فهي في مجموعها تشكل وحدة هي دور في تسلسل أكبر يجمعها الى الفصل المحوري في الحدث الخاضع للبداية والاكتمال والنهاية . هذا الفصل المحوري الذي يعطي اسمه عنوانا للتسلسل الأكبر بادواره يجعل بين نفسه وبين الفصول الأخرى رباطاً من الأولوية الموضوعاتية على شاكلة الأولوية التي تجعل من كل حادثة متعلقاً من متعلقات مطالب الكتابة التاريخية . وهذا هو ما يفسر كيف أن نكبة البرامكة تتخذ من البطش الفيزيائي الجسدي والمالي محورها لها بدلا من الاسس والابعاد السياسية ، وذلك كما نرى في السرد المختصر لقضية البرامكة الذي لا يشير إلا الى الهام والجوهري في الحوادث دون الاتيان بذكر أي شيء حولها سوى مقتل جعفر ومصادرة الأموال . نرى ذلك في المسعودي<sup>(١)</sup> كما نراه لدى ابن العبري<sup>(٢)</sup> - الذي يعود لذكر قصة العباسة في تاريخ مفصل كتبه بالسريانية<sup>(٣)</sup> ، حيث التفصيل يفسح مجالا لذكر ما هو ليس بالجوهري بصفة مطلقة . هذا الفصل المحوري - هذا الحدث بصفته عنوانا وموضعا وسردا ، وليس بصفته عقدة علاقات عليّة وغيرها ، هو مادة الكتابة التاريخية . وهذا هو شرط امكان سرد الفصول التمهيدية للحادثة بصورة لا تنم عن ضرورة ترتيبها في تسلسل يفصح عن علاقاتها الداخلية . وهذا هو عين الشرط الذي بموجبه تتناول حادثة «خلافة يزيد بن عبد الملك» عند ابن الاثير ، مثلاً ، سلسلة من الاخبار التي لا يربطها رابط غير صدورها عن يزيد<sup>(٤)</sup> .

---

(١) تنبيه ، ٣٤٦ .

(٢) تاريخ ، ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، حاشية على ص ١٣٠ .

(٤) كامل ، ٧٦/٥ وما يليها .

ان هذا النسق للنظام الموضوعاتي الذي تترتب فيه المادة التاريخية بموجب التدايمات بين الموضوعات والمطالب يكافئ النظام الاكبر الذي تجد في كنفه المطالب المتسلسلة مكانها : ذلك هو السجل الحولي ، التاريخ على السنين ، الذي تنتظم فيه المادة التاريخية في كنف عنوان اكبر هو نقطة زمانية عوضا عن كونه اسماً دالاً على حادثة بعينها . في الحالتين ، لا يكون النظام المفروض على هذه المادة الا اسمياً بمعنى الاسمانية الفلسفية ومعنى كونه مجرد تسمية على حد سواء .

بكلمات أخرى ، ليس نسق النظام الموضوعاتي ترتيباً للأشياء تبعاً لصلتها ببعضها البعض أو تمايزاتها عن بعضها البعض ، بل هو شيفرة تصطف بموجبها الأشياء في مجموعات ليس لها تحديدات داخلية تعرف اسس جمعها . فالروايات تتوزع تحت عناوين مطالب وسنين شتى ، بحيث أن انتهاء النصي الى العنوان هو المحك الوحيد لتاريخيتها ولانضوائها تحت هذا العنوان ، فهي مصادرة على المطلوب تجعل من أسس تاريخيتها شأنًا يبدو وكأنه بديهي . وجل ما نجده في أسس ترتيب الروايات عن الحوادث المختلفة هي جملة من الاحداثيات للتنظيم المكاني للحوادث ، أي تنظيمها الفيزيائي في النص المكتوب الواحدة بعد الاخرى او في تضاعيف الاخرى . ليست لدينا اجناسا ولا انواعا تترتب تبعاً لها الاحداث في نظام تصنيفي أو بموجب اسس داخلية اخرى ، بل أن ما لدينا في بنية السرد التاريخي هو أبواب ، كالسنين ، لفرز الأشياء . والعلاقة بالتالي بين حادثة سابقة وأخرى لاحقة في اطار السرد الحولي ليست الا علاقة تماس مكاني ، اذ ليست ثمة نقلة بين الواحدة والاخرى . وبذلك فان الانغلاق المونادي لكل حدث يجري الافصاح عنه سردياً في العلاقة الاردافية (PARATAXIS) بين الحوادث التي تتسلسل فيها الحوادث دون أية التفاتة في سابقة لاحقة او من لاحقة لسابقة ، تتسلسل فيها الحوادث في كل فصول السلسلة ولا تتمايز فيه الاحداث بأية تمايزات نسبية تزيد على تميز كل واحدة بذاتها . لا يكون من المستغرب ، اذن ، اذا لحظنا ان سيرة نور الدين التي ترتب الحوادث على السنين ابتداء من تولية الملك (وذلك كما يرتب المقريري كتابة السلوك لمعرفة دول الملوك على الملوك ثم على السنين) لا تتوقف في تأريخها عند موته في العام ٥٦٨ ، بل هي تستمر حتى نهاية السنة التي

مات فيها والتي فيها ترتب خبر موته. للسنّة ، اذن ، أولوية واضحة على موضوعها ، مع أن هذا الموضوع ، وهو نور الدين ، كان «سبب» إيراد السنّة .

لا تظهر هذه البنية في الكتابة الحولية فقط، بل هي تبني كل أشكال الكتابة التاريخية القائمة على التسلسل الزمني الصرف والتي تفرض زمانية خطيّة على الاشياء، فلالاشياء وتاثر وإيقاعات تبدي من الانقطاع والتفاوت والتضارب ما لا يمكن للزمان الكوني الخطي ان يحتوي عليه وان يفصح عنه الا بشرط نزول الالبناء والتشتت عليه. يفتح ابن الاثير حوادث العام ١٩٣ بموت الفضل بن عيسى البرمكي. ثم يورد ابن الاثير بعد ذلك مباشرة حادثة موت هارون الرشيد التي تتبعها، كما هي الحال مع كل حوادث الوفيات المملوكية، سلسلة في الاخبار المتعلقة بشخص الملك: سجل بعماله وولاته، البعض من أخبار زوجاته وأولاده، وأخيرا فصل يتضمن معلومات شتى تتعلق بسيرة الرشيد. تتبع ذلك فصول تسرد ولاية الامين ، ثم بداية خلافه مع المأمون ، ثم الفصل الأخير للعام الذي يتناول ، ككل الفصول الأخيرة للأعوام المختلفة، حوادث شتى، كالوفيات والمعارك ذات الاهمية المتدنية نسبيا، وقضايا أخرى<sup>(١)</sup>. لا نجد في هذه السلسلة من الحوادث أية صلة بين الحادثة والأخرى عدا العلاقة العمودية البعيدة التي ذكرنا - الانتماء الى التاريخية والتماس المكاني. الاخبار المنفصلة التي تتناول سيرة الرشيد لا تتعلق ببعضها البعض بل يتعلق كل منها على حدة بالشخص الملكي. أما صراع الامين والمأمون ، فليست الحادثة المتعلقة ببدايتها نتيجة لاستلام الامين السلطة، بل هي حادثة مستقلة بنفسها مكنتها بذاتها بقدر استقلال واكتفاء سابقتها النصيّة ، خصوصا وان التسلسل النصي لا يتلزم هنا مع تسلسل زمني، فالخلاف بين الامين والمأمون موضع الإخبار يتضمن الاحداث الواقعة قبيل وفاة والدهما . ان كان الامر كذلك بخصوص أخبار سنة الصلوات بين حوادثها واضحة عظيمة الاهمية، فما بالك بالسنوات التي قد تكون الصلوات

---

(١) كامل ، ٦ / ٢١٠ وما يليها .

بين حوادثها قد تبدو أقل بيئة<sup>(١)</sup> .

نجد نظام اصطفااف الحوادث دونما صلة خارجية عن المتاخمة النصبية في تواريخ الدول التي كتبها مؤرخو العرب والتي ما فتئ يكتبها معاصروننا من المؤرخين . لناخذ تاريخ نشوء دولة العبيديين الفاطميين كمثال على ذلك . يسرد ابن الاثير تاريخ الفاطميين من بداية دعوة ابي عبد الله الشيعي حتى استيلائهم على مصر (٢٩٦ - ٣٥٨) في ٢٢ حادثة<sup>(٢)</sup> قد يقسمها التاريخ غير الحولى الى أربعة فصول : فصل يسرد تاريخ سلالة الخلفاء الفاطميين الداخلية ويتناول تتالي الخلفاء ، فصل يتناول حروبهم في المغرب ، ثالث يؤرخ الثورات ضدهم كثورة أبي يزيد النكارى صاحب الحمار في العام ٣٣٣ التي كادت أن تؤدي بالحكم الفاطمي ، ثم فصل رابع وأخير يتناول حروبهم في برقه ووادي النيل حتى استيلائهم على مصر - حوادث قد تخضع لاسس أخرى للقسمة ، ولكنها خاضعة للقسمة . ففي سرد ابن الاثير ليس الاستيلاء على مصر وتأسيس القاهرة الحدث الذي من الممكن بأي شكل من الاشكال تأويله على أنه نتيجة لحملة فاطمية طويلة استهدفت المشرق ، بل انه ليس الا حادثة من حوادث وقعت في العام ٣٨٥<sup>(٣)</sup> . هذا ما يسمح النص به . فالحوادث الثلاثة المتعلقة بصلة الفاطميين بمصر والمسرودة قبيل ورود الاستيلاء على وادي النيل تنعزل كل منها في السنة

---

(١) كمثال على سنة نموذجية ، يمكن عرض عناوين حوادث عام ٥٦٨ في ابن قاضي شهبه ، كواكب ٢/ ٢١٦ - ٢٢٠ : هدية صلاح الدين الى نور الدين ، مسيرة نور الدين الى الموصل ونهب صلاح الدين للكرك في غيابه ، عودة نور الدين من الموصل ومسيرته نحو بلاد الروم ، بداية بناء المدرسة العادلية بدمشق ، اجتماع الفرنج بالشام ثم هروبهم من نور الدين ، ثورة العبيد في النوبة ، وفاة نجم الدين والد صلاح الدين ، احتلال قراقوش طرابلس من قبل صلاح الدين ، ارسال نور الدين وزيره الى صلاح الدين لدراسة حسابات الأراضي المصرية . الصلة الواضحة بين نهب الكرك وارسال وزير نور الدين الى القاهرة لا تجد مكاناً لها في تقسيم التاريخ الى الحوادث .

(٢) كامل ، ٢٤ / ٨ وما يليها .

(٣) المصدر السابق ، ٥٩٠ / ٨ - ٥٩١ .



التي تقع فيها<sup>(١)</sup> ، ويبدو وكأن فترة الاثني والخمسين عاما بين الاستيلاء على مصر في العام ٣٥٨ والحادثة الفاطمية - المصرية السابقة عليها في تاريخ ابن الاثير خللت من العلاقات الفاطمية - المصرية ، كخلو الزمان من الفاطميين الذين تتوزع أخبارهم سنوات عشر فقط من السنوات الاثنتين والستين موضع المعاناة . يطغى هذا التفتت الحدوثي في الازمنة على مجمل تاريخ الدول الفاطمية حتى زوالها في العام ٥٦٧ ، كما يطغى على تواريخ كل دولة أخرى .

ان التقطع الجذري الذي يحكم التاريخ الحولي لايسم فقط التواريخ على السنين . فهذا التقطع ، كما يصار الافصاح عنه في بنية الحادثة كما تناولناها بالتحليل ، يبتدى في كل التأريخ الكرونولوجي ، بغض النظر عن الوحدة التي ينقسم الزمان على أساسها . فهي قد تكون سنة وقد تكون جيل أو دولة أو عصر أو ملك ملك . فهذه هي اسس تنظيم الوحدات البشرية الداخلة في التاريخ . فنحن نجد التقطع حتى في تضاعيف اكثر نصوص الكتابة التاريخية العربية مقالية ، مثل كتاب العبر لابن خلدون ، وهو عين التقطع الذي نجده داخل بنية الخبر الواحد كما نجده في ممارسته الافضل والاكمل عند الطبري . فتاريخ ابن خلدون يتناول «ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر» كما يتبين من عنوانه<sup>(٢)</sup> . يتناول كتاب العبر تاريخ العرب والبربر واخبار من عاصرهم من «ذوي السلطان الاكبر» اي من استحق التاريخية . فمعاصرة العرب والبربر - العرب أساسا ، فتاريخ العرب اساس تنظيم تواريخ كل الشعوب الاخرى عدا البربر - هي المحك الاساسي الذي على اساسه يتم سرد تواريخ الامم الاخرى التي يجري سردها على هامش التاريخ الاساسي . الهامش في الكتابة التاريخية لا يمكن أن يكون الا زوايا زمانية تتخذ منها تواريخ الامم الاخرى من غير العرب مكانا وتقتطعها من الاستمرارية الزمانية التي تكون تاريخ العرب بطبقاتهم الثلاث الاولى بما هو تاريخ . بذلك

---

(١) المصدر السابق ، ٨/٨٤ - ٨٥ ، ٨٩ - ٩٠ ، ١١٣ - ١١٥ .

(٢) تستند الفقرة هذه على تحليلنا التفصيلي في ابن خلدون ، الفصل ١ ، القسم ١ .

نرى تاريخ اليهود والترك والقوط وغيرهم مسرودة في تضاعيف تاريخ العرب في تلك النقاط الزمنية التي تتبدى فيها تاريخية هذه الشعوب، اذ يتوافق تاريخ بني اسرائيل والقبط والبابليين مع الطبقة الثانية من العرب، ويتوافق تاريخ الاتراك السلاجقة مع تاريخ الطبقة الثالثة من العرب، حيث تتوزع احداثه في نقاط مقابلاتها التاريخية من احداث تاريخ العرب بصورة لا تختلف عن توزع اخبار الفاطميين على سني تاريخ ابن الاثير .

يتبدى هذا التضمن الزمني لاشياء في اشياء في كل الكتابة التاريخية العربية . هو تضمن حوادث في احداث سنة معينة في الحوليات ، وتضمن حدث في احداث الى فترة قد تكون اساس سياقة التواريخ . تلك هي خاصية الحوادث المنخرطة في التواريخ ، بغض النظر عن طول الفترة الزمانية المتخذة أساسا لسياقة الاحداث . نرى نتائج السياقة التاريخية في خصائص الحوادث الواردة في تضاعيف التاريخ القائم على ملوك فارس كما ترد مثلاً، عند ابن الاثير في تاريخ قبل الهجرة. فابن الاثير يضمّن تاريخ بلقيس ملكة سبأ في تأريخه لملك سليمان ك لحظة تندرج في سياقه الزمني في نفس الوقت الذي يضمّن تاريخ سليمان في تاريخ الفرس ك لحظة في سياقه الزمني<sup>(١)</sup> . فكما أن تاريخ بني اسرائيل بين حزقيل وسليمان يبدو وكأنه نتوء على سطح تلك الاستمرارية التي تشكل سرد أخبار ملوك فارس بعد منوشهر، نرى أخبار بلقيس وأبيها وكأنها اضطراب واستطراب في انسياب الاخبار المتعلقة بسليمان . أما كون بلقيس ملكة في اليمن بالنيابة عن سليمان أو كونها ، كما تفيدنا الاخبار، حبيته ، فهذا لا يغير من البتر الحاصل في تاريخ مملكتها . فقد بترت أخبار بلقيس عن الاخبار المؤسسة لها في سياق دولتها، كما بترت عن اي اخبار ختامية تختص بالمملكة . ومملكة سبأ ليست بالتالي عنصراً عضوياً من عناصر سليمان وأخباره بل هي مجرد اسم يرد في سياق اسم الملك اليهودي هذا . والبتر الذي يخضع له تاريخ اليمن

---

(١) كامل ، ١ / ٢٣٢ - ٢٣٤ .

هنا يماثل البتر الواقع على ذلك الفصل من تاريخ بني اسرائيل المبتدىء بحزقيل والمنتهي بسليمان الحكيم، ذلك الفصل المتضمن في أخبار ملوك فارس دون الالتفات لعلاقة هذا الفصل بما يليه أو يسبقه، بل هو يقبع في استمرارية خارجة عنه وعليه وخاصة بتالي ملوك الفرس بعد منوشهر. ليس من عنصر تاريخي له امكان الاستمرارية، أي ليس ثمة دولة، قادرة على تفادي هذا المصير الذي ترتبه عليها سياقة التاريخ الكرونولوجي - مع انه من الممكن استثناء اسماعيل وذريته من ذلك، فهذا الشعب معدن النبوة المحمدية، وتميظه هذا يجعل له الحق في تمتلئ تاريخية مستقلة عن بدايته وقبل الرسالة المحمدية على الرغم من التفاهة النسبية لهذه السلسلة بفروعها قبل دولة قريش<sup>(١)</sup>.

ان بنية التضمن على أساس التزامن هذه هي ما حدا بالكثير من الدارسين الى ان يرى في الكتابة التاريخية العربية الكثير من الاستطراد، وأن يرى في الاستطراد لمعات من الخيال ومن عدم الانتظام. الحادثة المنقطعة لا تمتلك من صلة مع العالم الا الرابطة التزامنية، اذا ما استثنينا الرابطة العامة التي تجمعها وموضوعها. فعندما يورد المسعودي ذكر بطليموس في اطار اخبار ايام الامبراطور انطونيوس بيوس، يقدم للقارئ نقاشا مفصلا نوعا ما للجغرافيا البطليموسية<sup>(٢)</sup>. لا شك أن في هذا استطرادا ولو كان مؤسسا على شيء من تداعيات خارجة عن سياق التاريخ بما هو تاريخ. الا انه ليس في هذا الاستطراد قدر أقل في العرضية مما يوجد في ذكر بطليموس في مسرد تاريخ الروم تحت عنوان أنطونيوس بيوس، اذ ليس لبطليموس صلة ضرورية بتاريخ الامبراطورية الرومانية، وجل ما هناك من الصلة بينه وبينها هو اتفاق وجوده في احدى لحظاتها الزمانية. فوجود بطليموس في نص التاريخ شيء تحدده أصول الكتابة من الوضع في خانة زمانية محددة هي عهد أنطونيوس بيوس، وليس في هذا التحديد أدنى اشارة الى علاقة بطليموس بأنطونيوس. فالاستطراد من باب التضمن

(١) أنظر، مثلاً، عبارات اليعقوبي، تاريخ ١٠ / ٢٢١ وابن كثير، بداية، ١٩٣ / ١.

(٢) تنبيه، ١٢٩ - ١٣٠.

وليس التضمن الا تعليق حادثة في مجال حادثة أخرى ذات استمرارية متوقفة .

في ضوء ما قلناه، يتضح لنا كيف أن في الكتابة الحولية تَضْمَنُ الحادثة داخل مبدأ الكتابة الاساسي الذي هو السنة، وكيف أن هذا يماثل تضمن عهد ملك ما للحادثة في التاريخ على الملوك وتضمن دولة دول - حوادث أخرى في التاريخ على الدول. ويتضح من هذا أن الكتابة الحولية تشكل الصورة الاصفى والابتدائية للكتابة التاريخية - الكرونولوجية ، اذ ليس فيها ما يعكس وضوح تسلسل الزمان كما تشوش بنية التتابع الكرونولوجي في التاريخ على الملوك أو الدول بفعل رذاذ المحتوى الذي قد يدفع بعض الدارسين من غير المتنبهين لقوانين الممارسة السردية ومن الباحثين عن الفحوى الخارجية للاقوال الى ان يستنتجوا بأن تنظيم التاريخ على الملوك والدول يضع الكتابة التاريخية المستندة اليه في خانة مغايرة لتلك التي تنتظم الكتابة الحولية ، هذا مع ان تنظيم التاريخ على الملوك يبقى تنظيمًا زمنيًا يتخذ فيه الملوك مكان السنوات كوحدات التنظيم والبناء الاساسية ، ليس بالمحاكاة بل بالمطابقة البنيوية والمماثلة من حيث المضمون . ليس التقسيم السنوي للزمان ملوثًا بأي عنصر من موضوع أو مطلب مما قد يجد من اطلاق وضوحه ، فعنوانه بحد ذاته، وهو السنة ، يشير الى شيء يخرج على مضمون الاخبار. وتلك حسنة لا يماثلها ابتلاء التاريخ على الملوك والدول بعنوانه . فتجريد التقسيم الحولي وتجرده عن أية علائق ذات موضوع أو مطلب هو ما يجعل منه النموذج الذي ترجع اليه كل الاشكال الاخرى التي يتخذها التسلسل الزمني الصرف حين يعتمد هذا التسلسل بنية لتنظيم السرد ومبدأ النظام المكاني للتاريخ. ان قسمة مجال التاريخ الى حوادث مفردة منعزلة وقسمة الزمان الى وحدات مستقلة - وان كانت متتالية - قد تتفق في الطول، كما في التاريخ الحولي، أو قد لا تتفق في الطول، يجعل من الحادثة أحد خواص انسياب الزمان في لحظاته ، أو يجعل من التاريخية، «الشكل الاول والاخير للزمان»<sup>(١)</sup> . يصبح الزمان بذلك بنية السرد ذاتها بموجب زمانية

---

(١) أنظر PLESSNER (1957) ص ٢٣٦ .

مؤسسة في «إيهام الواقع»<sup>(١)</sup> أي في النظر الى مسيرة السرد وكأنها تحاكي مسيرة الواقع ، في محاكاة يستند الربط بين عناصرها الى الاعتبار ان الاثنين يُبينان في لبنة الزمان في انسيابه الخطّي ، تلك المحاكاة التي تستند اليها الصرامة الشديدة التي تنتزع بموجبها الحوادث من العالم وتتوضع في الزمان .

تجرب الإشارة الى ان النزعة الطبيعية التي نجدها في الكتابة التاريخية العربية تختلف أشد الاختلاف عن تلك التي تستند في تصويرها للزمانية على وتيرة الأحداث نفسها وتجعل من الزمان مقولة فارغة وعبثية تمتلئ بالفعل ووتيرته المنفصلة والمنفكة عن وتيرة انسياب الزمن ، تلك النزعة التي نجدها في الملاحم اليونانية وفي علم التأريخ الكلاسيكي عموماً ، حيث ليس الزمان الا «قبل» و«بعد» لا معنى لادخال العدد عليهما<sup>(٢)</sup> ، والتي نراها أيضاً في تاريخ العوام كما يتبدى في ألف ليلة وليلة مثلاً<sup>(٣)</sup> . بيد أن هذه النزعة تجدد مدخلا لها الى كتابة التاريخ في حيز ضيق حيث لا تخضع تقاويم الاشياء للضوابط المعهودة في تحقيق تأريخي أو حيث لا يمكن لهذه الضوابط أن تتدخل بسبب النص على شيء معين . تلك هي ، على سبيل المثال ، حالة خير ملك من ملوك مصر يسميه المسعودي اخريتا . فقد غاب اخريتا هذا عن مصر سبعة عشر عاما حارب فيها الهند وسيلان ، ولكنه على العكس من أوديسيوس ، رجع الى بلاده ليجد أن السنوات السبع عشرة التي قضاها غائبا خلت من الزمان . فلم يحدث شيء في غيابه مطلقاً عدا وفاة والدته<sup>(٤)</sup> . فسنوات غيابه الفعلية سنوات حروية وليست بالسنوات الحقيقية : هي ليست سنوات التاريخ بل سنوات الملك في غزواته : انها حقيقية في الهند وسيلان لانها تتعلق بحروب الملك ، ولكنها غير ذات بال في مصر لعدم وجود الملك فيها . فالتاريخ تاريخ الملك ، وما عداه خارج التاريخ وخارج الزمن . ودون الملك ليس للدهر وتيرة ، أي ليس له عدد

(١) Barthes (1970) ، ص ١٥٤ و Barthes (1968) ص ٨٤ - ٨٩ .

(٢) راجع FRÄNKEL (1960) ص ١ - ٢ .

(٣) أنظر MIQUEL (1977) ص ٢٩٢ وفي أماكن أخرى .

(٤) أخبار ، ٢٢٥ - ٢٢٦ .

يدخل عليه ويحده - ليس له زمانية<sup>(١)</sup> . فيما أن السنوات السبع عشرة دليل على غياب الملك فهي لا تدخل في باب المدة ، لأن المدة تصاحب الفعل الملكي حصراً .

رأينا كيف أنه بموجب تقطع العالم في كنف التاريخ الكرونولوجي يتفتح تاريخ الفاطميين بتتالي حوادثه ، مثلاً ، وكأنه حبات العقد التي ترتبط ببعضها برابط خارجي لا صلة له بالمادة التي صنعت منها أو بالشكل الذي أعطيته . وإذا قيد لاحدهم استخراج الحوادث المتعلقة بالفاطميين في أي تاريخ حولي وضعها وراء بعضها البعض في علاقة سبق والحاق ، فسيجد أن الجزء الأكبر في الزمان المبتدئ ببدايتها وانتهى بنهايتها سيكون فارغاً وستكون النتيجة سرداً متردداً بين الاستمرار والتقطع : الاستمرار الذي قد يقترحه عنوان هذا السرد واعتبار الفاطميين وحدة من الواجب أن تكون الاستمرارية الزمانية (وبالتالي السردية) من خواصها ، والتقطع الذي يفرضه التاريخ الكرونولوجي . ولكن للتاريخ الكرونولوجي الأولوية ، إذ هو سيد بنية التاريخ ، وما الاستمرارية التي قد يقترحها العنوان «دولة بني عبيد» إلا شأن نعزوه نحن إلى الدولة دون أن تكون لهذه النسبة ضرورة ناجمة عن شروط التاريخ أو من الدولة من حيث هي ، كما رأينا ، شيء يتم تداوله بين الأجيال .

فحتى عندما نعتبر تاريخاً علياً للدول ، كتاريخ الفاطميين عند ابن خلدون الذي لا نجد فيه التقطع والخلاء الزماني الذي أشرنا إليه والذي عايناه عند ابن الأثير ، بل الذي يحتوي على أخبار مؤرخة بكل سنة تقريباً من سني تاريخ الفاطميين<sup>(٢)</sup> ، أو كالتاريخ المجمل رائع الاختصار الذي نجده في نص للمقرئزي<sup>(٣)</sup> - عندما نعتبر تواريخ كهذه لا نجد من الخصائص التي تجبرنا على

---

(١) للزمان والدهر : أنظر مسكويه ، « ما الفصل بين الدهر والزمان » في Textes ، ص ٢٠٢ -

٢٠٣ ، والبيروني ، هند ، ٢٧٠ - ٢٧٢ ، وقارن المسعودي ، مروج ، ١ ، ٤ / ١٠٤ -

١٠٥ .

(٢) تاريخ ، ٤ / ٦٣ وما يليها .

(٣) خطط ، ١ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .

مراجعة وتعديل البنى التاريخية التي وضعناها للتاريخ الحولي. فعلى الرغم من «تتابع وتناسق» تاريخ الفاطميين من الوجهة الزمانية، بحيث أن السنة لا تفرض نفسها مقياساً لطول الاحداث وبحيث أن التاريخ يذكر بعد ذكر الحادثة وليس قبله - على الرغم من ذلك لا نجد ما يربط الاحداث في هذا التتالي المتناسق ما عدا التتالي، وكأن حدوث الامور بعد بعضها البعض بالصورة التي حدثت من قوانين الأشياء الماثلة للبديهة، أي وكأن النتيجة التي وصلت اليها الامور - من هزيمة الاغالبية ومن التفات كتامة حول دعوة أبو عبد الله الشيعي ومجيء عبيد الله المهدي إلى افريقية وقيام الدولة الفاطمية - تبرر مقدماتها. يبدو من السرد للخلدوني ومن نص المقرئزي وكأن التتالي بحد ذاته هو مبدأ تفسير الأمور، أي وكأن الحدث ومبدأ هذا الحدث متمثلان. فالتتالي اذن تتال صرف، كما هو الشأن في التاريخ الحولي، اذ لا فرق ان كان لعلاقة السبق واللاحق عنوان هو «السنة» أم «الفاطميون» ما دام ليس لهذه العلاقة بنى متميزة عن التسلسل في الزمان. ان ما يجمع بين عناصر هذا التتالي هو الموضوع العام المتعلق بدولة ما والمطالب التفصيلية التي تتناول متعلقات الملك من حروب وجباية ووزارة وغيرها. لا ترجع الاحداث المتسلسلة الى بعضها البعض، بل هي ترجع للعنوان الذي يجمعها وهو الدولة الفاطمية. ليست أحداث الدولة هذه أحداث لها استقلال وطبيعة تربطها ببعضها البعض، بل إن الترابط الوحيد بينها هو الرابط الافقي الذي تكلمنا عنه والذي يجمع بين الاحداث في ادراجها ادراجاً كثفت ترجع لموضوع. فرجوع الحادثة الى مطلب من مطالب كتابة التاريخ لا يرتبط أدنى ارتباط بمكانها في تسلسل السرد الذي يشكل تاريخ الدولة بوضع الانباء، بل هو ارتباط افقي مباشر بالمرجع الذي يبرر اعتبارها تاريخية، وليس لسياقتها في موضع محدد من سلسلة التاريخ الا اتفاق رجوعها للدولة وأن حدوثها، دون ان يكون لهذا الان اي محتوى خارج عن الآنية.

ارتباط الحادثة الحصري بالرابط الموضوعاتية الافقية تستمد قوتها، اذن، من هذا الاراداف الذي ترتبط به تلك الحوادث الراجعة لعين الرابط الموضوعاتية،

كالدولة الفاطمية<sup>(١)</sup>. ليس للحوادث الا اسباب مباشرة هي بمثابة مقدماتها الزمانية والفصول التي تؤسس الحدث، تماما كما يمكن القول ان تاريخ الدولة الفاطمية مؤلف من فصول تأسيسية لا تدخل في علاقة عليّة ضرورية مع الفصل المركزي الممثل في الدولة الفاطمية المستمرة. ليس هناك شك في ان الله سلط باختنصر على اليهود عقابا لهم على خطاياهم : بيد أن سبب حملة باختنصر على فلسطين لا يختلف عن تعليله ، فسبب الحملة، وحتى «السبب العام» الذي لها حسب ابن الاثير، ليس غير الخطايا، وسرد السبب هو سرد الخطايا الذي لا يتميز ولا يزيد عن تقديم امثلة على هذه الخطايا . أما الاسباب المباشرة لحملة باختنصر، فليست الا الحملة عينها في مسيرتها من بدايتها حتى تخريب بيت المقدس<sup>(٢)</sup>. فليس السبب الا الحدث عينه كما يتحقق في مسيرة فصوله. ذلك هو معنى «السبب» الذي نراه في سياقة الاحداث وفي كل التواريخ، وهو يماثل في معناه معنى البدء، كما يمكن أن نرى، على سبيل المثال، في استخدام الطبري لعبارة البدء بمعنى السبب الاول في اطار «بدء سبب» خلافة أبي العباس السفاح «في ما ذكر عن رسول الله ﷺ انه أعلم العباس بن عبد المطلب أنه تؤول الخلافة الى ولده»<sup>(٣)</sup>. ولا سبيل الى تصوير الاسباب بشكل يخرج عن اطار الحادثة في مسيرتها وربطها بما يخرج عن حديثها المحضة من عليّات على أنواعها. ولذا فلم يكتف اخباريو بداية الدولة العباسية كما ينقل عنهم ابن الاثير باعتبار ولاء أهل الموصل للامويين سببا كافيا للمذبحة التي تعرضت لها المدينة على أيدي جيش بني العباس في العام ١٣٢، بل رأوا من الضروري أن يجعلوا من شذرة حديثة تافهة سببا لهذه المذبحة، شذرة قد تكون صحيحة وقد لا تكون، وتذهب الى لقاء امرأة ماء قدرة، دون أن تعتمد ذلك على أحد عساكر العباسيين<sup>(٤)</sup>. يبدو وكان السبب الذي يذهب الى ما وراء الحديثة المباشرة لا

(١) نرى البنية عنها للسرد التاريخي في التوارة . راجع ملاحظات AUERBACH (1968)

ص ١٧ .

(٢) كامل ، ١ / ٢٦١ - ٢٦٤ .

(٣) تاريخ ، ١٠ / ٢٣ - ٢٤ .

(٤) كامل ، ٥ / ٤٤٤ .



ينفع مسبباً، بل يجب أن ينخرط في تحقيق حدثي عياني وان ينقل السببية من مجالها الى مجال الحدث الصرف<sup>(١)</sup>. بهذا الشكل، يرجع المسعودي سبب عبادة الاسلاف في الصين الى الحدث الأول الذي فيه عبدت الاسلاف، الحدث المخبر عن جمع أحد ملوك الصين ثماثيل أجداده ثم وضعها في هيكل واصدار الامر بتأسيس تلك العبادة ديناً<sup>(٢)</sup>، وذلك تماماً كما يرى الفرودي في ملحمة الفارسية سبب تعظيم الفرس للنار في سرور أوشهنج باكتشافها واتخاذها منها قبلة<sup>(٣)</sup>. لا ينفصل السبب عن الحادثة التي يسببها، ولا يحتل حيزاً متميزاً عن حيز سردها. ذلك هو، دون شك، سبب كون رسالة يعقوبي الصغيرة في البرهان على القول القائل بأن الناس على دين ملوكهم لا تتضمن اي قول عام في الموضوع بل تقدم امثلة على تقليد الناس للملوك<sup>(٤)</sup>، كما أن هذا هو سبب انعدام التميز النظري لمفهوم الدولة في مقدمة ابن خلدون عن ذلك الذي نراه في التاريخ، مع ان الأول من المفترض أن يكون الاداة النظرية للثاني<sup>(٥)</sup>.

تدين الحادثة، بوجودها، وبتاريخيتها، اذن، الى نقطتها المرجعية، الى العقدة الموضوعاتية التي ترزموها وأخواتها من الحوادث في رباط أفقي. ولكن كونها مدينة بوجودها الى هذا المرجع يعني أيضاً أنها تدين لهذا المرجع بأكثر من الوجود الصرف وبأكثر من الموضع الذي تحتله في فضاء السرد. فليس لكل ما يحدث في الماضي تلك التاريخية التي تسمح له باحتلال موقع في التاريخ. ففي الاخبار عن الماضي ما يفصل بين ما يصلح للتاريخ - أي بين ما يمكن أن يدخل في رزمة من المطالب التابعة لنقطة مرجعية موضوعاتية - وما لا يصلح لذلك وما يقذف به بالتالي من كتب التاريخ الى عالم النسيان. فلهذا التاريخ ما أطلق عليه، في

---

(١) قارن النتائج الممتازة بصدد المفاهيم السببية الفاعلة في الكتابة التاريخية العربية المبكرة في NOTH (1973) ص ٥٤ وما يليها، ١٥٦ وما يليها، ١٦٩ وما يليها.

(٢) مروج، ٣٢١/١.

(٣) الشاهنامة، ٧.

(٤) مشاكلة الناس.

(٥) أنظر كتابنا ابن خلدون، الفصل الأول.

أطار آخر ، عبارة «وحدة نوعية»<sup>(١)</sup> تربط فيما بينها عن طريق نقطتها المرجعية . والمطالب الراجعة للملك ، وهو نقطة مرجعية المراجع موضع النقاش ، لا تستعصى على الحصر ، بل قد نكون قادرين على تبويبها بصورة شاملة وكاملة ان توفرت لنا الحاسبة الالكترونية . وقد قام أحد الدارسين بمحاولة أولية وجيدة لحصر المطالب الممكنة في الترجمة بحصر تلك الافعال والصفات المنتاهية التي بالامكان استخدامها لتوليد ووصف حياة عدد لامتناه من الناس<sup>(٢)</sup> ، كما قام اخر بحصر ما اطلق عليه عبارة «مواقف نموذجية» في تغريبة بني هلال<sup>(٣)</sup> . فالافعال الممكنة والداخلية في مجال الملك محدودة في أساسها ولامتناهية في مقدارها التوليدية والتركيبية<sup>(٤)</sup> . ولكن هناك صعوبات في حصر موضوع التاريخ اذا

(١) LACY (1974) ص ١٦٩ .

(٢) FÄHNDRIK (1973) ، بالاستناد الى وفيات الاعيان لابن خلكان . لنموذج عن الدراسات التقليدية في حصر المضمون ، انظر دراسة العمري (١٩٧٥) ، ٩٨ ، ١١٠ - ١١٢ ، عن تراجم تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي . هذا وقد ملح أحد الباحثين - HAARMANN (1971) ص ٤٩ ، ٥٤ وما يليها - عملية التتميط التي يتأسس التاريخ عليها ، غير انه ارجع ذلك الى اعتبارات ادبية وتاريخية خالصة . كذلك الأمر فعل NOTH (1973) ، ١٧٤ ، وما يليها ، دون ان يجد في هذا اكثر من عملية ترتيب و تتميط ادبية خالصة .

(٣) CONNELLY (1973) .

(٤) لا بد من الاشارة الى مفهوم «الشيفرة المضاعفة Overcoding» (راجع ECO (1971) ص ١٣٣ - ١٣٥) - والذي يشير الى اثقال المواقف المتولدة عن النماذج ( أفعال ، مواقف ، وغيرها ) بتفاصيل قد تؤدي الى بعض الاضطراب فيها . الامثلة على ذلك قد تكون ، مثلاً ، الاختلافات التفصيلية في متون الكثير من الاحاديث ، مما يشير الى التفاصيل التي بالامكان وسمها بإنها « شيفرة مضاعفة » لا علاقة لها بالحديث « الاصيل » . يبقى ، مع ذلك ، التساؤل عما اذا كانت « الرسائل » بنصها الحرفي الواردة في الكثير من كتب التاريخ ، والشيء هي على الأرجح غير اصلية (راجع NOTH (1973) ص ٧١ - ٧٣) أو الاحلام كما ترد في التراجم (راجع Malti- Douglas (1980) ) ، أو الرؤى التي كثيراً ما نجدها في تراجم الاولياء - يبقى التساؤل حول كونها نماذج أو شيفرة مضاعفة مفتوحاً .

انطلقنا من تعريفاته، وهي عين الصعوبات التي ستواجهنا ان انطلقنا من تعريفات الملك .

فقد رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب أنه ليس للتاريخ موضوع بالمعنى الدقيق والمتعارف عليه لكلمة «موضوع»، ذلك المعنى الذي يشير الى تعريف هذا الموضوع تعريفاً هو ، وان لم يكن حداً ارسطياً ، إلا أنه يقارب هذا الحد بمقاربه لوصف ماهية هذا الموضوع ، آتياً بخصائصه ثم حاصراً ما يتلازم وهذه الخصائص الجوهرية من ادوار واشكال ، وتقلبات لهذا الموضوع ولطبيعته<sup>(١)</sup> . فموضوع التاريخ عبارة عن جملة من المطالب التي تلتزم في الجنس المقالي « تاريخ » . فالتاريخ يتناول « ذكر الملوك والرسل والصحابة »<sup>(٢)</sup> ولكنه لا يقتصر على ذلك فقط . بل ان الاستثارة من قبل « طرق الروايات واخبار العالم .. والحرب والفتوحات » على طريقة الطبري كان موضع نقد من قبل احد من يرى رباطاً وثيقاً بين التاريخ والحديث ، ويرى ضرورة اشتمال هذا الفن على اخبار الرواة<sup>(٣)</sup> . فليس للتاريخ موضوع غير بيان مطالبه واحداً تلو الآخر دون ربطها ببعضها البعض ، وهذا المعنى ، هذا التعريف ، يحصر الاجزاء والفنون ، ينساب مع انسياب وتسلسل نص السخاوي في دفاعه عن فن التاريخ

---

(١) الاشارة هنا طبعاً للطبيعة بالمعنى الذي كان لهذا المفهوم في فكر العصور الوسطى العربية وغيرها ، اي لتلك الخصائص الثابتة التي تنبث في كل احوال الجواهر الذي هو الطبيعة ، هذا الجوهر الذي يسير بقوة دفع ذاتية مسيرة غائية نحو نهاية معينة . انظر تحديدات هذا المفهوم ومصادر هذا التحديد في التراث في كتابنا ابن خلدون وتاريخيته ، ص ٧٦ وما يليها . يعدد ابن خلدون الخصائص الداخلية للشيء في لائحة هامة وكبيرة الدلالة على المفاهيم الضمنية لطبائع الاشياء في فكر العصور الوسطى ، وذلك بقوله ان تحديد الشيء يجري بالنظر الى « اصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمتة وقوته » ( المقدمة ، ٣٢٩/١ ) .

(٢) طبري ، تاريخ ، ٦/١ .

(٣) سخاوي ، اعلان ، ١٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، ٨٧ وما يليها .

بصورة تبين بوضوح كيف ان تعريف التاريخ يتساوى مع وصفه ، وكيف انه غير مستقل عن ممارسته العينية في حيّز نظري يحد فيه حدّه : فهذا الفن يتناول مجموعة من زمر المطالب التي بإمكاننا ان نصنف اجناس الفنون التاريخية الواردة في السخاوي على أساسها : الاخبار النبوية من سيرة ومغازي وقصص الانبياء واخبار الصحابة والخلفاء ، ثم اخبار الملوك وما تعلق بهم من وزارة<sup>(١)</sup> ، ثم الطبقات على انواعها من طبقات زمانية ومذهبية واخبار النحاة والمغنين والادباء والاشاعرة والمبتدعة والبخلاء وغيرهم<sup>(٢)</sup> ، ثم اخبار البلدان التاريخية والجغرافية<sup>(٣)</sup> ، وأخيراً ، « مطلق التاريخ غير مقيد بوصف او جنس » - اي التاريخ العام على طريقة الطبري ومسكويه والمسعودي وابن الجوزي وابن الأثير وغيرهم<sup>(٤)</sup> . وأخيراً يتناول التاريخ « ذكر احداث مشهورة كانت في أزمنة خالية ، اي لا تحدث الا في دهور متطاولة ، كطوفان مخرب او زلزلة مبيدة او أوباء وقحوط مستأصلة لأمم<sup>(٥)</sup> » .

تحديد موضوع التاريخ ، اذن ، لا يمكن ان يتناول الا تفصيل اسماء مطالبه وعناوينها . فموضوعه « امور حادثة غريبة »<sup>(٦)</sup> تتناول « الانسان والزمان »<sup>(٧)</sup> . وهذان هما العنصران الاكثر تجريداً ونظرية في تحديد التاريخ ، وهما في تجريدهما اللامتناهي هذا غير قادرين على تقبل حد يمتاز عن الوصف العياني لأحوالهما . لذا فإن تحديد الموضوع لا يمكن ان يتم الا بتحله الى العناصر التي يتكون منها ، بحيث تصبح مساءلة « الأحوال المفصلة للانسان والزمان »<sup>(٨)</sup> . ليس من الممكن

(١) المصدر السابق ، ٩٦ وما يليها .

(٢) المصدر السابق ٩٨ وما يليها .

(٣) المصدر السابق ١٢١ وما يليها .

(٤) المصدر السابق ، ١٤٤ وما يليها .

(٥) ابن فريغون ، جوامع ، ٥٣٩ .

(٦) كافيجي ، مختصر ، ٥٥٣ .

(٧) سخاوي ، اعلان ، ٧ .

(٨) المصدر السابق ، ٧ .

تحديد مطالب الملك ، وهو « موضوع » التاريخ بكونه عقدة مطالبه ، من تحليل مفهوم الملك ، اذ ان هذا المفهوم غير موجود ولا يقوم الا بالكلام المباشر والعياني - الوصفي - عن الملك . لذا فإن الاحصاء ، احصاء المسائل والمطالب كما تتبدى في كتب التاريخ احصاء تاماً مصنفاً الى انواع من المطالب وانواع من الافعال ، يبدو وكأنه السبيل الوحيد الذي به تتمكن من الامساك بـ « حقيقة » هذا الملك ، وتحديد موضوع التاريخ . ويبدو ان النموذج الذي قدمه بروب في تصنيف الافعال والعلاقات في الحكايات الشعبية الروسية نموذج ممكن ان يحتذى<sup>(١)</sup> .

أما هذا الشتات من المسائل ، فهو لا يلتئم فقط بفعل أثر خارجي هو انضوائه في اطار ممارسة مقالية هي الكتابة التاريخية ، بل هو ينتظم بفعل ذلك العامل الذي يضبط هذه الكتابة ويمنع عنها الانطلاق ، ويفصلها بذلك عن الممارسات المقالية الاخرى التي تتناول الماضي ، من تفسير وحديث وعلوم اخرى تتناول الاخبار عن الماضي : هذا العامل هو الاندراج في الزمان بتتاليه الذي تناولنا البعض من مظاهره ونتائجه للتو .

فالتاريخ ليس فقط سرداً للحوادث ، بل هو « ضبط وترتيب » لها<sup>(٢)</sup> . فالاحوال المفصلة للانسان والزمان تجعل من التاريخ فناً يبحث فيه عن « وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت »<sup>(٣)</sup> . والتاريخ كل تعيين للوقت<sup>(٤)</sup> ، كما رأينا اعلاه ، وهو ، بعبارة رائعة الاجمال ، « الاخبار الخاصة بعصر أو جيل »<sup>(٥)</sup> . انه تنظيم الاخبار في اطار تتالي يتجزأ فيه الزمان الى مقاطع ، قد

---

(١) راجع (Propp (1968) ، خصوصاً ٢٠ وما يليها و٧٩ وما يليها . ونجب في هذا الصدد الاشارة الى مبادئ التحليلات السردية خصوصاً في (Todorov و Bremond (1966) (1966) .

(٢) رشيد الدين ، جامع ، ٢٠٩ / ١ .

(٣) سخاوي ، اعلان ، ٧ .

(٤) تهانوي ، كشاف ، ٥٦ / ١ .

(٥) ابن خلدون ، مقدمة ، ٥٠ / ١ .

تكون سنة كما في الكتابة الحولية أو ملك أو حكم سلالة ، تنتظم في اطارها احداث التاريخ ، بغض النظر عن طبيعة هذه الاحداث ، انتظاماً درسنا البعض من بناء .

بيد ان تبعر مسائل التاريخ وتناوب اخبار الملوك والحكماء والزلازل والموتان ووفيات المحدثين على أخذ مواقع محددة على الاجزاء المقطعة من انسياب الزمان ليس ذلك التبعر الذي لا يضبطه الا ذلك الضابط الخارجي الذي هو النسق التسلسلي الذي يفرضه الزمان بصفته احد محددات الممارسة المقالية التاريخية . فليس كل شيء قابل لان يدخل سياق الكتابة التاريخية . ليس كل ما يحدث في التاريخ تاريخياً، كما ان هناك تدرجاً في تاريخية الاشياء ما بين التاريخية التامة - اي تلك الاشياء التي لا يكتمل تاريخ دونها - والتاريخية النسبية - أي تلك الاشياء التي لا يتقصر من تاريخ بغيابها . ليس التاريخ اخباراً عن كل شيء واي شيء ، بل ان التاريخية هي تلك الصفة المتعلقة بالمسائل التي يأخذ بها التاريخ تبعاً للشروط المضمرة لممارسته . ولا سبيل الى التمكن من مغالبة هذا التبعر في تصنيف يفصل ما هو تاريخي بالتمام عما هو ليس كذلك الا بالنظر الى هذه الشروط التي تبنى عليها الكتابة التاريخية بناء فعلياً . فالاحداث الواقعة اما تندرج في اطار اوسع هو اطار التاريخية ، او هي لا تندرج في هذا الاطار ولا تتطلب اهتماماً من كتابة التاريخ . والتاريخية هذه تقوم بمثابة المرجع الذي تنتمي اليه الاحداث انتهاء الماصدقات الى المفهوم ، وهي العقدة التي تضم من شتات الواقع تلك الوقائع ذات الصفة التاريخية والتي تفرز بالتالي الى توضع زمني - اي تاريخي محدد . فالحادث تاريخي اذا كان من تلك الحوادث النادرة والغريبة ، كالصاعقة التي سقطت على المسجد الحرام في العام ١٥٤ و قتلت خمسة انفار<sup>(١)</sup> ، او الديك الذي باض بيضة في العام ٥٤٧<sup>(٢)</sup> .

الآ ان الحوادث الغريبة ليست بتلك التي لا يكتمل التاريخ بدونها .

---

(١) ابن الاثير ، كامل ، ٦١٣ / ٥ .

(٢) ابن قاضي شهبه ، كواكب ، ١٤١ .

فكتب الرجال أو كتب الطبقات<sup>(١)</sup> تشترك مع التاريخ بالتعريف بالرجال ، وذلك بذكر وفياتهم والبعض من سيرهم ، بينما يتفرد التاريخ بالحوادث والطبقات ، « وقد فرق بينهما بعض المتأخرين بأن التاريخ ينظر فيه بالذات الى المواليد والوفيات وبالعرض الى الاحوال ، والطبقات ينظر فيها بالذات الى الاحوال وبالعرض الى المواليد والوفيات »<sup>(٢)</sup> . ويكونه يعتمد تصنيف الرجال على أسس زمانية هي الطبقات - وقد تختلف في المدة فيما بينها حتى بالنسبة للمؤلف الواحد<sup>(٣)</sup> - فإن ادب الطبقات أدب تاريخي ، ونحن نرى ابن خلكان يطلق على مؤلفه الشهير صفة « مختصر في التاريخ »<sup>(٤)</sup> . ولكننا مع ذلك نرى أن ادب الطبقات يحتل حيزا متميزا عن ادبيات التاريخ بالمعنى الفعلي للكلمة<sup>(٥)</sup> : فالتاريخ المعتمد على تسلسل الرجال وتصنيفهم الزمني ، هو ما يمكن أن يطلق عليه عبارة « التاريخ على طريقة المحدثين »<sup>(٦)</sup> أو « تاريخ رجال »<sup>(٧)</sup> ، كتاريخ دمشق لابن عساكر الذي يحوي من حل بدمشق من الشعراء والخلفاء وغيرهم مرتبين على حروف المعجم<sup>(٨)</sup> ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، الذي يتبين انتسابه للحديث أكثر من انتسابه للتاريخ بكون خمسة آلاف من تراجمه الى ٧٨٣١ تختص برجال الحديث ، بينما لا يستوعب الباقي من تراجم رجال السياسة والادب والشعر الا النزر اليسير<sup>(٩)</sup> . ويتبدى الفرق بين الاثنين في ان ذيل ابي شامة عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي على تاريخ ابن عساكر ادخل على

(١) في مفهوم الطبقة وأدب الطبقات ، راجع (Hafsi (1976) ص ٢٢٩ وما يليها .

(٢) سخاوي ، اعلان ، ٤٦ .

(٣) انظر دراسة معروف (١٩٧٦) ٢٨٠ - ٢٨٩ .

(٤) وفيات ، ١ / ١٩ .

(٥) انظر مناقشة FÄHNDRICH (1973) ص ٤٣٩ وما يليها .

(٦) انظر حجي خليفة ، كشف ، ٢ / ٩٥ وما يليها .

(٧) المحبي ، خلاصة الأثر ، ٣ / ١ .

(٨) ابن عساكر ، تاريخ ، ٤ / ١ .

(٩) العمري (١٩٧٥) ٨٩ ، ٩١ . حول التاريخ والحديث ، انظر السخاوي اعلان ، ٤٤ -

الكتاب الحوادث بجانب الوفيات<sup>(١)</sup> ، كما نراه في ان رئيس المحدثين الذهبي فصل بين الحوادث والوفيات - في تاريخ الاسلام - فصلا تاما ، كما فعل من قبله ابن الجوزي ، ورتب الاخير على حروف المعجم<sup>(٢)</sup> - هذا اضافة الى انه ، بالنسبة للقرن السابع الهجري مثلا ، لا تبلغ الحوادث في تاريخ الاسلام للذهبي اكثر من نسبة ١٤,٤ ٪ من كمية المادة الخاصة بهذا القرن ، وتنخفض هذه النسبة الى ١٠ ٪ فقط بالنسبة للفترة الواقعة ما بين الستين ١٨١ - ٢٢٠<sup>(٣)</sup> ، والى انه في حين اقتصر من جمع بين التاريخ والوفيات قبل الذهبي على ايراد ما بين خمس وخمس عشرة ترجمة في ذيل السنة الواحدة ، اورد الذهبي ستين ترجمة على المعدل ، واكثر من المائة في بعض الاحيان<sup>(٤)</sup> . فالتاريخ على طريقة المحدثين ، اذن ، ومنه الطبقات ، يتشابه مع التاريخ في تنظيم المادة التاريخية على اسس كرونولوجية ، مفترقا بذلك عن قسم لا بأس به من الطبقات التي تنظم مادتها على حروف المعجم ، الا انه ينفصل عن التاريخ في موضوعه - ولو اشترك معه في جعل الانسان والزمان مطلبيه الاساسيين .

اما المسائل التي لا قوام للتاريخ دونها والتي تشكل مضمون الوحدات التاريخية التي تطلها الكتابة ، فهي تلك التي في عقدها تشكل الملوك ومتعلقاتهم في اطار الدولة . فالملك ومتعلقاته من وزارة وحجابه وحروب ودماء ودولة ونسب وفتوح وبطش هي المسائل التي تدخل في اطار الكتابة التاريخية<sup>(٥)</sup> . وليس للملك في علاقته بالتاريخ تحديد ، كما ليس للتاريخ كتاريخ قائم على سرد ما للملوك تحديد ، اذ ليس لاي منها قابلية لان يعرف بواسطة اي عنصر غير نفسه ، اي باي اسلوب يتجاوز ذكر تجلياته العيانية . التاريخ يقوم على الملوك قول صحيح الى الحد الذي يصبح فيه احصائيا . والملك في الثقافة العربية - الاسلامية ،

(١) حجي خليفة ، كشف ، ١٣٠ / ٢ .

(٢) معروف ( ١٩٧٦ ) ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٣) المصدر السابق ، ٣٠٥ .

(٤) المصدر السابق ، ٣٤٥ .

(٥) انظر التحليل في كتابنا ابن خلدون وتاريخه ، الفصل ١ القسم ١ .



ليس بالشيء الذي يجوز على تعريف حدي، بل ان وصف المَلِك يتمثل مع تعريف المَلِك<sup>(١)</sup>، بالضبط كما ان تعريف التاريخ يتمثل مع وصف التاريخ، كما رأينا في اكثر من موضع أعلا. والوصف الذي يقوم بالتعريف ذكر مبعثر لما يتلازم مع الملك من متعلقات كالتى ذكرناها لتونا. فالملك، كما يتبدى في التاريخ وكما يتبدى في ادبيات نصائح الملوك<sup>(٢)</sup>. وهما الحيزان الثقافيان الوحيدان حيث يتبدى، اما في ادبيات التشيع والخوارج، فهو ليس ملكا بقدر ما هو عضوا، اي ان الاشكالية هنا ترجع لمسألة الشرعية - جملة من الافعال - فالسلطان «يأمر وينهى ويلاطف ويحاطب ويحتج وينصف ويوعده ويضمن ويحني ويعلق الآمال ويؤكد الرجاء ويحسم المادة الضارة ويذيق الرعية حلاوة العدل ويمنحهم مرارة الجور، ثم يجبي»<sup>(٣)</sup>. والكلام في الملك يتخذ دوما نفس المطالب مواضيع للكتابة، المواضيع التى تشكل فى مجملها وفى العقدة التى تجمعها متعلقات الملك ووصافه - وبالتالي «مسائل موضوعه». فالكلام فى الملك يتناول ثلاث زمر من المطالب: الكلام فى شخص الملك من نسب ومولد ووفاء ومناقب ومشال وزوجات وأولاد، والكلام فى الافعال كالحروب والفتوح والوزراء والحجاب، وأخيرا، الكلام فى ما جرى فى زمانه من الاحداث الجسم «الحوادث العجيبة والأمور الغريبة»<sup>(٤)</sup> فى تسلسلها الزمانى. فزمر المسائل هذه تتلازم والكتابة عن الملك بغض النظر عن الاطار الادبى والتاريخى للكتابة، فنحن نجد فى سيرة نور الدين زنكى التى كتبها احد المتأخرين للاقتداء بالشهيد<sup>(٥)</sup>، كما نراها فى سير الملوك كما يكتبها مؤرخو البلاط، كسيرة هولوكو<sup>(٦)</sup> وسيرة صلاح الدين<sup>(٧)</sup>. كما

---

(١) انظر مقالنا «السياسة واللاسياسة»، ص ٢٨١ وما يليها وكتابنا ابن خلدون وتاريخيته، الفصل ١ القسم ٢.

(٢) انظر مقالنا «السياسة واللاسياسة» ووضح شرارة، «الملك / العامة».

(٣) التوحيدى، امتاع، ١٣٤/١.

(٤) ابن قاضى شهبه، كواكب، الباب السابع.

(٥) المصدر السابق.

(٦) رشيد الدين، جامع، مجلد ١ باب ٢ فصل ٢.

(٧) ابن شداد، نوادر.

نجد ابن بطوطة يعلق أخبار ترحاله ليخبرنا عن سلطان دهي ، محمد شاه ، إخباراً لا يختلف في صيغته ومسائله عن أخبار أي مؤرخ عن أي ملك<sup>(١)</sup> ، ولو أنه لم يكن يكتب تاريخاً بل أخبار خاصة بملك خارجة عن إطار ادبيات التاريخ ومن دون أن يعني ذلك خروجها عن مفهوم الملك .

لإخبار الملك اذن متعلقات عرفيه متواترة ، وإن لم تكن معلنة ، تقوم مقام حصر مسائل موضوعه . فليس للملك تعريف ، وليس للتاريخ تعريف ، يتجاوز في مفرداته تسمية مطالب هذين الموضوعين . والملك ليس بالتالي إلا عقدة المطالب التي تتناول موضوعه . الملك هو من «يستعبد الرعية ويحمي الاموال ويبعث البعث ويحمي الثغور ولا يكون فوق يده يد قاهرة»<sup>(٢)</sup> . فمتعلقات الملك آثار ظاهرة لوجوده : هي ليست تجليات له ، ولا هي اعراضه الذاتية ، فهي ليست مستتعبة من تعريفه ، اذ لا تعريف له . متعلقات الملك ، بعبارة قرآنية ، آياته ، اي انها محسوسات تتعلق بوجوده ، برابط ليس من الضرورة ان يكون واضحاً : فهي ليست فقط أخبار الملك الفرد الشخصية ، بل هي سجل لما جرى في عهده ، فما جرى في عهده خاص به وليس خاصاً بالعهد ، كما رأينا اعلاه بخصوص الملك الذي يطلق عليه المسعودي اسم آخرتنا ، وما جرى في عهده لا قوام له بنفسه ، بل هو ، بما هو تاريخ ، في توابع رأس التاريخ الذي هو الملك . الملك قوام كل تاريخ : فتاريخ اليهود في فترة البطارقة التي تلت وفاة موسى تاريخ تتالي حكاهم الذين «سدوا مسد الملوك ولم يزالوا على ذلك حتى قام فيهم طالوت فكان اول ملوكهم»<sup>(٣)</sup> . ويكون الملك قوام كل تاريخ ، فان في متعلقات الملك درجات من التعلق بشخص الملك بوصفه الفاعلية التاريخية المركزية العيانية . وهذه الفاعلية المركزية تتحقق في المقال التاريخي بشكل شديد التعيين يحدها بوصفها عنصر مقال التاريخ : هذا الشكل هو التتالي الزمني

---

(١) رحلة ، ٤٢٧ وما يليها .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ٣٤١/١ وقارن السبكي ، طبقات ، ٣١٥/٥ .

(٣) أبو الفداء ، مختصر ، ٢٠/١ .

واعتبار الزمان محور التالي النصي في مقال التاريخ . تصبح بذلك تواريخ ملك ما وسجلات تسالي الملوك الشكل البسيط (بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة ) للكتابة التاريخية، وهو الشكل الذي نراه في جداول الملوك في العصور القديمة (المصرية والبابلية ) والجداول الفارسية المعروفة، وهو يبدو وكأنه الشكل البسيط للكتابة التاريخ في كل ثقافة . كل ما عدا ذلك ليس بالضرورة التي لهذا السجل، فالتاريخ بالسجل كاف، ودونه ليس تاريخاً .

هذه الطريقة يتضمن علم التاريخ كعنصر رئيسي « اسماء الملوك المذكورون في الاقاليم بعددهم وايامهم ومدة ملكهم وانتقال دولهم»<sup>(١)</sup> . فالاساس الذي تلتزم حوله متعلقات الملك هو السجل المقتصر على اسماء الملوك ومدة حكمهم وتاليهم، وربما القليل من متعلقاتهم الخاصة، كما نرى في «اسماء الخلفاء والولاة» لابن حزم<sup>(٢)</sup>، وكما نرى تاريخ الطبري للرومان والبيزنطيين<sup>(٣)</sup>، أو للبعض من الفرس في عهد ملوك الطوائف<sup>(٤)</sup> . نرى الشكل البسيط للكتابة التاريخية عندما تغيب المعلومات التاريخية دون أن تنتفي امكانية وصحة كتابة التاريخ، كلدی اليعقوبي مثلاً، عندما يملأ فترة خالية من تاريخ اشور بالقول «ثم ملك خمسة عشر ملكاً لا تاريخ لهم ولا قصص»<sup>(٥)</sup> دون أن يعني ذلك انه خالف قواعد الكتابة التاريخية - بل انه حقق الشروط الاساسية والبسيطة لكتابة التاريخ وهي الحفاظ على الاستمرارية في تسلسل نص من المفترض انه يقابل تسلسلاً زمانياً متماهياً مع تسلسل الملوك، تلك الشروط التي يحققها أيضاً حمزة الأصفهاني في

---

(١) ابن فريغون ، جوامع ، ٥٣٩ .

(٢) النص في ابن حزم ، جوامع ، ٣٥٣ - ٣٨١ .

(٣) تاريخ ، ٧٤١/١ - ٧٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، ٧٠٧ - ٧١١ أنظر وصف المسعودي لكتاب فارسي نقل للعرية لهشام

ابن عبد الملك يبدو وكأنه مثال على الشكل المتطور في تاريخ الملوك الفارسي والذي لا يخرج عن النمط الذي نصفه الآن : التنبيه ، ١٠٦ - ١٠٨ .

(٥) تاريخ ٨١/١ .

سياقته لاسماء الملوك وسنيهم . « ذكرأ مرسلاً مجرداً من الأخبار والسير والأوصاف » <sup>(١)</sup> كما يحققها ابن الأثير في سجله لتتالي ملوك الرومان والبيزنطيين <sup>(٢)</sup> . الشروط التي يفرضها الشكل البسيط لكتابة التاريخ هي تلك التي تكمن ببساطتها في كونها الشروط التي تشكل التاريخ والتي لا يقوم التاريخ دونها ، وهذه الشروط هي تلك التي يجب توافرها لوجود التاريخ في تلك الأوضاع التي لا تتوافر فيها المادة التاريخية الغزيرة ، تلك الأوضاع التي يجب فيها الاقتصاد على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبها ومن كان يناهضها من الأمم او يقصر عنها <sup>(٣)</sup> .

تلك هي مسائل التاريخ البسيطة : الملوك في تتابعهم ، وذكر معاصريهم في علاقتهم بهم التي قد لا تكون إلا التزامن . هذا هو فحوى « نسب الدولة بعضها من بعض » . والمعاصرون يتبدون أيضاً بشكل سلاسل من الملوك ترجع الى اسم - قبط ، نبط ، عدنان ، أو غيرها - يحددها كوحدة للتتالي النصي ، وبالتالي للتتالي التاريخي الذي من المفترض أنه يتوازى مع التتالي الزمني الحقيقي . فاعتبار الزمان المحور الوحيد للتتالي النص التاريخي ، واعتبار الملك ومتعلقاته الموضوع البسيط والأساسي لهذا التتالي ، هما مكونا التاريخ : فالتاريخ تتالي الاخبار المتعلقة بالملك . والتتالي الصرف هو البنية الأساسية للتاريخ الذي يتناول مسائل لا بنية لها . والملك هذا ، مع انه عقدة مسائل التاريخ (أي أنه أصل المسائل موضوعاتياً وفلسفياً) إلا أنه لا يقدم هذه المسائل في تناليها وعرضها عنصراً يعمل على صهرها وتكاملها في سرد متصل الحلقات متتابع المعنى واضح الوجهة ، بل هو ، على شاكلة الطبقة (بغض النظر عما اذا كانت سنة كما في الحوليات او عقدا او اية وحدة زمانية اخرى) ليس إلا اطاراً صورياً للتتالي النصي الذي لا علاقة له بالتتالي كإضافة (بمعنى التتالي العلي) . بل انه من المفترض أن يعكس تتالي

(١) تاريخ ، ص ٩ .

(٢) كامل ، ١ / ٣٢٤ وما يليها .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ / ٥٠ .

لحظات الزمان في تتابعه الكوني الاعمى والعشوي ، ذلك التابع البسيط الذي نجده ممثلاً لتتابع الملوك في جداولهم ، التابع وثيق الصلة بجذوره في الوحدة الاصلية للتاريخ الحولي والتنجيم - تلك الصلة التي لم يحصل اي انتقاص مفهومي لها ، كما نرى في اليعقوبي ، مثلاً ، الذي يذكر القرائن العلوية التي تزامنت مع الاحداث التاريخية الكبرى<sup>(١)</sup> .

الملك ، إذن ، عقدة التاريخ من جهتين : هو عقدة المطالب ، وهو اساس تنظيم التسلسل وسياقة الاخبار في اطاره التاريخ على الملوك . الملك هو عنصر التاريخ بما هو وحدة ذات امتداد زمني معين تقع بين نقطة بدء زمني (تشكل نهاية ملك آخر) ونقطة نهاية زمنية (تشكل بداية ملك آخر) ، وحدة تقتطع لنفسها حيزاً معيناً على محور الزمان ، منظمة بذلك حوادث التاريخ - وهذه الحوادث اما متعلقاتها ، واما الحوادث الجسيمة والغريبة - وجاعلة اياها ، سردياً ، من خواصها . فتماماً كما رأينا في التاريخ الحولي ، حيث السنة عنصر التاريخ وعامل تنظيم الحوادث ، يكون الملك الفرد ، كما رأينا ، وحدة زمنية تنظم الحوادث بما هي حاصلة «في عهد فلان» ، بحيث أن وقوع حادث في سنة معينة لا يختلف ، من وجهة نظر هذا الحادث وخصائصه السردية ، من رجوعه ذاته أو رجوع غيره الى ملك - والتوازي تام بين ما يحدث في سنة معينة ، في اطار طبقة معينة ، أم في زمان ملك معين . فالتنظيم تسلسلي في كل الاحوال . وما يسم الحادث بالتاريخية ، اي ما يعين تاريخيته ، هو رجوعه لملك : رجوعه لمدة هذا الملك ، ورجوعه لموضوع الملك بكونه من مطالب هذا الموضوع . ومدة الملك ، بوصفها زمان مقتطع من زمان اطول ومتواصل مع ما قبل هذا الملك ومع ما بعده ، هي رجوع الملك الى دولة بعين الصورة التي ترجع بها حادثة ما الى هذا الملك . الوظيفة المقالية للملك ، إذن ، مزدوجة ، أي أن للملك وجوداً ثنائي

---

(١) تاريخ ، ٦٨/١ ، ٧/٢ ، وفي اماكن كثيرة اخرى ، وانظر الملاحظات في Al- Azmeh «Ecriture» . بالنسبة لاصول التنجيم التاريخي ، انظر ابن خلدون ، مقدمة ، ١٨٦/٢ وما يليها . وقارن ، بالنسبة لوضع مشابه في التاريخ الصيني الكلاسيكي ، (Needham 1968) ص ٢٣٣ .

التجلي : فهو يتحقق بوصفه وحدة زمانية ، تماماً كتتحقق السنة الواحدة في التاريخ الحولي ، وهو يتحقق كعقدة المسائل التي تنتظم في اطار الوحدة الزمانية المبنية على التالي الصرف . ونحن نرى التحقق الثنائي هذا اساساً للبنيان العام والاساسي والبسيط لتنظيم تاريخ البشرية كما هو اساس تنظيم تاريخ كل دولة وكل شعب .

التاريخ ، كما رأينا في تعريف خلدوني اقتبسناه في فقرة سابقة ، « ذكر الاخبار الخاصة بعصر أو جيل » . التاريخ ، بكلمات اخرى ، تاريخ فترة زمنية معينة ، او هو تاريخ جماعة بشرية تجدد تاريخيتها في سلسلة معينة من الملوك - والامران يرجعان الى بنية واحدة . فالتاريخ لفترة هو تأريخ للملوكها ، اي ان تاريخ شعب هو تاريخ ملوك هذا الشعب في تتاليهم ، والفرق بين هذين النوعين من كتابة التاريخ اللذين كثيراً ما نراهما مندمجين (مع اننا احياناً نراهما متحققين تحققاً ادبياً مستقلاً في كتب مستقلة) ، هو ليس اكثر من ان تاريخ فترة ما ، ويتكون من سلاسل من الملوك في تتاليهم الواحدة بجانب الاخرى ، دون أن تكون للواحدة صلة بغيرها أكثر من علاقة التواجد في المكان الذي هو الحيز الفيزيائي للنص والسلاسل هذه هي التي تقوم مقام الجماعات البشرية بالكامل .

فليس الملك من توابع شعب أو أمة بما لها جسم اجتماعي وسياسي واقتصادي وغيره ، إذ ليس الملك عبارة عن جسم سياسي اجتماعي ما ، بل ان المجتمع المدني هو الذي لاقوام له إلا بالملك<sup>(١)</sup> . الملك بذلك هو الاسم الذي يطلق على دولة : فتاريخ الفرس مثلاً تاريخ ملوك الفرس ، إذ ملوك الفرس هم مطالب هذا التاريخ ، ولا كيان للشعب الفارسي دون وجود ملوكه . والدولة ليست تاج المجتمع المدني ، بل ان الملك اصل اشياء التاريخ ، بحيث أن « الشعب » لا قوام له كوحدة تاريخية ، بل ان ما نراه اليوم على انه تاريخ هذا « الشعب » يقع خارج نطاق النظر التاريخي العربي في العصور الوسطى ولا تاريخية له ، على عكس تاريخ الملوك في تتاليهم - وذلك على الرغم من النص

---

(١) انظر تحليلنا لعلاقة الملك بالجسم السياسي في « السياسة واللاسياسة » ، ص ٢٨٤ -

الخلدونى الذي قرأه الكثير من المعاصرين وكأنه مؤشر على وحدات سوسولوجية هي العصبيات ، بينما العصبيات لا تدل إلا على وحدات سياسية مجردة دون الالتفات الى بنائها الداخلية ، وذلك تماماً بمقتضى متطلبات الكتابة التاريخية التي تستند الى سرد اخبار ملوك يستندون الى مجموعات ليس لبنائها الداخلية اهمية بحد ذاتها ، بل ان منظور اعتبارها سياسي بالمعنى الضيق للكلمة - أي أن المجموعة تساوي الاسم الداخل في علاقة سلطان<sup>(١)</sup> . فتاريخ دولة ما ، اذن هو هذه الدولة ، وهذه الدولة هي الامتداد الزماني لسلطة يشكلها العنصر التاريخي الفاعل بصورة متصلة ، العنصر التاريخي الذي هو الشعب ( او الجيل والطبقة في بعض المصطلح الخلدوني وغيره )<sup>(٢)</sup> الذي يزول في اعطائه اسمه للدولة او لسلسلة الدول - كالعرب والفرس على طبقاتهم ودول كل من هذه الطبقات . ليس ثمة تصوّر لمجتمع ، او لشعب ، دون تصور الملك الذي يحده ، وهذا يصدق على ابن خلدون صدقه على غيره<sup>(٣)</sup> .

التاريخ تاريخ دول وملك . فها هو ابن العبري يقدم لقارئه تاريخاً للعالم منذ الخليقة « مرتب على عشر دول داوها الله بين الامم فتداولتها تداولاً بعد تداول » ، اذ الدولة تنتقل من شعب الى آخر : الاولياء من آدم الى موسى ، ثم الدولة المنتقلة من الاولياء الى قضاة بني اسرائيل ، ثم المنتقلة الى ملوك بني اسرائيل ، ثم الى ملوك الكلدانيين ، فالجوس ، فاليونان الوثنيين ، فالافرنج ( الرومان ) ، فالبيزنطيين ، حتى انتقالها الى ملوك العرب المسلمين ومن ثم الى ملوك المغول معاصري المؤلف<sup>(٤)</sup> . فالانتقال ليس فقط انتقالاً للملك من سلالة

(١) انظر العظيمة ، ابن خلدون وتاريخيته ، ص ٥٢ وما يليها .

(٢) حول مصطلح الجماعات البشرية الكبرى من شعب وجذم وجيل وجمهور ، راجع تاج العروس ، ١٣٤/٣ - ١٣٥ ، والهمداني ، عجالة ، ٦ - ٧ ، والسمعي ، انساب ، ١٨/١ ، والنويري ، نهاية ، ٢٨٤/٢ - ٢٨٥ ، والمصطلح المستخدم في تاريخ ابن خلدون ، مثلاً : ١٧٦/٦ - ١٧٧ ، وقارن ملاحظات Chelhod (1969) ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) انظر كتابنا ابن خلدون ، ٤٦ وما يليها .

(٤) تاريخ ١ - ٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، وغيرها .

جنسية معينة الى اخرى تنتمي الى امة اخرى بل ان انتقال الملك يعني ايضاً خروج الشعب ذي الملك الغابر من التاريخ الى مجال اللاتاريخية . هذا هو مصير تلك القبائل التي تندثر وتندمج بقبائل اقوى منها عقب زوال الملك عنها ، كما نرى في عدد يستعصي على الحصر من المرات في تاريخ ابن خلدون ، وهذا الانتقال هو ما يحصل ايضاً في اطار القبيلة الواحدة من بيت الى بيت ، كما نرى في اليعقوبي مثلاً<sup>(١)</sup> ، وهو من وجهة نظر التاريخ ، الذي يهتم بالدول - السلالات كل على حدة وبما هي وحدة مستقلة ، عين ما يحدث عند « انتقال » الدولة من بني العباس الى بني بويه في اول ايام المستكفي<sup>(٢)</sup> ، وعندما « اضمحل ملك اليونانيين ، ودخلوا في الروم »<sup>(٣)</sup> ، اذ كان هؤلاء اليونانيون « قد دخلوا في جملة الروم منذ احتوا على ملكهم كدخول الكلدانيين وهم السريان يون سكان العراق في جملة الفرس الاولى لغلبتهم عليهم »<sup>(٤)</sup> ، وكان هذا الدخول والخضوع تامان لدرجة ان اسم اليونانيين « زال . . . وانقطع ذكرهم ونسب الجميع الى الروم »<sup>(٥)</sup> . يشابه وضع اليونان وضع العرب العاربة « الى ان انقرضوا وأزال الله من امرهم بالقحطانية »<sup>(٦)</sup> ، او حال العرب في المغرب بعد العام ٢٩٦ عند « خروج كتامة على بني الاغلب بدعوة الرافضية ، قام فيهم ابو عبد الله المحتسب الشيعي داعية عبيد الله المهدي ، فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بافريقية ، واستقلت كتامة بالامر من يومئذ ، ثم من بعدها برابرة المغرب . وذهبت ريح العرب ودولتهم عن المغرب وافريقية ، فلم يكن لهم بعد دولة الى هذا العهد ، وصار الملك للبربر يتداولونه طائفة بعد

(١) تاريخ ، ٢٢٣/١ - ٢٢٧ . قارن ابن خلدون ، مقدمة ، ٢٦٤/١ .

(٢) بيروني ، آثار ، ١٣٢ ، ١٣٤ . الانتقال هو المفهوم الذي يقوم عليه التاريخ الاوروبي في العصور الوسطى : انظر (Curtius 1953) ص ٢٩ .

(٣) ابن الاثير ، كامل ، ١/ ٣٢٤ .

(٤) مسعودي ، تنبيه ، ٧ .

(٥) المصدر السابق ، ١١٥ .

(٦) ابن خلدون ، تاريخ ، ٥٥/٢ .



اخرى وجيلاً بعد آخر ، تارة يدعون الى الامويين الخلفاء بالاندلس وتارة الى الهاشميين من بني العباس وبني الحسن ، ثم استقلوا بالدعوة لانفسهم آخراً<sup>(١)</sup> . ولعل افضل دليلين على اطلاق مركزية الدولة كملك في الكتابة التاريخية اعتبار الدولة الفاطمية دولة واحدة في المهديّة وفي القاهرة، دولة لم يغير انتقالها عبر المسافة الشاسعة - اقتصادياً واجتماعياً وحضارياً وثقافياً - من افريقية الى مصر منها شيئاً : فالدولة دولة سلالة معينة ، وتاريخها مساق على هذا الاعتبار دون اعتبار أية محكات اخرى ، فتاريخيتها تاريخية السلالة الحاكمة وما عدا ذلك اختلاف عرضي بحث<sup>(٢)</sup> ؛ ثم اعتبار ان القبط ، « اقدم امم العالم واطولها امداً في الملك ، اختصوا بملك مصر وما اليها ، ملوكها من لدن الخليقة الى ان صبحهم الاسلام بها »<sup>(٣)</sup> ، شعب قد انقرض بمجيء الاسلام لان العرب استولوا على الدولة من « ملوك القبط » - فتحول تسمية ما هو تاريخي من قبطي الى عربي ، وتحولت التاريخية من شعب الى شعب ، ولو ان الشعب القبطي ، فيزيائياً ودينياً ، كان ما زال يشكل نسبة كبيرة جداً من المحكومين في مصر في عهد ابن خلدون<sup>(٤)</sup> .

من الطبيعي ، والامر كذلك ، أن يتصدر الملوك اطار التاريخ ومحتواه ، وان يتباروا مع الزمان نفسه في تحديد زمانية الاشياء . فالتاريخ ، كما رأينا في عدة مواضع ، تعيين لوقت حدوث الاشياء . ويقوم الملك برزم اشياء التاريخ وعقدها تحت لوائه ليس فقط بتكوينه وحدتها الموضوعاتية ، بل هو يمارس سطوته

(١) المصدر السابق ، ٦ / ٢٢٩ .

(٢) انظر العظمة ، ابن خلدون وتاريخيته ، ٤٢ - ٤٣ .

(٣) ابن خلدون ، تاريخ ، ١٤٠ / ٢ .

(٤) قد يكون من المفيد الاشارة الى ان التاريخ الايراني لا يتخذ من السلسلة وحدته الأساسية ، بل يضع هذه السلسلة في اطار جغرافي أساساً هو البلاد الايرانية ، بحيث يصبح الامر المهم « ملوك ايران » : كأردشير ، والاسكندر ، وعمر بن الخطاب : انظر الفردوسي ، الشاهنامه ١٢٢ ، ٢٣٨ . في علاقة الشاهنامه بالتاريخ الايراني راجع GRUNEBAUM (1953) ص ١٨٠ وفي أماكن اخرى .

العمودية بفرضه نفسه معياراً زمنياً للأشياء وتسمية لمكانها التاريخي - وبالتالي ، لنظام تسلسلها الذي به فقط قوام التاريخ . ونحن نرى ان زمنية الاشياء ، اي تتاليها الكرونولوجي ، تتحد عموماً في الكتابة التاريخية التي تسرد أخبار ما قبل الهجرة « على الملوك » ، اي ان حكم ملك ما في سلسلة ملوك يشكل الاطار الزمني لسياقة الاحداث . والزمان المقاس بالملوك وذلك المحتوي على السنوات والتواريخ زمان واحد ، بحيث يمكن استبدال الواحد بالآخر بسهولة كما رأينا . فمبتدأ أمر ملك ما أو دولة هو في العادة مبتدأ تقويم ما قائم عليه . ليس قيام التقاويم على الملوك إلا من فاعليات الملك بما هو ربط لاشياء الزمان في تاريخيتها وفي أموقعها من تتالي الاشياء . واعتماد الهجرة في التاريخ ، مثلاً ، لا يرجع بذلك الى عدم الاختلاف في توقيتها فقط ، بل ان الامر أكثر من امر ذي علاقة بالشروط التقنية لممارسة التاريخ - فالهجرة « صارت للنبي كالقيام للملوك وصفاء الملك لهم »<sup>(١)</sup> . يمكن القول ، اذن ، ان التقويم الهجري واستمراره يؤشر نحو فهم لاستمرارية في الملك لم تكن واردة في التقاويم السابقة والتي كان جل اعتمادها على الملوك الواحد بعد الآخر<sup>(٢)</sup> .

كون وحدات الزمان قابلة للاستبدال من قبل الملوك ، وكون الملوك مقاطع زمنية قابلة للاستبدال بالسنين ، يعني امكانية استبدال التقاويم ببعضها

(١) بيروني ، آثار ، ص ٣٠ .

(٢) يسمى احدهم التقويم الهجري تقويمياً « لتاريخ دولة الاسلام » - ( كافيجي ، مختصر ٥٥٢ ) . ومع ان مؤرخ شعوبي يزكي التقويم الهجري لصحته ودقته ، كونه « تاريخ ذو مبدأ واحد وتاريخ الفرس وغيرهم لها مبادئ كثيرة لأنه كلما ملك ملك منهم ساقوا التاريخ من يوم ملكه فاذا مضى ذلك الملك استأنفوا لمن يملك بعده تاريخاً من يوم وصول الملك اليه » ، إلا انه يرجع هذا التاريخ ، عن حق ، الى كونه تاريخ « ملوك قرش » : الاصفهاني ، تاريخ ١٠٢ . في التاريخ الصيني الكلاسيكي كان قبول النبلاء بتقويم الملك الجديد دليلاً على ادائهم الطاعة له : أنظر (1968) NEEDHAM ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ . كل هذه الأمور تنفي الكلام التقليدي الذي يشير الى اعتماد التقويم الهجري وكأنه دلالة على النضج التاريخي ، كما عند الدوري ( ١٩٦٠ ) ١٩ ، مثلاً .

البعض بكل سهولة<sup>(١)</sup>. ليس المستغرب او بالمستهجن ، اذن ، ان يؤرخ المسعودي الفراغ من تأليف احد كتبه بـ « سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع والملك على الروم قسطنطين بن لاون بن بسيل وهي سنة ١٧٠٢ لبخت نصر وسنة ١٢٦٨ للاسكندر ابن فيليس الرومي وسنة ٦٧٣ لاردشير بن بابك وسنة ٣٢٤ ليزد جرد بن شهریار بن كسرى ابرويز آخر ملوك فارس »<sup>(٢)</sup> - مستخدماً بذلك تقوياً مركباً من عناصر لا تختلف قيمياً عن بعضها البعض ، من ضمنها تأريخ بملكين معاصرين ، المطيع وقسطنطين ، يحتوي كل منها على السنة ٣٤٥ للهجرة كاحدى برهاته بحيث يصبح التاريخ ٣٤٥ ليس فقط تاريخاً « هجرياً » ، بل « في ايام المطيع » و « في ايام قسطنطين » . ولهذا السبب ، نرى المؤرخين لا يجدون غضاضة في التأريخ تبعاً لتقاويم عديدة في نفس الوقت - فالتاريخ تعيين للوقت - كأبي الفداء ، مثلاً ، الذي يؤرخ للرومان بالتقويم الاسكندري ويتقويم كل ملك على حدة ، الشيء الذي يفعله ايضاً بتاريخ الطبقتين الثالثة ( ملوك الطوائف ) والرابعة ( الساسانية ) من ملوك فارس<sup>(٣)</sup> ، او كالمسعودي ، الذي ينتقل الى التقويم الهجري في سياقة تأريخ الملوك الساسانيين في العام الاول للهجرة الموافق للعام الثاني من ملك بوران ابنه كسرى ابرويز<sup>(٤)</sup> . ويجب التأكيد على ان غلبة التقويم الهجري على سياقة تاريخ ما بعد الهجرة لم يكن مطلقاً بأي شكل من الاشكال : فابن الاثير يسوق تواريخ ملوك القسطنطينية بعد ظهور الاسلام بتواريخ حكمهم ويعدد سنوات ملكهم ، ويشير الى من عاصروهم من

---

(١) بالنسبة للتقاويم المختلفة ، انظر العرض المناسب والمجمل في السراج ، حلل ، ١٣٥ / ١ والسيوطي ، شماريخ ، ١ - ١٣ وراجع المسعودي ، تنبيه ، ٢٠٢ وما يليها. للتاريخ العربي قبل الاسلام ، في علاقة ذلك بالتنجيم ، انظر العرض المجمل في أبي الفداء المختصر ، ٦٢٥ / ١ ، والعرض المفصل لكل ذلك في بيروني ، آثار .

(٢) تنبيه ، ٤٠١ .

(٣) مختصر ، ٦٠ / ١ وما يليها و ٤٦ / ١ وما يليها . في رد التواريخ الخاصة الى التقويم الاسكندري ، راجع المصدر نفسه ، ٥٥ / ١ .

(٤) تنبيه ، ١٠٢ .

خلفاء الاسلام ، دون استخدام التقويم الهجري الا في ما ندر<sup>(١)</sup> ، كما ان لسان الدين ابن الخطيب يؤرخ للملك اسبانيا المسيحية بالتقويم الميلادي أساساً ، مع الموافقة بين هذه التواريخ والتاريخ الهجري في بعض الاحيان<sup>(٢)</sup> - ناهيك عن استخدام التقاويم المحلية لاسباب معينة ، كالتقويم القبطي في حساب فيضان النيل<sup>(٣)</sup> ، أو استخدام النسء في ضبط توقيت الامور العملية كالخراج<sup>(٤)</sup> ، او الامور الجسام التي تعتمد على العامة في تأريخ الاشياء<sup>(٥)</sup> . ولئن وجدت محاولات للتنسيق فيما بين التقاويم المختلفة ، الا انها بقيت دون أثر يذكر على سبيل المثال ، وظلت محصورة اما في مجال علم النجوم او للتنسيق فيما بين التقاويم المختلفة لمعرفة من الملوك عاصر غيره<sup>(٦)</sup> .

ان ما يصدق ، في إطار سطوة الملك على التاريخ ، على الأخبار المفردة المدرجة في اطار زمان ملك ينطبق ايضاً على الاخبار عن الحوادث الجسيمة في اطار قطع زمانية اوسع ، كزمان سلسلة ملوك التي تتركب ، في النهاية ، من الجمع الحسابي لاجزائها . وبذلك ، فإن خلق آدم يرجع ، في الطبري ، الى « ما حدث في أيام سلطان » ابليس - وابليس اول من أعطى ملكاً ، فهو أول الملوك ، وله الصدارة في تاريخ الملوك الذي هو تاريخ الطبري<sup>(٧)</sup> - فآدم ، بهذا

(١) كامل ، ١ / ٣٣٤ وما يليها .

(٢) اعمال الاعلام ، ٣٢٣ وما يليها .

(٣) انظر في حساب ذلك ابن تغري بردي ، نجوم ، ١ / ٥٤ .

(٤) مثلاً : قلقشندي ، خلافة ، ٣ / ٢١١ وما يليها .

(٥) مثلاً : ابن قاضي شهبة ، كواكب ، ١٧٢ .

(٦) المحاولة الأساسية والكبرى ، طبعاً ، كانت في البيروني ، آثار ، ونجد محاولة مماثلة مع انها كانت اقل مدى لدى البلعمي ، مترجم الطبري الى الفارسية ، الذي حاول الموافقة ما بين سجلات الملوك الفارسية وبين تأريخ الانبياء التوراتيين والقرآنيين : راجع Zotenberg ٣ - ٢ / ١ .

(٧) تاريخ ، ١ / ٨٦ ، ٧٨ . كان الطبري متسقاً أشد الاتساق مع موضوعه ، فترى ابن الاثير ( كامل ، ١ / ٥٠٢ ) . يقول « لم يذكر أبو جعفر من ايام ( العرب في الجاهلية ) غير يوم ذي =

المعنى ، من متعلقات مُلك إبليس . وذلك بنفس الضرورة التي يتصدر بها قصي بن كلاب سياقة تاريخ ذرية كعب بن لؤي ، التي انتهت الى محمد ، لكونه « اول من اصاب الملك » منهم<sup>(١)</sup> . ذلك بديهي في كتابة التاريخ . فالتاريخ ، كما رأينا ، يتبع « ملوك كل زمان . . من رسول له مرسل ، أو ملك مسلط ، أو خليفة مستخلف . . . مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بزمانه ، وجعل ما كان من حوادث الامور في عصره وايامه »<sup>(٢)</sup> وتاريخ الخلفاء يؤرخ لهم « على ترتيب زمانهم الاول فالاول وذكر . . . ما وقع في ايامه من الحوادث المستغربة وما كان في ايامه من أئمة الدين واعلام الأمة »<sup>(٣)</sup> . وهي نفس المادة المذكورة في سياقة تواريخ و اخبار خلفاء آدم<sup>(٤)</sup> . والملك ، عقدة الاخبار عما حدث في عصره ، مركز هذا العصر بكل معنى من المعاني والنقطة التي ترزم حولها الاخبار . ولذا فنحن نرى مؤرخاً شديداً الوعي بشروط كتابة التاريخ يسرد تاريخ بني أمية سرداً يجعل فيه الفتوحات من متعلقات بني أمية في علاقتهم بغيرهم من العرب ، دونما اعتبار قوام مستقل لهذه الفتوحات يجعلها من باب « تاريخ الاسلام » مثلاً<sup>(٥)</sup> . فكل ما خرج عن التعلق بالملك تعلقاً مباشراً خرج عن نطاق التاريخ بالمعنى الدقيق للتاريخ ، ما عدا الامور الجسيمة والغريبة ، وخاصة ، كما رأينا ، تلك التي ترجع الى تصرف الطبيعة بشكل غير اعتيادي .

الدولة كسلسلة والملوك كأفراد هذه السلسلة هما ، اذن ، كالزمان

---

= قار وجدعمة والابرش والزباء وطسم وجديس ، وما ذكر ذلك الا حيث انهم ملوك فاغفل ما سوى ذلك » .

(١) يعقوبي ، تاريخ ، ١ / ٢٤٠ .

(٢) طبري ، تاريخ ، ١ / ٥ .

(٣) سيوطي ، خلفاء ، ١٥ .

(٤) - مثلاً ، في ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ .

(٥) مسعودي ، تنبيه . التفصيل الوافي الوحيد هو في حروب القرامطة ، ٣٧١ وما يليها و ٣٨٩ وما يليها .

ومقاطعته ، نقاط المرجعية في سياقة الاخبار ، فدونها ليس ثمة انتظام للاخبار عن الحوادث الماضية من الوجهة الموضوعاتية او من تلك البنائية . ولذا فإن سلسلة الملوك ، وهي الدولة ، هي الاطار الذي تتوضع فيه ليس فقط الاحداث الفردية ، ولكن مقاطع وبرهات هذه الاستمرارية بما هي مقاطع من الزمان ومقاطع من تلك العقدة ، الملُك ، التي تؤسس المادة التاريخية . ليس من المستغرب ، اذن - بل من الطبيعي - ان يتدّى ابن هشام السيرة « بذكر اسماعيل بن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده ، اولادهم لاصلابهم ، الاول فالأول ، من اسماعيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يعرض في حديثهم »<sup>(١)</sup> ، وان يفتح ابن حزم كتابه في السيرة النبوية بنسب الرسول<sup>(٢)</sup> ، ليس فقط لان الانساب دالة على النبل والمكانة ، وخاصة نسبة الرسول ، وهو الوحيد من بين البشر الذين ينتهي نسبه بالتمام الى آدم ، او لأن علم الانساب واجب<sup>(٣)</sup> ، بل لسبب أهم ، وهو ان هذه الاعتبارات تجد تحققها في اطار البنية المضمرة للتاريخ ، وان ما يصدق على التاريخ يصدق حتى على انساب الاشراف للبلاد الذي لم ير احد الدارسين في الانساب التي يسوقها الاطراً لسياقة الاخبار وتنظيم المادة الاخبارية<sup>(٤)</sup> . لا تقتصر هذه الضرورة ، هذه الملكة ، على نسبة النبي ، بل نجد رشيد الدين يفتح تاريخه هولاًكو بنسبه ، تماماً كافتتاحه تاريخه الكبير بانساب الشعوب التركية عموماً<sup>(٥)</sup> - فالملك عقدة زمانه ، كما أن الدولة هي عقدة هذا الملك ، وتتراتب العلاقة بحيث ان علاقة احداث ملك تشكل مفردات ملكها ، تماماً كما تشكل الملوك

(١) سيرة ، ٤ / ١ .

(٢) جوامع السيرة .

(٣) ابن حزم ، جهمرة ، ١ - ٢ - علماً بأن الكثير من العلماء كره الانساب لانها ، حسب الحديث ، « علم لا ينفع وجهالة لا تضر » - انظر في هذا الرأي ( من وجهة نظر

معترض عليه ) ابن خلدون ، تاريخ ٦ / ٢ .

(٤) ROTTER (1974) ص ٦٨ .

(٥) جامع التواريخ ، قسم ١ ، فصل ٢ ، باب ٢ ؛ باب ١ .

مفردات الدولة - أو السنوات المفردة مفردات الزمان ، والاحداث الحاصلة في هذه السنة مفردات السنة .

ان تزواج فاعليتي ربط المسائل ولبس ثوب الزمان هو ما يجعل تاريخ الطبري والكمال لابن الاثير ، على عكس البداية والنهاية لابن كثير مثلاً ، نماذج للتنظيم البارع والدقيق للاخبار - هذا مع استثناء تاريخ ما بعد الهجرة الذي نجد أسس تنظيمه في ترتيب آخر . فابن كثير ، بمحاولته جعل القرآن والحديث أساساً لتأريخ ما قبل الهجرة ، اضطر لعرض هذا التاريخ بصورة مضطربة - من وجهة نظر التاريخ الذي يروم التنظيم الزمني - جعل منه فصولاً متتالية دونما اي اتصال ، تتناول قصصاً لا صلة فيما بينها - نرى تاريخ حمير ، مثلاً ، لا يأخذ شكل تتالي الملوك ، بل تتابع القصص<sup>(١)</sup> . اما ابن الاثير والطبري فإن عرضهما لتأريخ العالم تم على أساس زمانية دول الفرس ، اذ التاريخ على اسماء ملوكهم « اسهل بياناً » واقرب الى التحقيق منه على اعمار غيرهم من الامم ، اذ لا يعلم انه من الامم الذين ينتسبون الى آدم دامت لهم المملكة واتصل الملك للملوكهم يأخذ آخرهم عن اولهم وغابرههم عن سالفهم سواهم<sup>(٢)</sup> . فالفرس « كان ملكهم متصلاً دائماً من عهد جيومرث ... الى ان زال عنهم بخير امة اخرجت للناس ... وكانت النبوة والملك متصلين بالشام ونواحيها لولد اسرائيل بن اسحاق الى أن زال عنهم بالفرس والروم بعد يحيى بن زكريا ، وبعد عيسى ابن مريم عليهما السلام . فاما سائر الامم غير الفرس ، فإنه غير ممكن الوصول الى علم التأريخ بهم اذ لم يكن لهم ملك متصل في قديم الايام وحديثه الا ما لا يمكن معه سياقة التأريخ عليه وعلى أعمار ملوكهم ، ألا ما ذكرنا

---

(١) ابن كثير ، بداية ، ١٥٨/٢ وما يليها . الحدث الوحيد التاريخي فعلاً هو عام الفيل ، الذي يؤرخه المؤلف بالعام ٨٨٦ للاسكندر ( ١٧٦/١ ) .

(٢) ابن الاثير ، كامل ، ٤٦/١ .

من ولد يعقوب الى الوقت الذي ذكرت ، فإن ذلك وان كانت مدته انقطعت بزواله عنهم ، فإن قدر مدة زواله عنهم الى غايتنا هذه معلوم مبلغه . وقد كان للملك اليمنى ملك ، غير انه كان غير متصل ، وانما كان يكون منهم الواحد بعد الواحد ، وبين الاول والآخر فترات طويلة ، لا يقف على مبلغها العلماء<sup>(١)</sup> . ولئن اورد الطبري اخبار جيومرث - والفرس تساوي بينه وبين آدم - في الاطار الزمني لتتالي ذرية آدم<sup>(٢)</sup> ، تماماً كما اورد تاريخ مولد النبي في الاطار الزمني لتاريخ ملوك الفرس<sup>(٣)</sup> ، الا ان الاطار العام لتاريخ البشرية كان تتالي ملوك فارس على طبقاتهم وحتى لو لم يكن هذا الاطار كافياً بصورة مطلقة . ولذا فإنه من الخطأ ان ينظر الى سياقة تاريخ العرب مثل الاسلام على انه « ادماج » لهذا التاريخ بالكلام عن الفرس<sup>(٤)</sup> . انه في الواقع سياقة منهجية . ففي سرد الكلام حول منوشهر ملك فارس ، يفسر الطبري منهجه بقوله « وانما ذكرت من ذكرت من ملوك اليمن في هذا الموضع لما ذكرت من قول من زعم ان الرائش [ملك اليمن المذكور] كان ملكاً باليمن ايام منوشهر وان ملوك اليمن كانوا عمالاً للملوك فارس بها ، ومن قبلهم كانت ولايتهم بها »<sup>(٥)</sup> . تبعية زمان الرائش لزمان منوشهر متزاملة مع التبعية في السلطة ، ولكن هذا التزامل ليس بالتزامن الضروري ، حتى ولو ان الاولوية الزمانية - التاريخية هي في العادة من نتاج التفاضل في السلطان « في الواقع » . بل ان الاولوية ، ولو تزاملت مع الاولوية مع السلطان ، الا انها ، في كتابة التاريخ ، من وظائف الفاعلية التاريخية ، وقد يكون افضل دليل على ذلك سياقة رشيد الدين لخبار معاصري جنكيزخان

(١) طبري ، تاريخ ، ٣٥٣/١ .

(٢) حول الاختلافات في تاريخ الفرس الاوائل ، انظر ابن خلدون ، تاريخ ، ٣٠٨ / ٢ ، وما يليها .

(٣) طبري ، تاريخ ، ٩٦٦/١ وما يليها .

(٤) جواد علي ، (١٩٥٤) ١٦ .

(٥) تاريخ ، ٤٤٢/١ . قارن ابن الاثير ، كامل ، ١٦٨/١ .



واولاده على تاريخ المغول<sup>(١)</sup> .

سياقة الأخبار « في تضاعيف »<sup>(٢)</sup> الملوك ( او السنين ، لا فرق ) لا يغير من محتوى هذه الاخبار ، ولا من محتوى هذه الاطر التي هي الملوك ( أو السنين ) ، فالأخبار عن امر في تضاعيف امر آخر يجعل من المخبر عنه خبراً عن اطاره ، وبهذا المعنى فهو تابع له . كون الملك اطار التاريخ يجعل من التاريخ تابعاً للملك كما أن كون الزمان اطاراً للأخبار يجعل من هذه الاخبار تابعة للزمان - فاطر الاخبار مرجعها ولا قوام لها ، في الكتابة التاريخية ، الأ بهذا المرجع - ولو كان للأخبار المفردة المجردة عن تاريخ قوام في اطر ادبية اخرى ، ككتب السياسة او مجموعات آداب الكتاب مثلاً . هذا المرجع يجعل من الاخبار وحدات تاريخية ويضفي عليها تاريخيتها . فهي ، بكل بساطة ، تصبح تاريخية لحظة اندراجها في هذه الوحدات ، وتكون خارج التاريخ ( ان لم تكن خارج الماضي ) ان خرجت على هذا الاطر<sup>(٣)</sup> .

نلخص ما قلناه : الاطار اطار مرجعية ، كما رأينا . والمرجعية من ضربين : فهناك المرجعية التنظيمية ، وهي الأساسية ، والكامنة في الاندراج الزماني ، والمرجعية بحسب الموضوع ، اي رجوع الاخبار الى كونها اخباراً عن متعلقات الملك ، ومتعلقات الملك كما رأينا هي تلك الامور التي تصف البعض من فاعلياته وتشير الى الانشطة التي يقوم بها والتي يكون بها فعله بما هو ملك - كالحرب والتوزيع - والاستمرار . استمرار الملك تقوم به دولة يتم

---

(١) جامع ، فصل ٢ ، باب ٢ .

(٢) مسعودي ، مروج ، ٢/١ .

(٣) هذا احد الفروق بين تاريخ الخاصة من جهة ، وتاريخ العامة ، حيث تختلط ازمة الاشياء وتصبح من « الكتب المكذوبة كسيرة عنترة وغيره » ( سبكي ، معيد ، ٢٠٥ ) . نجد سيرة عنترة تجعل من بطلها معاصراً لكل من المندر ملك الحيرة ، ( ١/٣٦٥ ) ، وامرئ القيس ( ٧/٤٣١ ) وهرقل ( ١١/٢٩١ ) والافرنج ( ١١/٢٩٦ ) - كما نجد ان عنترة يصلي باستمرار على النبي محمد ( ١/١٦٨ ، ١١/٣٣٩ ) ، وفي امكن اخرى ) ، مما يعني انه عاش بعده ، بينا ولادة محمد تحصل بعد موت عنترة ( ١٢/٢٨٦ ) .

تداولها بين الملوك لاحقهم بعد سابقهم ، واستمرار الملك هو ما يجعل له اسماً ، فيصبح الملك عباسياً أو بويهياً أو مرينياً أو قبطياً . استمرارية التقويم هي استمرارية اسم لسلطان مستمر متجدد ، واستمرارية التقويم هي ما يرفع من فريدة الحدث التاريخي وتوضعه في زمان ووقت مطلقين ، ويزج به في التاريخ بما هو تابع لزمان له بداية محددة هو التقويم أو الملك أو للدولة . الحدث - والملك الفرد وما يندرج تحته من حوادث حدث بالنسبة للدولة التي ينتمي ويرجع اليها - حدث تاريخي بما هو برهة في سلسلة استمرارية زمانية . سلاسل الاستمرارية الزمانية التي يلحق بعضها البعض والتي يتزامن بعضها مع البعض هي الدولة بما هي تتابع الملوك ذوي اسم علم قائم بذاته هو اسم الدولة هذه ، والقيمة الزمانية لكل من هذه السلاسل قابلة للتحويل الى قيم زمانية لسلسلة اخرى ان اعتبرنا هذه الاخيرة - كرجوع التقويم بملوك بني اسرائيل الى التاريخ بملوك فارس الذي رأيناه عند الطبري وابن الاثير .

من عادة مؤلفي كتب التاريخ العربية ان يقسموا هذه السلاسل الى ما أطلق عليه عبارة طبقات ، وهي سلاسل ضمن السلاسل تضطلع كل منها بالفاعليات التنظيمية للسلسلة الاكبر ، ولكن بمقاييس اضيق . فتاريخ اليهود على طبقتين حسب العرض التاريخي العربي الذي لا استثناءات فيه : فترة الحكام أو الشيوخ البطارقة ، وفترة الملوك التي تبتدىء بشمويل<sup>(١)</sup> وتنتهي بتخريب طيطوس بيت المقدس ، الخراب الثاني الذي ازال دولتهم<sup>(٢)</sup> . كما انه من المتعارف عليه ان الفرس حكموا في أربع طبقات ، منها واحدة من ملوك الطوائف في فترة ما بعد الاحتلال المقدوني<sup>(٣)</sup> ، كما ان تاريخ الروم يقسم عادة الى طبقتين ،

(١) انظر كمثال على ذلك ، ابن خلدون ، تاريخ ، ١٦٨/٢ ، ١٨٠ ، وابن العبري ، تاربخ ، ٢٧ وابن الاثير ، كامل ، ٢١٤/١ - ٢١٥ .

(٢) ابو الفداء ، مختصر ٣٧/١٢ - ٨ هذا وان اليعقوبي ( تاريخ ، ٦٦/١ ) يرى ان دولة بني اسرائيل تنتهي بالخراب الاول لبيت المقدس على يد بختنصر .

(٣) انظر ، مثلاً ، مسعودي ، تنبيه ، ٨٥ وما يليها . الاستثناء ان لهذا العرف هما تقسيم =

اليونان / الرومان ثم البيزنط المسيحيين ( مع ان ابن الاثير قسمهم الى ثلاث طبقات، مضيفاً الى التقسيم المتعارف عليه طبقة ثالثة هي الملوك البيزنطيون بعد الهجرة اضافة لم يقبلها أبو الفداء الذي لخص الكثير من الكامل في مختصره )<sup>(١)</sup>. كذلك الامر يقسم تاريخ العرب الى طبقات قد يكون التقسيم الانضج منها والاكثر وضوحاً تقسيم ابن خلدون تاريخ العرب منذ بدء الخليقة الى عهده الى اربع طبقات متعاقبة « لكل طبقة منها عصور واجيال ودول واحياء » بحيث يصبح هدف مؤرخ العرب ان يذكر لكل طبقة « احوال جيلها وبعض ايامهم ودولهم ومن كان على عهدهم من ملوك الامم ودولهم يتبين لك بذلك مراتب الاجيال في الخليقة كيف تعاقبت »<sup>(٢)</sup> : العرب العاربة اقوام عاد وثمود وطسم وجديس وغيرهم<sup>(٣)</sup> التي يسميها غيره العرب البائدة<sup>(٤)</sup> ، ثم العرب المستعربة ( والتي يسميها غيره العرب العاربة )<sup>(٥)</sup> القحطانية ومنها سبأ وحمر وكهلان ، ثم الطبقة الثالثة وهي ولد عدنان من قريش وغيرهم ، والرابعة من بني هلال وسليم معاصري ابن خلدون في افريقية والمغرب<sup>(٦)</sup> . وقد استخدم ابن خلدون هذا التقسيم الطبقي للعرب لتنظيم تاريخه : فكتاب العبر « في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم » من ملوك ، بحيث كان العرب على طبقاتهم ، ثم البربر على طبقاتهم<sup>(٧)</sup> ، اطار تنظيم التاريخ . فتاريخ اليهود

---

= البيعوي ملوكهم الى طبقتين فقط ( تاريخ ، ١٥٩/١ وما يليها ) وسلسلة ملوك فارس في الشاهنامه ، التي لا تقسم ملكهم الى طبقات .

(١) كامل ، ٣٢٤/١ وما يليها ، مختصر ، ٦٠/١ .

(٢) تاريخ ، ٢٩/٢ - ٣٠ . انظر للتفاصيل العظيمة ، ابن خلدون ، ٢٦ وما يليها .

(٣) قارن مثلاً ، ابن كثير ، بداية ، ١٢٠/١ - ١٢١ والبلاذري ، انساب ، ٣/١ - ٤ .

(٤) مثلاً ، أبو الفداء ، مختصر ، ٩٩/١ وما يليها .

(٥) ابن خلدون ، تاريخ ، ٨٤/٢ وقارن أبو الفداء ، مختصر ، ١٠٠/١ .

(٦) قسم النسابة العرب عادة الى قحطان ( سبأ وحضرموت ) وعدنان ( ربيعة ومضر ) وقضاة ، دون ارداف تقسيمات زمنية وطبقية على تتاليهم وانسابهم ودولهم - راجع المادة

الغزيرة في ابن كثير ، بداية ، ١٥٦/٢ - ١٥٧ .

(٧) للتفاصيل حول تاريخ البربر ، راجع العظيمة ، ابن خلدون ، ٢٧ ( هامش ) ، ٦٦ - ٨ .

يساق في تضاعيف تاريخ العرب المستعربة ، كما ان تاريخ التتاريساق في تضاعيف تاريخ بني بويه المساق بدوره في تضاعيف تاريخ بني العباس من الطبقة الثالثة للعرب . وبهذا فإن للأمم التابعة تاريخياً للأمم أخرى - ولا نجد هذه التبعية ، كالتبعية للفرس عند الطبري وللعرب عند ابن خلدون ، عند كل المؤلفين<sup>(١)</sup> - نفس التبعية التي لطبقة امة ما بالنسبة لمجمل تاريخ هذه الامة . فأبو هو ملك تلمسان من بني عبد الواد « مذيّل الدولة . . . في الكرّة الثالثة لقومه » زناته<sup>(٢)</sup> ، تماماً كما يرى القلقشندي ان الخلافة على اربع طبقات : مدنيّة وشامية وبغدادية ومصرية<sup>(٣)</sup> ، ولهذا التبعية رديف في تبعية الايوبيين ، مثلاً ، للدولة التركية ( الزنكية ) وكونهم ، مع استقلالهم ، مواليها كما يرى ابن خلدون<sup>(٤)</sup> . فالتبعية في الحالتين - تبعية طبقة من امة للامة ، وتبعية امة لامة أخرى - علاقة اندراج في سلسلة نصبيّة من المفترض انها تحاكي سلسلة زمانية . السبق واللاحق شروط تاريخية السابق اللاحق ، واندراج تاريخ سبأ ضمن اطار التاريخ اليهودي ، وتاريخ اليهود ضمن اطار تاريخ الفرس كما نرى في الطبري ، يعبر عن كون لحظة من تاريخ سبأ تقابل لحظة في اطار زمني سابق عليها - وهو سياقة مدة حكم سليمان ، الحكم الوارد بدوره كلحظة في سياقة الزمان كما يقطعه تسلسل ملوك الفرس . ولعل انعدام الانضباط الزمني والتسلسلي هو ما يجعل من تاريخ الهند والصين ، مثلاً ، يبدو وكأنه مجموعة من الحكايات حول مواضيع مختلفة ، كالآراء الفلسفية والدينية والتنظيمات الاجتماعية ، بالاضافة الى اخبار البعض من ملوكهم وحروبهم<sup>(٥)</sup> ، مما يرجع

(١) جل المؤرخين يورد تواريخ الامم بتتالي نصي بحث ، كالمسعودي مثلاً .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ١٢٢ / ٧ - ١٢٣ .

(٣) خلافة .

(٤) تعريف ، ٢٧٩ .

(٥) انظر حول الهند ، مثلاً ، اليعقوبي ، تاريخ ، ٨٤ / ١ وما يليها والمسعودي ، مروج ، ١٥٢ / ١ وما يليها ، وحول الصين اليعقوبي ، تاريخ ، ٨٠ / ١ وما يليها ، . والمسعودي ، مروج ، ٣١١ / ١ وما يليها - وفي بداية نص المسعودي حول الصين شيء من التسلسل التاريخي الحق .

التاريخ الى مكانه الادبي الاصلي وينفي عنه الصفة التاريخية .

لا يعبر الاندراج هذا عن اضافة ، بل عن الحاق محض لا محتوى ضروري له . الا ان الالحاق هذا هو ما يضيفي التاريخية على التابع ، والأمة - الاصل بحد ذاتها تابع ، اذ هي ليست الا حاصل جمع وحداتها الفردية ، ولا سابق بشكل مطلق الا نقطة الصفر الزمانية التي تؤخذ بدءا للتقويم والتاريخ . وهذه النقطة نقطة صفر بكل معنى ممكن من المعاني ، فهي تتفق مع بداية شيء - حكم ملك في العادة - استمراريته هي ما يكون التاريخية وما يعين تاريخية الاشياء الاخرى ، والاستمرارية ، كما رأينا استمرارية في الزمان والاستمرارية لا تزيد عن كونها عبارة عن الزمان المجرد الذي اقتطعت منه مقاطع اطلقت عليها اسماء علم .

## الفصل الثالث

# زَمَانُ الْأَرْضِ وَتَارِيخُ السَّمَاءِ

يتكلم ابن خلدون عن الأحوال التي تتبدل جملة، «فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»<sup>(١)</sup> ذلك الانقلاب في شؤون العالم الذي يبرّر كتابة المقدمة التي اعتمدها مؤلفها وصفاً عاماً لأحوال عصره ، كما كانت كتابات المسعودي والبكري لعصرهما<sup>(٢)</sup> . في التاريخ تبدل ، اذن ، يستدعي كتابة رسائل تتوالى في عصورها في وصف الأحوال العامة للأفانق والأعصار والناس ، حتى يتسنى لها بناء أداة قياسية لتمحيص الأخبار بعرضها على أصولها في واقعها ، والنظر في مواءمتها هذا الواقع أو امتناعها بناء على هذا الواقع<sup>(٣)</sup> . بيد أن هذا التبدل الذي يشير إليه ابن خلدون لا يتعدى مجال التبدل الصرف الى أي مجال آخر ، فهو تحول وانتقال من حال الى حال دون الإشارة الى علاقة الحال الأول بالثاني ، أو حتى الامتاع الى ضرورة وجود علاقة كهذه ، بل هو يقتصر على التسجيل .

التبدل هذا تبدل في الأحوال العامة - الأيكولوجية والاقتصادية والسياسية وغيرها - التي تسم عصرها الى مجموعة جديدة في الأحوال التي تسم عصر آخر ، وهو استبدال سمات خاضعة للوصف بسمات أخرى ، هي بدورها خاضعة للوصف الذي من المفترض ان تضطلع به المقدمة . الوصف ليس تحليلاً ، ولا هو قراءة لعلاقة وصف عصر بعصر يسبقه ، انه تسجيل للاختلاف ، تسجيل يجعل من موضوعه ( كالتسجيل السابق ، سجل المسعودي والبكري ) ، أشياء توصف ، وتسجل . فالتبدل ، حتى التبدل الأقصى المفضي الى التباين الذي

---

(١) مقدمة ، ٥٢ / ١ .

(٢) المصدر السابق ، ٥٢ - ٥٣ .

(٣) في امكانية هذا المشروع الخلدوني أو امتناعه ، أنظر كتابنا ابن خلدون ، ١٨٣ وما يليها .

يشكل « خلقاً جديداً ونشأة مستأنفة » هو مجرد استبدال حال لحال وتسجيل لهذا الاستبدال . فليس في التحول عملية انتقال ذات معقولية خاصة بها ، بل لكل حال معقوليته الخاصة به ، تلك المعقولية الناجمة عن سياسته : ذلك أن « السبب الشايع في تبدل الأحوال والعوايد ان عوايد كل جيل تابعة لعوايد سلطانه » ، حيث تختلف أحوال الدولة عن الدولة السابقة وتتراكم الاختلافات حتى يضحى مجموعها تبايناً<sup>(١)</sup> .

فاختلاف الأجيال في أحوالها ، اذن ، نتيجة لتتابع الدول المختلفة التي ترعى تحيّل الأجيال الجديدة ، فالناس على دين ملوكهم . التحول والتغير في التاريخ تابع لذلك العنصر الذي يجعل من التاريخ تاريخاً ومن الأشياء أشياء : ذلك هو الملك . والمغايرة في أطباع ومذاهب الملوك هي ما تجعل من الأجيال أجيالاً متغايرة ، وما يصدق عن المسلمين في أنهم « في كل عصر تبع للخليفة يسلكون سبيله ويذهبون مذهبه ، ويعملون على قدر ما يرون منه ، ولا يخرجون عن أخلاقه وأقواله »<sup>(٢)</sup> . لا شك يصدق على غيرهم . فمشاكلة الناس لزمانهم التزام بأخلاق وأفعال ملوكهم : فقد لبس الناس لباس المعتصم<sup>(٣)</sup> ، كما أن أصل ذلك التغير الكبير الذي بموجبه قدم الملوك مواليتهم وغلمايتهم على أقربائهم هو قيام المنصور بذلك<sup>(٤)</sup> .

ليس التغير من فعل الزمان ، اذن ، بل التغير مصاحب للزمان ، يحدث عندما يحدثه احدهم بصورة لا تجد معقوليتها في الزمان أو توالي الأمور ، بل بصورة لامعقولية لها الاحدثيتها<sup>(٥)</sup> . الزمان انسياب اخرس لا يفصح عن تحول ، بل ان هذا التحول يفصح عن نفسه بموازاة الزمان وبالتزامن مع واحدة

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ٤٥/١ .

(٢) يعقوبي ، مشاكلة ، ٩ .

(٣) المصدر السابق ، ٣١ - ٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، ٢٣ .

(٥) قارن نقاش العروي (١٩٧٣) ٥٢ لموضوع مشابه ، ولو كان ينطلق من اشكالية وجود أو

لاوجود « الموضوعية » .



في لحظاته ، دون أن تخرج العلاقة عن طور الاتفاق ودون أن تلم الزمانية بالتاريخية<sup>(١)</sup> ، وحتى دون أن يكون للزمانية اي معنى يزيد على التعيين الصرف للوقت ، على التأريخ المحض .

يجد التغيير سجله في خواء التتابع هذا ، الخواء الذي يجد عباراته في التالي الأصم للدول والملوك ، كما يجد هذه العبارات في السجل الذي ينزل فيه تتابع أدوار كل حادثة وتتابع الحوادث . فعلاقة السبق ، كما رأينا ، تنزل منزل العلية ، كما ان الأصل الحديثي لشيء ما هو ما يؤخذ على أنه علة له . وتتابع الأمور في التاريخ على ضربين : ذلك الذي تتابع فيه متعلقات موضوع واحد ، أكان هذا الموضوع سنة أم طبقة زمانية أم ملك أم دولة ، وذلك الذي لا يرتبط بالتأريخ رباطاً ضرورياً بل بالسبق واللاحق المطلق ، وهو ذلك التتابع الذي تعاد فيه ممارسة شيء مورس لمدة أولى في ممارسة تأسيسية هي سبب هذه الممارسة . في هذين الضربين من التالي ينحصر مفهوم العلية في الكتابة التاريخية العربية .

رأينا كيف ان هذه الضربين في أصلهما هما الوحيدان الممكنان استناداً الى أسس السرد التاريخي التي درسناها في الفصل الثاني أعلاه . هناك على العموم تماثلاً بين الحادثة موضع النظر العلي وسرد هذه الحادثة ، بحيث لا تنفصل الأولى عن حدثية الثانية ولا تستقبل بمجال مقالي خاص بها ، اذ ان وصف الشيء وتفسير هذا الشيء أمر واحد . من هنا ، مثلاً ، كون سبب ملك المعز لمصر هروب العساكر الأخشيديّة امام جوهر الصقلي<sup>(٢)</sup> . من نفس الباب مساواة مقدمة الحدث المباشرة بتفسيره عند جعل مسيرة عبد الرحمن الداخل الى الأندلس حدث يتخذ من قصة مسيرة عبد الرحمن الى الأندلس سبباً له<sup>(٣)</sup> . وليس من الضروري أن يتصل السبب بالحدث بهذا الرباط الحديثي المباشر . فلم يكن

---

(١) قارن نقاش شرارة ، « المثقفون » ، ٢٢ لفهم الجبرتي لتفوق الغرب على اساس يفصل المفاضلة عن التاريخ .

(٢) ابن الأثير ، كامل ، ٥٩٠/٨ .

(٣) مسعودي ، تنبيه ، ٣٢٩ .

سبب غزو الحبشة اليمن من باب السياسة ، بل ذهاب أحد مسيحي اليمن لقيصر القسطنطينية واخباره اياه عن اضطهاد ذي نواس اليهودي لمسيحي اليمن<sup>(١)</sup> . وبالإضافة الى هذه الأبواب الحديثة لليلة المحايثة للحادثة والمصنوعة من عين المادة الخبرية ، هناك تفسير الأمور بالرجوع الى حادثة مستقلة عن الحادثة - النتيجة ، ولكنها مفضية لها : تلك ، مثلاً ، هي حادثة قتل جديس لعمليق ، كبير طسم ، ومجموع قبيله ، لأن عمليقاً هذا أصر على حق الليلة الأولى من عريفة بنت عفار كبير جديس ، عريفة التي خرجت بعد فعلة عمليق « رافعة ثوبها » ، مما أدى الى ثورة جديس<sup>(٢)</sup> . وهناك ، أخيراً تلك العلية المضمرة في حروف اللغة والتي تلعب الدور الأكبر في توجيه السرد التاريخي : تلك هي العلية الخفية المستندة الى وضع « ثم » و « حتى » و « بعد ذلك » وما شابهها بين الحوادث أو في قلب الحادثة الواحدة<sup>(٣)</sup> ، والتأكيد بهذه الصورة على أن التفسير الوحيد للحادثة ، في ارتباطها بسوابقها في الحوادث وفي الأدوار والفصول التأسيسية لها ، هو حدوثها في التالي المعطى . ولا يخرج التحليل الخلدوني لظهور الدولة الموحدية مثلاً ، والقائم على استدعاء مفهوم العصبية ، عن هذا النمط<sup>(٤)</sup> . فنحن نرى تفسير تسنم عبد المؤمن سدة الخلافة على الرغم من انتمائه لقبيلة كومية ( وليس من مصمودة التي ينتمي اليها ابن تومرت وبني حفص الذين استقلوا في النهاية ، منبهين بذلك الدولة الموحدية ) لا يخرج عن سجل لهذا الأمر وسجل خلفائه من ذريته ، ولو أن هذا يتناقض مع متطلبات العصبية المصمودية . فالعصبية هنا مرادفة للدولة وللسلطة ، ولا تفسير لسلطان دولة بني عبد المؤمن غير وجودها ، ولو استدعى ذلك من ابن خلدون تقديم الأمر للقارئ وكأنه كان خدعة لسوء التاريخ شارك فيها بنو حفص .

(١) ابن الأثير ، كامل ، ٤٣١/١ .

(٢) دينواري ، اخبار ، ١٧ - ١٨ .

(٣) قارن استقصاء (1974) NOTH ص ١٥٥ وما يليها لهذه الرباطات بين الحوادث .

(٤) تاريخ ، ٦/٥٦٠ - ٥٦١ ، ٥٧٦ ، وقارن AL-AZMEH (1981) ص ١٧٣ والهامش رقم . ١١١

أما العلية المتضمنة في حوادث تفصل عن تلك التي تقوم بتعليلها فهي لا تختلف في مضمونها عن العلية المحيثة للحادثة أو المتضمنة في ذاتها . فليس في التاريخ العربي حوادث تفسر حوادث منفصلة عنها الا اذا كانت هذه الأولى ترجع إلى حيز ليس فيه شيء من الواقعية العلية ومن الإيهام بالواقع : فهذه العناصر العلية تشتمل على العلاقات الدالة على حدوث شيء ، من أقوال ووعود ونبوءات ورؤى . فها هو ابن خلدون يُجمل تراثاً تاريخياً متواتراً بقوله ان « مبدأ دولة الشيعة » في بني العباس قول أهل البيت أن الخلافة تؤول لهم ، ثم يردف تسبيحاً حديثاً لانهيار بني أمية بتاريخ للدعوة العباسية<sup>(١)</sup> . ونرى أبا الفرج محمد بن أبي يعقوب النديم بدوره يبين لنا ان سبب كثرة كتب الفلسفة والعلوم القديمة في الملة الاسلامية يرجع الى حلم للمأمون تراءى له فيه أرسطو<sup>(٢)</sup> . ولا يختلف عن هذا ارجاع تملك اردشير بن بهمن فارس الى احساسه بالقوة والبطش بعد أن رأى ملاكاً في حلم بشره بأنه سيملك البلاد - وهذا بعد ان قال العرافون بذلك<sup>(٣)</sup> - ذاك النمط في تعليل الملك الأيل لسليل فقر ( جديد أو قديم ) الذي نراه أيضاً في « ابتداء امر بني بويه » ، حيث يستولي عماد الدولة وركن الدولة ومعرّ الدولة على العقد والوصل بعد أن ييشر منجم ابيهم بذلك عندما يعبر رؤيا له<sup>(٤)</sup> ، وحيث لا نرى من رباط بين الرؤيا وتحقيقها الا حدوث هذا التحقق . أما التعليل استناداً الى أحوال عامة ، كتعليل ابن الخطيب لكثرة الشوارب في الأندلس أيام الأمويين في منعة البلاد وكثرة المعازل « وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين » ، اضافة الى « علو المهمل وشمخ الأنوف . . . . اذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة اشرافاً » يأنف بعضهم من الأذعان لبعض<sup>(٥)</sup> ، وكترجيح الأخبار استناداً الى امور عامة - فإن هذا النمط في التعليل ليس من

(١) تاريخ ، ٣/٣٦٤ وما يليها .

(٢) فهرست ، ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٣) طبري ، تاريخ ، ١/٨١٤ وما يليها .

(٤) ابن الأثير ، كامل ١١/١٧٣ - ١٧٤ .

(٥) أعمال الأعلام ، ٣٦ .

باب تعليل الأحداث العينية بل هو تفسير لوضع باقي ، اذ هو عرض لوضع عام لا يدخل في مجال التاريخية . فهو يقدم شروطاً لاستمرار وليس اسباباً للحوادث . في جميع الأحوال التي ذكرناها ليس الزمان الا لوح تسجل فيه الأشياء بترتيب مكاني - أي تتابع نصي بحث ، دون أن يكون للتالي المعبر عنه بلغة الزمان اي فحوى يربط سابقاً بلاحق برباط يعلو على الاتفاق المحض . اتفاق الترتيب المكاني المعبر عنه بعناصر الزمان . ولعل من هذا الباب أعمال التأسيس التي نراها في الكتابة التاريخية العربية . فأعمال التأسيس هذه - تأسيس دول ، تأسيس ملك ، تأسيس عادات - هي بدايات لأشياء مستمرة ، هي للأشياء بمثابة السبب الأول الموازي للفعل الأول . وللعمل التأسيسي ذاته صفة الحادثة ذات الخصائص التي تكلمنا عنها مطولاً أعلاه : فسبب المجوسية تأسيس لهذا الدين من قبل حدث ، اذ يقال ان اردشير بن بهمن رأى شيطاناً وسأله أن يعلمه علماً نافعاً ، فأفاده بأن عليه بنكاح امه « ففعل وصار دين المجوسية »<sup>(١)</sup> .

أوائل الأشياء - وفي الأدب العربي جنس متميز هو «الأوائل»<sup>(٢)</sup> - أسسها هي حدوثها للمرة الأولى ، وهي بذلك عللها ، كما أن علّة استعمال الناس لمواليهم ، كما رأينا في مطلع هذا الفصل ، استعمال المنصور لهم ، فالعلية في الواقع علّة اسمية ، تقوم على الاقتداء والاتباع ، ولا تتصل بالمحككات وباعتبار الضرورات والأسباب والموجبات . هي بهذا علّة اصطناعية ، مفتعلة ، تطلق نفسها اسماً على مستوى ليس منها ، بل من باب تسجيل علاقة تتابع محض يكون الاطراد فيه أمراً يرجع للخبر وليس للنظر ، فتسجيل اوائل الأشياء ينطلق من حاضر ما هو موضع اثبات الأصل . ليس الأصل ، الحدث الأول ، شيئاً ذا معقولية بذاته ، وهو لا يكتفي بأسبابه ، بل هو موجه ، مقالياً ، نحو نقطة

(١) مسعودي ، أخبار ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) يبدو أن الجنس الأدبي هذا يرجع الى القرن الأول الهجري ، مع أبي عرويه الحسين بن محمد الحراني المتوفى عام ١١٠ ، راجع مقدمة أبي هلال ، أوائل ص ١٣ . نجد هذا الجنس الأدبي في حضارات كثيرة ، وازدهر في الصين في القرن الثالث قبل الميلاد : أنظر NEEDHAM (1968) ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

الانطلاق المستقبلية والتي تأخذ من نقطة النهاية وموضع الوصول دالة على وضع طبيعي للأشياء : فليس الماضي هو ما يتواصل مع الحاضر بكونه أصله وعلته ، بل أن الحاضر هو ما يمتدّ نفسه في سجل الماضي المستمر. فكون داوود أول من صنع الدروع<sup>(١)</sup> ، وكون طهمورث أول من اتخذ زينة الملك من خيل وبغال وحمر<sup>(٢)</sup> ، وكذلك الأمر كون إبراهيم أول من اختن<sup>(٣)</sup> وأمرؤ القيس الثاني أول من عذب بالنار<sup>(٤)</sup> وعقلون ملك مؤاب أول من طبع السيوف ذوات الحدين<sup>(٥)</sup> والاسكندر ذا القرنين أول من صافح<sup>(٦)</sup> ، وهاجر أول من ثقت أذنيها واختنت من النساء ( اذ غارت منها سارة وأقسمت ان تقطع ثلاثة من أعضائها )<sup>(٧)</sup> - أن كون هذه الحوادث أوائل يعني أنها أفعال تأسيس ، ولكنها ليست كذلك بما هي حوادث أول في سلسلة مستمرة بل تؤسس ذلك الحاصل في الحاضر من ختان وعذاب بالنار وسيوف ذوات حدين وغيرها بما هي أوضاع طبيعية ، فأن تسجيل الماضي هو أيضاً إدراج له في الحاضر. إنه ليس ارجاعاً سببياً للحاضر الى الماضي بل هو الحاق للماضي بالحاضر من حيث هو تسجيل لحدث أهميته في طرافته المعبر عنها بأوليته ، وكأن الماضي حاضر مستمر . هو تسجيل ادبي محض ، اذن ، وعلاقة الأصل بما حدث بعده علاقة اتفاق ، اذ ليس من علاقة بينهما الا الاستنساخ والحدث ، وليس ثمة تعيين - وبالتالي أهمية ودلالة على الرباط - لوقت اللاحق في علاقته بالأول ، بل ان اللاحق يحدث في كل وقت ، جاعلاً من العلاقة خالية من أي بعد زمني ما خلا السبق<sup>(٨)</sup> فنحن ان استقرأنا

(١) ابن الأثير ، كامل ، ٢٢٣/١ .

(٢) المصدر السابق ، ٦١/١ .

(٣) ابو الفداء ، مختصر ، ١٤/١ .

(٤) المصدر السابق ، ٧٠/١ .

(٥) يعقوبي ، تاريخ ، ٤٧/١ .

(٦) ابن كثير ، بداية ، ١٠٩/٢ .

(٧) المصدر السابق ، ١٥٤/١ .

(٨) قارن الوضع في التأريخ القديم استناداً على دراسة فيلولوجية لمعاني المفردات الدالة على الماضي في Curtius (1953) ٢٥٢ - ٢٥٣ .

كتب التاريخ لن نستطيع أن نجد تسلسلاً معقولاً للأوائل ولا رباطاً فيما بين مجموعاتهما ، ما عدا أوائل الأوائل التي تشتمل على ما تعلمه آدم ( اللغة والفاعليات الاقتصادية الأساسية والعقائد الأساسية ) وما ابتدأ به ملوك الفرس من تنظيمات للسياسة . في كلتا الحالتين ، ليس للتوقيت معنى ، فالعنى هو الأولية المحضة التي تسم حاضراً مستمراً ، وليس تعيين البداية الا استجابة لمتطلب معرفي نأمل البحث فيه في دراسة قادمة ، ومفاده ان الأمور تفسر بارجاعها الى أصل وان هذا الأصل واحد لا محالة - نجد تعبيراً جيداً عن ذلك في ملاحظة ابن بطوطة أن ترتيبات ملوك اليمن والهند في الطعام متشابهة « فلا أعلم ان سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن ام سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند »<sup>(١)</sup>، وكان وجود أكثر من أصل واحد لمتشابهين يستعصي ليس فقط على الفهم بل على الادراك عينه .

لا شك ان جزء من الأوائل فحوى ، ولكنه فحوى خارج عن التاريخ ويصب في مجال دراسة الطقوس المعروفة في الأنثولوجيا ، كالأساطير التي تفسر البعض من مناسك الحج كالطواف والسعي والرجم بأنها أفعال أوائلها ما فعل ابراهيم وهاجر وآدم مثلاً<sup>(٢)</sup> ، ثم هناك جزء أكثر أهمية والتصاقاً بالتاريخ، جزء يتضمن أساطير هي بمثابة تاريخ نموذجي<sup>(٣)</sup> يسجل أوائل أحداث تتردد وتستنسخ لاحقاً في سجل أحداث ذات مغزى ما فوق - تاريخي سندرسه بتفصيل أكبر لاحقاً في هذا الفصل : في هذا الباب تماثل عدد أهل بدر مع عدد بني اسرائيل الذين واجهوا جالوت<sup>(٤)</sup> ، وتماثل الكثير مما حدث للأنبياء مع ما حدث للبعض من أركان الشيعة<sup>(٥)</sup> ، وما حدث يوم الجمعة من خلق آدم وموته وقيام

(١) رحلة ، ٢٤٣ .

(٢) انظر يعقوبي، تاريخ ٦/١ ، ٢٧ وابن الأثير كامل ، ١٠٣ - ١٠٧ ، وابن كثير ، بداية ١٥٥/١ .

(٣) راجع (1949) ELIADE ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٤) ابن الأثير ، كامل ، ٢١٩/١ .

(٥) راجع (1980) KOHLBERG وقارن (1968) CHRARA . ٥ - ٦ .

الساعة<sup>(١)</sup> وكون النصارى ، حسب المسعودي ، يرون ان اليوم الذي صلب فيه المسيح هو نفس اليوم الذي اهبط فيه آدم من الجنة ومات فيه<sup>(٢)</sup> . ولكن اعادة هذه طقسياً او دون طقس ، لا تختلف في زمانيتها عن النموذج الذي ناقشناه لتونا والذي ليس الزمان فيه الا مسافة فاصلة دون تعيين مقدارها أو أثرها . فالحوادث المتماثلة تتابع دون رابط فيما بينها ، او بين أي منها وأصلها الأول - أي دون وتيرة تشير الى الانتظام المقضي الى المعنى . فتتابعها ، كتتابع الحوادث وادوار الحادثة الواحدة ، تتابع اردافي محض ، تتابع أصمّ هو أشبه بالتتابع العبثي للفصول والاجرام السماوية ، مما يكون الزمان المحض الخالي من الزمانية .

أفعال التأسيس تعنون الأشياء بأصولها ، اذن ، دون أن تفضي الى الأشياء . هذه بأي معنى فعلي . والبحث عن الأصول الأسمية للأشياء هو اسّ تاريخ العالم والتواريخ التفصيلية للشعوب . ان التاريخ ، كما رأينا ، وصل المفردات بأسمائها من الأسماء وتوزيع احداث الماضي على مواضع مكانية في السرد تتخذ لها عناوين زمانية ودولية (من دولة) . فبالمعنى التأسيسي هذا تكون الدولة ومتعلقاتها من الأحداث دولة حفصية أو أموية أو برمكية مثلاً ، أو دولة معاوية ودولة عبد المؤمن ودولة أوشهنج ونيرون وقسطنطين واخرى . فحوادث التاريخ ترجع لمراجع تنظيمية هي ، كما رأينا ، الدول والفترات الزمنية من سنة وطبقة . وكما ترجع الحوادث الى أصولها هذه ، ترجع هذه الأصول بدورها الى أصول هي شجرة أنساب الشعوب التي تستنسخ في بنيتها الهرمية رجوع الحوادث المفردة الى دول فردية ثم كليات ، والى تاريخ معين يرجع بدوره الى نقطة بدء التاريخ التي هي بداية التقويم الذي ينظم الحوادث .

فالشعوب سميت شعوباً لأنها شعب تفرقت عن أصل واحد<sup>(٣)</sup> . فقد

(١) ابن كثير ، نهاية ، ١ / ٢٨ .

(٢) تبيين ، ١٢٥ .

(٣) حمداني ، عجلة ، ٧ .

اجتمع الناس بعد الطوفان في موقع واحد هو أرض بابل ثم تفرقوا<sup>(١)</sup> - وقسم لهم الأرض فالغ بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، فصار لولد يافث الصين والهند والسند والترك والخزر والسديلم ، ولولد حام المغرب وما وراء الفرات « الى مسقط الشمس » ، ولولد سام الحجاز واليمن وسائر الأرض<sup>(٢)</sup> . أو ، في رأي آخر ، صار لولد سام وسط العالم وفيه جزيرة العرب ، ولأولاد حام بعض الشام ومصر الى أعالي النيل وبلاد النوبة والسودان والحبشة والهند والسند ، ولذرية يافث بلاد الفرنجة وآجوج ومأجوج والصقالبة والروم والصين<sup>(٣)</sup> . البلبلة تفرق الناس بعد الى سبع أمم من ذرية سام وحام ويافث : الفرس والقبط والصين والهند والترك والروم والكلدان ( ومن هؤلاء العرب واليهود ) ، مع الاختلاف في العدد والتسمية<sup>(٤)</sup> . وتماماً كما ترجع أجذام الشعوب الى هذا الأصل - ويجب الا ننسى أن ابن خلدون يفتح الكتابين الثاني والثالث من كتاب العبر اللذين يليان المقدمة بنقاش لأنساب امم الأرض - ترجع القبائل والأمم الى هذه الشعوب - الأصول . فالذي يفسر وجود اي امة من الأمم في مواضعها هو تفرقها عن الشعب - الأم . وللهيثم بن عدي رسالة في « هبوط آدم وافتراق العرب ونزولها منازلها » كما لهشام بن محمد الكلبي نسبة العرب « كتاب افتراق ولد معد » و« كتاب افتراق ولد نزار » وغيرها<sup>(٥)</sup> ، تماماً كما ان تجميع ولد اسماعيل جاء نتيجة لافتراقهم طلباً « السعة في البلاد »<sup>(٦)</sup> ، وكما فعل نسطر طاس بن باعور بن مداج بن عامور بن يافث بن نوح ، أول

(١) مسعودي ، تنبيه ، ١٠٤ .

(٢) يعقوبي ، تاريخ ، ٢٠/١ .

(٣) مسعودي ، اخبار ، ١٠٦ - ١٠٧ ، ومروج ، ٣١١/١ وما يليها وقارن ابن الاثير ، كامل ، ٧٨/١ وما يليها والنديم ، فهرست ، ١٥ .

(٤) أنظر المسعودي ، تنبيه ، ٧٧ - ٧٩ ، وابن العبري ، تاريخ ، ٣ والأصفهاني تاريخ ، ٦ وأبو الفداء ، مختصر ، ١٠/١ - ١١ . وقارن التوحيد ، امتاع ، ١١٣/١ .

(٥) النديم ، فهرست ، ١١٢ ، ١٠٩ .

(٦) يعقوبي ، تاريخ ، ٢٢٣/١ .



ملوك الصين ، حين « فرّق اهله في تلك الديار وشقق الأنهار وقتل السباع وغرس الأشجار وطعم الثمار » (١) .

الرد الى الأصل تحديد له من طرف نتيجة لاحقة : ليس الأصل بالشأن المستقل الذي يؤدي الى النتيجة المعلومة لسبب معلوم - أي لاتباعه وتيرة وآلية لها تلك الضرورة التي لنا علم بها - بل هو امانة توحيد في بوتقتها وتحت اسمها مجموعة من الأشياء التي جاءت بعدها ، فاننا اذا نظرنا لمسيرة الأشياء منذ البداية حتى النتيجة عوضاً عن المسير في الاتجاه العكسي ، لرأينا ان الأمور تحدث وكأنها من طبيعة الأشياء الخفية، وكان في النسب والشعب الذي يحمل اسم مبني على هذه النسب قوة حيوية دافعة توصله بشكل يديهي الى حاضره ، كما نرى بوضوح في كلام المسعودي حول تفرق العرب في الاقتباس التالي حيث شدّدنا على روابط العلية والعبور بين السابق واللاحق في النصّ : « فسلك قحطان وعاد وثمود وعملاق وطسم وجديس طريقاً ، والهمهم الله اللسان العربي ، فساقنهم الأقدار الى اليمن فسارت عاد الى الأحقاف ونزل ثمودناحية الحجر ونزل جديس اليمامة ، ثم شخص طسم فنزل اليمامة مع جديس ، ثم شخص عملاق فنزل أرض الحرم ، وسار ضخم [ كذا ] ارم فنزل الطائف وسار جرهم فنزل مكة » (٢) . ولكن كون روابط التسلسل غير خاضعة لافصاح عن بنى داخلية وترابطات ضرورية ، نرى ان الرابط الوحيد والمحك التفسيري الأوحد هو الرباط مع الأصل في وضعيته المعطاة سابقاً على ايجاد التسلسل وسرده . وهذه الوضعية ترجع لبنية الحاضر الذي يسلسل له ماضي يربطه بأصل يسميه ، تماماً كما يرجع حدث في حاضر الى سنة مبيّنة على أصل زماني هو بداية التقويم المستخدم ، وكما يرجع هذا الحدث الى كونه حصل في فترة محددها في أصلها وبدايتها تملك ملك أو قيام دولة .

يتشكّل تاريخ العالم ، اذن ، من سلاسل متوازية في الأصول الأوائل وما

---

(١) مسعودي ، مروج ، ٣١٦/١ .

(٢) مسعودي ، أخبار ، ١٠٤ .

يرجع إليها ، تتكون كل منها من حلقات متتابعة من الدول التي تبتدىء بأصل يعطيها اسماً ، ثم تنتهي بعد مسار زمني معلوم ( أو ليس معلوماً بدقة ) لىبتدىء بعدها أصل آخر يعطي اسمه ، بصفته حدوثاً أول ، لسلسلة متتابعة من الملوك الذين يتشكل تتابعهم على نفس النسق الذي به تتشكل سلسلة الدول التي تقاسم التاريخ . فاقطاع أصل أول ، هو اسم ملك أو بداية تقويم ، لحيز زمني معين تتبع حوادثه اسم هذا الأصل ، هو بنية التاريخ المتشكلة من تتالي سلاسل من الأحداث المعرفة بالرجوع الى اصولها والمسماة عليها . بهذا الشكل « تنتقل الدولة » من اسم الى اسم آخر وتتالى طبقات الأمة الواحدة على الدولة تتداولها تداولاً دون أن يكون لهذا الانتقال محتوى يضاف على الانتقال الأسمي ، كما رأينا في الفصل الثاني أعلاه .

انتقال الدولة وتتالي الدول والملوك ، كتتالي الحوادث وتتالي الفصول الحادثة الواحدة ، يماثل في بناء التتالي القائم بين حادثة وأصلها في حدوثها الأول ، فهو تتالي وحدات صماء ، مغلقة تجاه بعضها البعض ، موندية الجوهر ، يحكم تتاليها بالتتالي زمانية ميكانيكية كونية قائمة على التتالي الأعمى للشمس والقمر - ومن هذا التتالي حصراً مفهوم الزمان عند أصحاب التاريخ<sup>(١)</sup> - تتوازي مع عليّة غائبة إلا بالتتالي ووضعية هذا التتالي . هذا الزمان ، اذن ، زمان وتيرته خارجة عن وتيرة العالم ومتعالية عليها ، اذ هي ترجع لقانون السماء المثرية . ولكن كون هذه الوتيرة هي تلك التي تتنظم شؤون العالم بموجبها ، كان لا بد من ان تخرج معها خصائص تفرضها السماء على شؤون الأرض . فان عبثة التتالي وعدم الانتظام في أي اطار خلا تتابع الشمس والقمر ، وتوازي هذا مع غياب عليّة ارضية لتتالي الأشياء ، جعل هذا التتالي متوافقاً مع ضرورات وفروض التتالي الكوني ، « اذ المطابقة بين حكم الأثر النجمي وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه » عند ابن خلدون<sup>(٢)</sup> كما هو عند غيره . من هنا كتب التاريخ العديدة

(١) طبري ، تاريخ ، ١/٥ واصفهانى ، تاريخ ، ٦-٧ .

(٢) مقدمة ، ٢٤٦/٢ .

التي وضعها المنجمون والتي تنسق ما بين التواريخ والقرانات وعظائم الأمور<sup>(١)</sup>. فالقرانات الكبرى بين المشتري وزحل والحادثة كل ٩٦٠ سنة تعني تغيير الملل والدولة وانتقال الملة من قوم الى قوم ، أما القران الأكبر والحادث كل ٢٤٠ سنة ، فهو دال على ظهور المتغلبين والطالين للملك ، بينما يدل القران الصغير والحاصل كل ٢٠ سنة على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن وعمرانها - كما توجد قرانات متوسطة عديدة<sup>(٢)</sup>. وفي نقطة تلاقي المعنى الكوني للزمان مع الفحوى الكوني لانتقال الدول يتركز تعليق المنجمين على خلافة المطيع التي امتدت الى ثلاثين عاماً عندما رأى منجمو الأمة ان لا أحد من ملوكها يملك اكثر من ٢٤ سنة : « فذلك لأجل ان عندهم ان الدولة والملك قد انتقل [كذا] في آخر ايام المتقي وأول ايام المستكفي من آل العباس الى آل بويه والذي بقي في ايدي العباسية انما هو امر ديني اعتقادي » ، الأمر الذي كان قد تنبأ به كنهله الهندي منجم الرشيد<sup>(٣)</sup>.

ليس من شك ان في هذا الأمر افصاحاً عن اصول التاريخ وشكله البسيط في سجلات الملوك البابلية والقائمة على توافق التواريخ والنجوم . ولكن ، بغض النظر عن السببية التي من حق البعض ان يراها في توافق حوادث الأرض ووتائر السماء ، من حق البعض الآخر ان يرى ، في نفس الوقت ، اثراً للنجوم لا يتعدى التنظيم والتبويب للحوادث ، ذلك التبويب الذي يقوم به الزمان الخاوي الذي ينظم التاريخ والذي يتوافق خواؤه مع صدوره عن وتائر خارج التاريخ . فوتيرة النجوم نظامية ، وبهذا المعنى هي تنظم شؤون البشر وتصلح وعاء لتسجيل هذه الشؤون ، وهي حوادث الماضي ، تسجيلاً منتظماً هو التأريخ . فهي تقدم وتيرة منتظمة ومجردة تقطع مسيرة الأمور الى اجزاء طيبة للتنظيم ،

(١) انظر اللائحة في الفهرست للنديم، ص ٣٣٢ - ٣٣٦، ونص ما شاء الله في KENNEDY AND PINGREE (1971). حول دور التنجيم في الحياة العامة، راجع كتابنا ابن خلدون، حاشية على ٤٥.

(٢) ابن خلدون، مقدمة، ١٨٧/٢.

(٣) بيروني، آثار، ١٣٢.

فتقدم هذه الصيرورة المتقطعة<sup>(١)</sup> بشكل يتوافق مع انعدام الرباط العلي بينها .  
 فيكون حدوث الحوادث من معارك وقيام دول وزوال ملل القوام الوحيد لهذا  
 الحدوث ، بحيث يكون حدوث الحادثة السبب الكافي الذي لها في طوطولوجيا  
 وضعية تساوي بين الحدوث والتسبب ، وبحيث انه لو ازيلت هذه اللحمة -  
 التالي الزمني - التي يتخذ منها السرد التاريخي نموذجاً ، في ايهاهه بالواقعية ،  
 لتناثرت الأخبار والأحداث ولغدا الماضي معيناً من الحوادث المنعزلة التي لا سبيل  
 الى ضبطها .

الانتقال في مجرى التاريخ ، اذن ، سجل لتتابع اشياء قد تكون متماثلة  
 لبعضها البعض ، كتلك التي لها أوائل ، أو فريدة يكون تلوها لما سبقها بنيتها  
 الوحيدة والحصرية . فتشعب الشعوب وتحيّل الأجيال وصدور بني هاشم عن  
 قريش وقريش عن مضر مثلاً ، كتالي الملوك في دولة ما والحوادث تبعاً لتقويم  
 ما - كل هذه تشكل بنى تسلسلية يحصر التسلسل محتواها حصراً « صارماً » في  
 اطار كتابة التاريخ . كون هذه الحادثة تعود لأصل زمني هو نقطة بدء تقويم  
 تاريخها ، أو الملك الفرد الى أصل هو الدولة ، وذلك كعودة بطن الى شعب سبق  
 له وان كان وحدة فترق وتناثر في وحدات مشاهدة - ليس لكل عمليات الرد الى  
 اصل هذه بنى تجعل من صلة اصلها بلواحق الأصل علاقة اكثر من اسمية .  
 فليس الأصل بخالق ، بل هو عنصر تنظيم ، وليس وجوده من شروط وجود  
 اللاحق ، وليس الزمان الذي يربط ما بين الأصل ولواحق هذا الأصل بعنصر  
 يفرض الزمانية الحقّة علي علاقة الأصل باللواحق ، من تحول وتغير بنيتها  
 الأصلية . بل اننا نرى انسياً صرفاً للأشياء وتالياً عشياً لها ، بحيث لا يكون  
 للزمان فعل غير فعل التنظيم الأدبي للمادة التاريخية . تتحول بذلك العلاقة  
 الزمانية الى علاقة مكانية ، فالزمان حيز تتال هو بمثابة المجاورة التي تطلق عليها  
 الصفة الاسمية الزمانية ، وهو صلة في اطار لوحة التاريخ التي تترتب فيها  
 الحوادث بعلاقة متاخمة لا حركة فيها بين عناصرها ، بل اصطفاً ينظم الزمان

(١) قارن مناقشة الطبري عند نصار (١٩٨١) ٣٢٠ .

أطره واحداثياته . فالبداية لا تُفْضي الى النهاية بفعل لها يحمله الزمان ، وهي ليست الا بداية اسمية في اطار يؤول الى الانضواء في موضع معين من استمرارية مكانية يحدها اسمها ( سنة في تقويم مُلك مَلِك في دولة ، بطن في شعب ) ، المحدّد الأوحد للعلاقة التالي بالبادئ . ليس هناك استمرارية ضرورية وتوليدية بينهما ، فان زمانية الحدث ليس اعتبار صدوره ، بل تعيين موقعه . لذلك فان اصل الأشياء عندما يتعدى تجريد التقويم أو تسلسل الدولة ، يسدو وأنه امر جرى بناؤه ليستطيع استيعاب الحاضر : فليس ثمة سبيل آخر لفهم الأخبار حول اصول الشعوب ورجوعها لأباء ترجع بدورها الى سام وحام وياث ، ثم الى نوح ومنه الى آدم ، تلك الأخبار التي تفترض كلها دون استثناء حدثاً معيناً نتج على اثره الحاضر ، كالبلبله التي فرقت البشر على اساس الستهم ، وتفرق شعوب اليمن وتفرق ملك الصين الأول اولاده في ارض الصين ، او تقسيم نزار بن معد بن عدنان ماله بين اولاده ايباد ومضر وربيعة وانمار بحيث صار لكل منهم ما آل لذريته ايام الكلبي الذي روى الخبر <sup>(١)</sup> ، مما ينم عن ان الأصل لا يختلف في بناءه عن الحاضر - فقد كان لذرية ايباد وغيره ما كان لأيباد دون تغيير - ولا يفعل سوى ان يردد الحاضر في ماضٍ مخترع : الحاضر نموذج الماضي ، والآن نموذج التالي الزماني غير المترابط . فتفريق ما كان لنزار على ولده ، وهو فعل يستغرق آناً وليس زماناً ، يترادف مع تفرق ولد نزار الجاري في الزمان . وعدم احكام الاختلاف بين التفريق والتفرق عدم احكام لذلك الاختلاف والتميز القائمين بين اللحظة والاستمرار ، بين الآن والزمان . يصبح الاستمرار ، وتصبح الزمانية ، استمراراً لاسم يطلق على مسميات منقطعة عن بعضها البعض .

بدايات الأشياء وأصولها ، اذن ، بدايات اسمية وليست مسببات ، اذ هي مجرد سوابق لا ترتبط باللواحق الا بسبقها لها في تسلسل اصم . يصدق هذا المفهوم العشي للتاريخ على حوادث الدنيا بدولها ، ولكنه لا يصدق على حوادث

(١) وهب بن منبه ، تيجان ، ٢٢٢ - ٢٢٣ .

الخلق والآخره ، اي على تاريخ ما قبل الطوفان وعلى أخبار الفتن والملاحم والقيامه في تاريخ المستقبل . يحتل تاريخ الدول ذات التسالي العبيثي شطراً من الدهر يحده حدان ذكرناهما للتو ، ويتركب تاريخ الحوادث الجارية قبل الحد الأول وبعد الحد الثاني في بنية تتابعية لها مجرى محدد ووجهة معينة هي الإبتداء والانهيار وعودة الأمور الى مبادئها . فخلق آدم بداية فعلية للأمور ، اذ هي النقطة الأولى في حركة ذات معنى ونتيجة محددة هي سبب كما سنرى . وخلق آدم ، بالاضافة الى التاريخ حتى الطوفان - شأنه شأن تاريخ المستقبل <sup>(١)</sup> - من الفعل الإلهي المباشر والمستمر ، ذلك الفعل الذي يصبح اقل استمراراً وأكثر ندرة عندما يتحول طابع هذا الفعل ، حسب احد الدارسين ذوي البصيرة الثاقبة ، من حكم مباشر الى وحي <sup>(٢)</sup> . ولكن على الرغم من ذلك ، يبقى التاريخ من البداية حتى النهاية مسيرة من كمال الى انتقاص أول ( آدم وابليس ) ، الى انتقاص مستمر هو تاريخ البشرية ، حتى خلاص أخروي متزامن مع اللعنة لمن لم يكتب له الخلاص وعودة الأشياء الى كمالها الأول ، وذلك بصورة ماثلة تماماً لمفهوم التاريخ عند آباء الكنيسة الأوائل <sup>(٣)</sup> . ذلك أنه بعد انقضاء العالم وقيام الساعة سيعود الأمر الى ما كان عليه « قبل ان يكون شيء غير الباري القديم الذي له الخلق والأمر الذي كان قبل كل شيء » ، فلا شيء كان قبله ، والكائن بعد كل شيء ، فلا شيء يبقى غير وجهه الكريم <sup>(٤)</sup> .

---

(١) نسمي أخبار المستقبل تاريخاً لورودها ، كما سنرى ، في اطار التاريخ بصورة تجعل البداية لا تفهم بدورها ، ولكونها اخباراً عن وقائع حاصلة في أزمنة معينة ، ككل الأخبار التي تدخل في اطار التاريخ بتاريخها . لمحمد الصدر ، مثلاً ، كتاب بعنوان تاريخ ما بعد الظهور ( بيروت : دار المعارف ، د . ت ) . قارن دراسة BOURDIEU (1963) ٦١ - ٦٢ من وضع مشابه .

(٢) MOUBARAC (1958) ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٣) انظر في ذلك التحليل المجمل في PUECH (1975) ٤٧ - ٤٨ .

(٤) طبري ، تاريخ ، ٥٥/١ . اختلف المسلمون في عمر الدنيا والمسافة الزمانية ما بين البداية والنهاية ، ويستتج الطبري ( تاريخ ، ١٤/١ - ١٥ ) من الأحاديث ان عمرها حوالي =

لا يعني هذا العود على بدء بالضرورة اتباع مذهب الدورية الذين انتقدهم اصحاب التشدد في الديانة<sup>(١)</sup> ، أو القول بالتفاصيل ذات الفحوى السياسي للنظريات الاسماعيلية والصوفية في التاريخ والتي تتناول الخلافة والملك والستر والأمامة ثم الولاية الفاطمية المهدوية قبل قيام الساعة<sup>(٢)</sup> . بيد أن فهم التاريخ المتضمن في النظرة اليه وكأنه مجال للتجلي الالهي يماثل في بنيته بنية النظرية الاسماعيلية والصوفية للتاريخ المماثلة لنظرية الخلاص في مجرى الزمانية . فهذه نظرة تستند ، كرديفها الميتافيزيائي في الافلاطونية المحدثة ، الى افتراض وجود شيء ذي اولية وجودية تستنسخ كأولية قيمة . فالأصل ، الخالق ، شيء معجز ، واعماجه المحرك العلي للتاريخ . فالتاريخ مسيرة تناقص تنتهي بالرجوع الى الأصل هذا في كماله ( وما لا يعود اليه يسقط في منزلة التاريخ ، اي في النار في عزلة مطلقة عن المحرك الكامل وخارج نطاقه بكل معنى من المعاني ) ، وهي مسيرة يوجهها هذا الأصل بما هو خالق وبما هو علة غائية . فالله محك معياره كل شيء ، والنزوع نحو محاكاة هذا الاعجاز المعياري يشكل المحرك الأساسي لمسيرة التاريخ الإلهي .

فالتاريخ ليس الا تلك الصلة الدنيوية بين البداية والنهاية<sup>(٣)</sup> . فأول ما

---

= ٦٥٠٠ عاماً ، اما لقياسها بحساب الجمل انظر بيروني ، اثار ، ١٥ - ١٧ . انتقد اعداء الاسرائيليات هذه التقديرات : فابن تيمية ينتقد حساب الجمل ( نقض ، ٦٦ - ٦٨ ) ، اما ابن كثير فيؤكد ان « ما يورده كثير من العامة » من ان محمداً « حدد قيام الساعة ليس له اصل ، ولا ذكر في كتب الحديث المعتمدة ولا سمعناه في شيء من المبسوطات ولا في شيء من المختصرات ، ولا ثبت في حديث عن النبي (ص) انه حدد وقت الساعة بمدة محصورة ، وانما ذكر شيئاً من اشاراتها واماراتها وعلاماتها » . ( نهاية ، ١٩/١ - قارن ٢٢/١ ) .

(١) مثلاً : ابن كثير ، بداية ، ١٢٥/١ .

(٢) في ذلك انظر ابن خلدون ، مقدمة ، ١٦٥/١ - ١٦٦ و (WALKER (1978) وقارن CORBIN (1957) .

(٣) قارن ملاحظات (MOUBARAC (1958 ص ١٣٠ .

خلق الله القلم والعرش والنور والظلمة بترتيب حوله خلاف<sup>(١)</sup>، ثم الملائكة وقبائل وأحياء الجان وإبليس<sup>(٢)</sup> وآدم<sup>(٣)</sup>، مرة أخرى بترتيب مضطرب في الأصول جميعها ومن ضمنها القرآن، الذي قدم بصده أحد الباحثين محاولة جلية في ترتيب الآيات المتعلقة بخلق آدم وإبليس بحيث تبرز تسلسلاتها وتالياتها<sup>(٤)</sup>. تتضمن لحظات الخلق كل ما جرى بعدها، فقد أمر الله القلم أن يكتب كل شيء.. فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد<sup>(٥)</sup> وكان هذا الفعل الكوفي الأول، إذ جاءت كتابة القلم قبل خلق النور والظلمة وآدم والملائكة وغيرها، حسب الطبري. أما الفعل التأسيسي لذلك الطرف من الكون الذي يشكل الأرض - وفي الكتب العربية الإسلامية كزموغرافيا غنية<sup>(٦)</sup> - فهو خلق آدم خليفة لله، هذا الخلق الذي دافع عنه الله أمام اعتراض الملائكة بأن الأرض ستكون موضع فساد وسفك للدماء بقوله «إني أعلم ما لا تعلمون»، وكان في علم الله عز وجل أنه سيكون من ذلك الخليفة [آدم] أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة<sup>(٧)</sup>. والخطوة الثانية في خلق تاريخ الأرض أخذ الله لذرية آدم من ظهره وفرز بعضها للجنة والبعض للنار<sup>(٨)</sup>.

(١) انظر ابن كثير، بداية، ٨/١ - ٩.

(٢) انظر في ذلك ابن كثير، بداية، ١/٥٥ - ٦٨ والقزويني، عجائب، ٣٨٧ - ٨ والطبري، تاريخ، ٨١/١ - ٨٢ والمسعودي، اخبار، ٢٥ - ٤١.

(٣) انظر ابن كثير، بداية، ١٩/٦٨ - ٨١ والطبري، تاريخ، ١/٢٠ وما يليها. المؤرخ الوحيد الذي حاول فهم إبليس (وإن لم يكن انصافه) كان ابن الأثير الذي رأى أنه جائز أن يكون فسوقه من إعجابه بنفسه لكثرة عبادته واجتهاده، وجائز أن يكون لكونه من الجن: الكامل، ١/٢٦.

(٤) BECK (1976).

(٥) طبري، تاريخ، ٢٩ - ٣٠.

(٦) انظر، على سبيل المثال، مسعودي، اخبار، ٤٠ - ٤١.

(٧) طبري، تاريخ، ١/٩٨ - ٩٩.

(٨) المصدر السابق، ١/١٣٥ - ١٣٧.



لم يكن خلق آدم تأسيساً فيزيائياً للعالم فحسب بكون آدم أبا البشر جميعاً، بل رافق آدم خلق مجموعة من الأعمال التأسيسية التي تماثل في نماذجها ما حدث لاحقاً . فقد علم الله آدم « الأسماء » التي يتعارف بها الناس من انسان ودابة و« حتى فسوة وضرطة »<sup>(١)</sup> ، والذوات والأفعال والتكبير والتصغير في اللغة<sup>(٢)</sup> . فقد اعطي ادم معرفة الأشياء الحياتية ، وفيها اسماء ذريته<sup>(٣)</sup> وحروف المعجم<sup>(٤)</sup> : أي اعطي اللغة التي اختلف في كونها سريانية ام عبرية ام عربية حتى انه روى عن ابن عباس رواية شديدة الاتساق مع منطق الخلق المحتوي على كل المستقبل ، ترى ان ادم تكلم جميع الألسن التي نطق بها بنوه<sup>(٥)</sup> . وقد انزلت عليه صحائف فيها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير<sup>(٦)</sup> ، كما حجج<sup>(٧)</sup> ، وعُلم الزراعة وصناعة الحديد<sup>(٨)</sup> . باختصار فإن آدم في الجنة وبعد طرده منها ونزوله سيلان حيث تركت قدمه أثراً شاهده ابن بطوطة<sup>(٩)</sup> زوّد بكل ما من شأنه ان يجعل منه بداية مطلقة لكل شيء تتضمن كل شيء من مسببات الحياة المادية الى المناسك والمحرمات الأساسية التي تتضمن الصحة المطلقة محتوى لها - مناسك ومحرمات الاسلام . ليس من المستغرب ، اذن ، ان يجمع المؤرخون على ذكر حديث ضعيف عن كعب الأحبار انتقده ابن كثير في تفانيه في الدفاع عن طهارة الكلام المبتدئ<sup>(١٠)</sup> من ان كنية آدم في الجنة كانت أبا محمد . ليس آدم أبا محمد

(١) المصدر السابق ، ٩٤/١ - ٩٥ .

(٢) ابن الأثير ، كامل ، ٧١/١ .

(٣) طبري ، تاريخ ، ٩٧/١ .

(٤) ابن الأثير ، كامل ، ٤٧/١ .

(٥) وهب بن منبه ، تيجان ، ٢٥ .

(٦) مقدسي ، بدء ، ١٠/٣ .

(٧) ابن الأثير ، كامل ٣٨/١ - ٤٠ .

(٨) طبري ، تاريخ ، ١٢٨/١ - ١٣١ .

(٩) مسعودي ، اخبار ، ٥٨ ، طبري ، تاريخ ، ١٢١/١ ، ابن بطوطة ، رحلة ، ٥٨٨ - ٥٨٩ .

(١٠) ابن كثير ، بداية : ٩٧/١ .

لكونه ، فيزيائياً ، جده ، بل هو أيضاً أباه بكونه أب - وأصل وحقيقة - الرسالة المحمدية التي بها سيختم العالم وعلى أساسها يتم الحساب عند قيام الساعة . فالخلق بجريان القلم ، يتضمن سلفاً كل المستقبل ، كما ان خلق آدم يتضمن حقيقة ما سيجري بعده وما ستؤول اليه الأمور في النهاية عند قيام الساعة .

ان ما يستبق في البداية يتحقق في النهاية ، فالبداية بداية الاسلام بمعنى كونها نموذجاً مسبقاً له . كذلك الأمر ، فالنهاية ستشهد عودة الأمور الى ما كانت عليه من الكمال أيام آدم<sup>(١)</sup> . فالنهاية لن تشهد فقط الفتن والملاحم المهولة التي قدم الاسلاميون تأريخات كثيرة وغنية لها<sup>(٢)</sup> . بل أن النهاية عودة الى البداية وتثبيت نهائي للإسلام : فتح القسطنطينية ورومية<sup>(٣)</sup> ، ونزول عيسى بن مريم على المنارة البيضاء في دمشق<sup>(٤)</sup> ، ثم كسره الصليب وقتله الخنزير وكل من لم يسلم قبل اسلامه هو<sup>(٥)</sup> . وأخيراً ، شهادة محمد على غيره من الأنبياء والرسول شهادة تتلى من نص القرآن في يوم الحساب<sup>(٦)</sup> .

تؤكد اسلامية النهاية ، اذن ، بسيادة شهادة (شفاعة) محمد في الآخرة وسيادة عيسى ابن مريم - أو المهدي ، وقد رأى البعض ان المهدي وعيسى ابن مريم شخص

(١) مقدسي ، بدء ، ١٩٠/٢ .

(٢) أنظر ، مثلاً ، ابن حنبل ، مسند ، ١٨٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١٧ ، ٣٨٤١ ،

٤١٨٣ ، ٤٢٨٦ ، ٤٢٨٧ ، ٤٣٠٦ ، ٥٦٩٤ ، ٥٨٠٨ ، ٦١٦٨ ، ٧٢٢٧ ، وغيرها ، ابن

كثير ، نهاية ، ٩٠/١ وما يليها ، شعرائي ، مختصر ، ١٤٤ ، وما يليها ، وقارن -CASA

NOVA (1911) ص ٤٥ - ٤٨ ، ١٣٣ - ١٣٤ و CASANOVA (1910) .

(٣) ابن كثير ، نهاية ، ٧٢/١ وما يليها ، وقارن (1958) CANARD .

(٤) قارن ابن كثير : نهاية ، ١٧٦/١ وابن بطوطة ، رحلة ، ٢٢٩ .

(٥) المصدر السابق ، ١ / ١٧١ - ١٧٦ لاشارات أخرى حول اسلام عيسى ، أنظر ابن

حنبل ، مسند ، ٤٧٤٣ ، ٤٩٧٧ ، ٥٥٥٣ ، ٦٠٣٣ ، ٦٠٧٠ ، ٧٠٩٩ ، ابن كثير ،

نهاية ١٥٨/١ .

(٦) شعرائي ، مختصر ، ٥٨ ، ابن كثير ، نهاية ، ٨/٢ وما يليها .

واحد<sup>(١)</sup> - قبل قيام الساعة ، وقتاله الدجال ودحره له<sup>(٢)</sup> . تتزامن هذه الأمور مع شؤن مشهودة على اشراف الساعة ، مثل طلوع الشمس من مغربها وظهور الدابة ، مما يشير الى تحول في طبيعة الاشياء يترادف مع ذلك التحول في طبيعة الدنيا - الفسق - الى طبيعة البداية ( كما في الحديث « ان الايمان بدأ غريباً وسيعود كما بدأ فطوي يومئذ للغرباء اذا فسد الناس »<sup>(٣)</sup> ) ، وامامة الله المؤمنين وقصر الدنيا على الكفار يعيشون فيها<sup>(٤)</sup> . في ذلك فرز للأشياء الى ذلك الذي توافق مع الاسلام - والاسلام بداية الكون والشرعية الادمية / المحمدية ، ثم الحساب - والى ما لم يتوافق . ما توافق مع الاسلام يعود الى مصدره في كنف الرعاية الالهية ويخرج من الزمان الى السرمدية ، وما لم يتوافق يدخل بدوره في سمردية مضادة عنصرها الأساسي خروجها عن بوتقة عناية الله ، ونزولها الى دركات الهول في النار التي وصفها المؤلفون المسلمون أوصافاً تفصيلية مروعة كما هي فجة في ساديتها<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) ليس من شك في ان هذه القضية مرتبطة بالسجلات العلوية / السنية . في الفرق والتماثل بين الاثنتين ، انظر ابن كثير ، نهاية ، ٤٥/١ والمقدسي بدء ، ١٨٠/٢ - ١٨٢ والشعراني ، مختصر ، ١٣٤ . على كل حال ، يقطع ابن كثير ( نهاية ، ٤٢/١ ) بأن ظهور المهدي لن يكون « من سرداب سامراء كما تزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن ... [ مما هو ] هذيان ... وهوس شديد من الشيطان ، اذ لا دليل عليه ولا برهان ، لا من كتاب ولا من سنة ولا من معقول صحيح ولا استحسان » . ويجب التنويه الى عدم ذكر المهدي او الدجال في القرآن والى ان عيسى بن مريم كما يظهر في الحديث يختلف أشد الاختلاف عن ذلك الذي يظهر في القرآن ، فللاول خواص خلاصية ليست للثاني ( في ذلك ، راجع ( Mclean (1970 ) وذلك على الرغم من التأويلات - مثال على هذه ابن كثير ، نهاية ، ١٥١/١ ، بصدد الآية ١٥٧ من سورة النساء .
- (٢) حول صفة الدجال وأعماله وعجائبه وحلفائه من اليهود وغيرهم ، انظر ابن كثير ، نهاية ، ٩٠/١ وما يليها . رأت بعض الاخبار ان الدجال يسكن احدى جزر المحيط الهندي : السعودي ، أخبار ، ٤٦ ، والسعودي ، مروج ، ٢٨/٤ .
- (٣) ابن حنبل ، مستد ، ١٦٠٤ .
- (٤) المصدر السابق ، ٦٥٥٥ .
- (٥) انظر بصورة خاصة ، مختصر الشعراني ، والجزء الثاني من نهاية ابن كثير .

تجتمع البداية والنهاية ، اذن ، على الحق والكمال . لا تضحي علاقتهما بما عداهما ، اذن الا علاقة كامل بناقص : فالحق ، تحديداً ، اكتمال ، وكل ما عداه في علاقته به لا يتحدد الا بنقصان الحق فيه . علاقة البداية بالنهاية علاقة المثل بالمثل . واتجاه البداية نحو الزمان ثم تركها اياه وانغماسها في النهاية - البداية (أي دخول بني آدم مجال التجربة في التاريخ) اتجاهاً يخلو من العتب خلواً يكاد يكون تاماً ، ففي هذه العملية استرجاع لكمال المبتدأ بكون هذا المبتدأ ، كما ألمحنا أعلاه ، علةً لذلك الذي ينزع اليه ويصبو الى محاكاته . الفعل الوحيد الذي لاعقلانية له بذاته في حركة البداية نحو النهاية هو بدء الحركة ، أي اللعنة التي نزلت على آدم وبنيه والتغريبه ، وفرزه ، أساساً ، نحو الارض وتوجيهه شطر الفساد والافساد .

ما عدا ذلك متماسك داخلياً برابط علية الكمال . فالكمال كما هو مسطور في اللوح المحفوظ وفي الصحائف التي أنزلت على آدم ، شأن مكتمل ، واكتماله صلبه وجوهره . هو بذلك لا يخضع لتغيير مطلقاً ، بل هو واحد يسم البداية كما يسم النهاية ، ويجعل من ما توسط بينها محوراً يبنى عليه الصلة بين هذا وتلك . الا ان هذه الصلة ليست بالصلة الكاملة ، بل هي حيز تحتل محاكاة الاكتمال ( النبوة ) حيزاً منه يترادف مع حيز آخر تحتله الدنيا بدنسها . حيز الوصل بين البداية والنهاية ، اذن ، حيز يتضافر فيه الكمال والانتقاص على افراز حيوية دافعة تجعل بين البداية والنهاية مسافة تخل بتلاصقهما الجوهرى الناجم عن التماثل ، وتضفي الى افتراق يجعل في واحدتها بداية والاخرى نهاية بكل معنى الكلمة .

البداء نموذج للكمال . واستنساخ هذا الكمال في فترات لاحقة زمنياً وعن طريق النبوة هو ما يطلق عليه الاسلاميون عبارة « نسخ » الاسلام لما سبقه من الاديان : فالنبوة « كلها من مشكاة واحدة لا يجوز عليها ان يختلف في اصل الديانة والتوحيد ولا فيما يأتي به من الاخبار »<sup>(١)</sup> ، وفي الحديث ان « الانبياء

(١) مقدسي ، بدء ، ٩/٣ .

أخوات علات امهاتهم شتى ودينهم واحد»<sup>(١)</sup>.. فليس من العبث او الانشاء القول بأن دين هرمس كان الملة الخيفية<sup>(٢)</sup>، وبأن الاسكندر دعا الى العدل والتوحيد ( وهو شعار المعتزلة )<sup>(٣)</sup> ، أو بأن ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف كانوا على دين الاسلام<sup>(٤)</sup> . كما انه ليس بالسخيف ، في هذا الاطار ، ان تجعل سيرة عترة ابراهيم الخليل يستوي عند ولادته ، قائلاً : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »<sup>(٥)</sup> ، ولا بالبعيد اقامة موازنة دقيقة بين تاريخ اليهود وتاريخ الاسلام<sup>(٦)</sup> . فليس بين السوابق واللواحق علاقات علّية مستمرة ، بل محاكاة اللاحق للنموذج بالذي يقدمه السابق ، على اساس افتراض التماثل التام بينهما . فالماضي بهذا المعنى ، حاضر مستمر . واذا كانت الشرائع المنزلة على آدم وشيت هي عين تلك التي نزلت على ابراهيم ثم موسى ثم محمد ، وهي شرائع واحدة في جوهرها ومثبتة لاستمرارية أثر السماء في الارض عبر فضاء الزمان ، فإن استنساخ تاريخ الاسلام لمسيرة النقص قياساً على كمال اول مبتدئ في تاريخ اليهود ليس الا رديف استمرارية الكمال ، فهو استنساخ لبنى تتردد لوحداث تاريخية تبتدئ بكمال نبوي ولا تكاد تبتدئ حتى تباشر بالتناقص القيمي .

التاريخ من آدم الى محمد ، اذن ، تاريخ ذو دورين : دور الكمال ودور النقص . فآدم أبو محمد لان محمداً المكمل التام لجده ، اذ ان خاتم النبوة لا يسعه ان يكون الا ذلك الذي يتناولها من نقطة بدئها ويتطابق تطابقاً تاماً مع نموذجها الاصيل . هذا معنى كون كل الاديان ، جوهرياً اسلامية . ويأخذ

(١) ابن كثير ، نهاية ، ١٧١/١ . قارن ابن تيمية ، نبوات ، ٨٧ - ٨٨ .

(٢) مبشر بن فاتك ، مختار ، ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٥٥ .

(٤) طبري ، تاريخ ، ٤٤٥/١ .

(٥) ٢٩/١ .

(٦) مقرئزي ، نزاع ، ٥٩ - ٦١ ، وقارن قول الأبلي في ابن مريم ، بستان ٢١٨ وفي

المقري ، نفح الطيب ، ٢٧٧/٥ - ٢٧٨ .

الاسلاميون هذا الشأن وترجمونه من مجاله المفهومي الى مجال التاريخ بادخال اسم محمد في حقبات التاريخ السابق عليه : فهذا ابن كثير يبلغنا ان عيسى بن مريم بشر بمحمد<sup>(١)</sup> ، وهذا ابن قيم الجوزية يحرف التوراة ليبيّن أن محمداً مبشر به في نصّها<sup>(٢)</sup> ، لعين السبب الذي لاجله رأى المسلمون الاوائل ان محمداً بشر به في تعبير سطّيح الكاهن لرؤيا ربّيعه بن نصر ملك اليمن<sup>(٣)</sup> ، والذي بموجبه جعل الوعي الشعبي مصر القديمة ، في نقش على قبر ملك يسميه المسعودي مصرايم بن حام مؤسس مصر ، تنبأ بملك « يأتي في آخر الزمان يدين للملك الديان ، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن »<sup>(٤)</sup> .

بيد ان الاسلام كتاريخ لوحداث مستمرة عبر الزمان ، أي كتاريخ لقريش وغيرهم ، كما هو الشأن في تاريخ اليهود كتاريخ لبني اسرائيل ، ينقسم الى مدة حكام ومدة الملوك ، اي الى ما يقابل انقلاب الخلافة الى ملك عند بعض مؤرخي الاسلام الذين شاركوا الشيعة في نظرتهم للتاريخ - هذا التاريخ تاريخ انتقاص مستمر لاصل كامل . ومسيرة الانتقاص هذه لا تقتصر على الاسلام واليهودية وحدهما ، بل تشكل ، كما ألمعنا ، أحد دوري التاريخ . فحركة الكامل نحو النقص تبتدىء في الجنة مع آدم ، الذي ربما كان اول عمل ناقص ( ولو لم يكن ارادياً ) له ولادة حواء من ضلعه . ولكن يعود الانتقاص فيبتدىء بعد توبة آدم بعمل تأسيسي هو قتل قابيل لهابيل . يتسق مع ذلك انشطار بني آدم الى بني قابيل وبني هابيل - ويبدو ان زعامة القبيلة الثانية من احفاد آدم من صلب ابنه شيت ( أنوش ، قينن ، مهلائيل ، أخنوخ ، ادريس ، وغيرهم ) . القبيل الاول من الفاسقين عبدة النار الجبابة على الرغم من اعتراض ابن كثير ، في محاولته تطهير التاريخ ، مستشهداً بحديث أورده البخاري عن ابن عباس ان

(١) بداية ، ٨٥/٢ .

(٢) هداية ، ٥١ وما يليها .

(٣) ابن هشام ، سيرة ، ١٥/١ وما يليها ، ٧٠/١ .

(٤) مسعودي ، أخبار ، ١٨٢ .

بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام<sup>(١)</sup> ، والقبيل الثاني من بني شيت من المؤمنين الذين جاهدوا ولد قابيل<sup>(٢)</sup> ، ولكن الذين انجذبوا الى اعدائهم بسبب الحياة اللاهية المملدة للاخيرين<sup>(٣)</sup> ، وذلك رغم وصاية جميع زعماء أبناء آدم أولادهم ألا يخالط ربهم أولاد قابيل<sup>(٤)</sup> . وقد تفاقم الوضع حتى أضحي ربع بني شيت خالياً من الناس ، مما استدعى بداية جديدة للخلق : تلك التي أسستها بعثة نوح في عهد متوشلح من أحفاد شيت .

البداية الجديدة بمثابة خلق جديد ، وهي دورة جديدة يتم الانتقال فيها من دور الكمال الى دور النقص . فقد جاء الطوفان ليزيل الأثر الأرضي والفيزيائي للنقص ، ولذا فقد جاء الطوفان بعد أن قطع الله النسل وأكثر القحط وقلل من العمران<sup>(٥)</sup> ، وقد أخذ نوح في السفينة أولاده الثلاثة سام وحام وياث وترك ابنه الكافر يام ليغرق<sup>(٦)</sup> . لا تستقيم مع ذلك الروايات الواردة دون تواتر تام ، والقائلة بوجود أكثر من نوح وولده الثلاثة ، الا مع الشرط الذي تفي به الروايات ، وهو أن الاشخاص الآخرين من المسلمين<sup>(٧)</sup> الذين أعقمهم الله مع كل حال<sup>(٨)</sup> . رواية الطوفان لا تستقيم مع وظيفتها التطهيرية الا بانتفاء الخلق جملة ما عدا من كان في السفينة الا عوج بن أعنق « فيما يزعم أهل

---

(١) بداية ، ١٠١/١ ، يورد هذا الحديث جل المؤرخين في هذا الاطار دون أن يؤثر على تقبلهم وإيرادهم للخبر عن بني قابيل ، وهو خبر ، حسب الطبري « غير بعيد عن الحق » : الطبري ، تاريخ ، ١٦٨/١ أما ابن الاثير ، (كامل ٥٧/١) ، فهو لا يشك الا في عنصر واحد من الاخبار المتعلقة ببني قابيل وبني شيت ، وهو ذلك الذي يتناول توقيت أحداثها .

(٢) مسعودي ، أخبار ، ٧٦ .

(٣) طبري ، تاريخ ، ١٦٧/١ - ١٦٨ .

(٤) يعقوبي ، تاريخ ، ١٠/١ .

(٥) مسعودي ، أخبار ، ٨٢ .

(٦) أبو الفداء ، مختصر ، ١٠/١ ، وهب بن منبه ، تيجان ، ٣١ .

(٧) أبو الفداء ، مختصر ، ١٠/١ ، مسعودي ، أخبار ، ٨٣ ، ابن قتية ، معارف ، ٢٣ .

(٨) دينواري ، أخبار ، ٤ .

الكتاب<sup>(١)</sup> - وعوج بن أعنق أو عناق بنت آدم ، ولدته من زنا ، جبار كافر يأخذ السمك من قرار البحر ويشويه في عين الشمس<sup>(٢)</sup> حاول اغراق سفينة نوح<sup>(٣)</sup> ، وشخصية أسطورية ترد أيضاً في أخبار بني اسرائيل بصفته ملك كنعان<sup>(٤)</sup> أو احد جبابرة أريحا ممن قتلهم موسى<sup>(٥)</sup> ، أو أحد من ناصر كنعان بن كوش بن بلخ بن جوهر بن يافث بن نوح<sup>(٦)</sup> .

الانقطاع الذي يشكله الطوفان<sup>(٧)</sup> يترادف مع التأسيس الجديد كلياً فهو ليس مجرد تأسيس بناء على الاستمرارية الفيزيائية لنوح وذريته ، بل ان نوحاً وآله أمروا مرة أخرى وكما أمر آدم باجتناث الميتة ولحم الخنزير والدم ويعدم قتل نفس الا بالحق<sup>(٨)</sup> . يستنسخ نوح الكمال الابتدائي في وقت لا يتعد كثيراً عن ابتداء الدور التاريخي الثاني : فلا تنقضي أجيال قليلة جداً حتى رجع البعض من ولد نوح « الى عمل بني قابيل من ملاهي وغناء ومزامير »<sup>(٩)</sup> ، ثم محاولة البشر الوصول الى ما يقيهم الطوفان ببنايتهم برج بابل وما نتج عن ذلك من البلبلة التي فرقت ألسن الناس عن السريانية لغة نوح<sup>(١٠)</sup> - أو العبرانية كما قال البعض<sup>(١١)</sup> -

(١) طبري ، تاريخ ، ١٩٢/٢ .

(٢) ابن كثير ، بداية ، ١١٤/١ .

(٣) مسعودي ، أخبار ، ١١٦ - ١١٧ .

(٤) ابن خلدون ، تاريخ ، ٢١/٢ ، ١٦٣ .

(٥) ابن الأثير ، كامل ، ١٩٥/١ ، ١٩٧ ، ابن كثير ، بداية ٢٧٨/١ .

(٦) سيرة عترة ، ١٢/١ .

(٧) من هنا نقد المسلمين انكار « طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند » وقوع الطوفان : ابن كثير ، بداية ، ١١٨/١ والمسعودي ، أخبار ، ١٨٠ . لا يمثل الطوفان نقطة انقطاع فعلية في تاريخ مصر كما يعرضه المسعودي في أخبار ، حيث هو مجرد حدث خارجي لا يتضمن تأسيساً جديداً .

(٨) مسعودي ، أخبار ، ٨٥ .

(٩) يعقوبي ، تاريخ ، ١٥/١ .

(١٠) المصدر السابق ، ١٩/١ .

(١١) أبو الفداء ، مختصر ، ١٢/١ .



وافتحت قسمة الارض بين أولاد سام وحام ويافث التي تكلمنا عنها أعلاه ،  
القسمة التي أتاحت لكل سلسلة من سلاسل الذرية هذه أن تأخذ مسرى تاريخياً  
خاصاً بها ، تمارس فيه تاريخاً تابعاً بشكل شبه كلي للدور الثاني ، المدنس ، من  
التاريخ ، الدور الذي ليس للالهية دور مباشر فيه .

ففي فترة ما بعد الببلبة ، وحتى تاريخ المستقبل ، لا نجد التدخل الألهي  
المباشر الا في مواضع قليلة ، أبرزها نواح من تاريخ بني اسرائيل ثم تاريخ عاد  
وتمود . فبينما كان كفر ذرية قابيل مدعاة للازالة الفيزيائية للبشر والابتداء المطلق  
مرة ثانية ، لا تصدق هذه الدورة الا في مواقع منعزلة من تاريخ ما بعد الببلبة ،  
فابراهيم بداية جديدة بمعنى انه يمثل حلقة في الدور الأول ، القدسي ، للتاريخ ،  
مسترجعاً البداية من حج وختان وغيره من الاشارات الاسلامية - أي تلك التي  
تسم البداية والنهاية<sup>(١)</sup> . ولكنه بداية جديدة أيضاً بمعنى أنه يشكل بداية دورة  
جديدة للدور الثاني ، التناقصي ، للتاريخ ، بكونه أب اليهود ، الذين يصدق  
التناقص على تاريخهم ، والعرب المسلمين ، الذين يصدق عنهم نفس  
الشيء<sup>(٢)</sup> . أما دون هاتين الدوريتين الكاملتين - الاولى بزوال بني اسرائيل  
والثانية بالنشأة المستأنفة في النهاية - فنحن نرى مسيرات عبثية تققطع زمانا  
تنقضي فيه دون ان تدخل بصورة مباشرة في دورة البداية والنهاية ، الخلق  
والخلاص ، النموذج والاستنساخ ، الذي نراه في تاريخ ظهور الله على  
الارض . ان ما نراه مجرد حالات متفرقة يتدخل فيها الله بصورة مباشرة ولحسم

---

(١) هناك رأي يرى وجود ابراهيمين متميزين في التراث القرآني لا يصدق هذا الكلام على  
أحدهما - أنظر عرض ونقاش هذا الرأي في Moubarac (1958) ص ٥٣ وما يليها .

(٢) اختلف المؤرخون اختلافاً شديداً حول ما اذا كان الابن الذي أمر ابراهيم بذبحه كان  
اسماعيل أو اسحق : أنظر الطبري ، تاريخ ، ٢٩٠/١ - ٣٠٠ واجمال القول في ابن  
الاثير ، كامل ، ١٠٨/١ وما يليها . وقارن ابن كثير بداية ، ١٤٩/١ ، ١٥٩ - ١٩١ .  
تاريخ ابراهيم بمجمله مليء بالتناقضات والاختلافات : أنظر أبو الفداء ، مختصر ،  
١٣/١ - ١٤ .

أوضاع معينة ، فهو يتدخل أساساً لمساعدة الانبياء في الدلالة على نبوتهم<sup>(١)</sup> كتحذيره في نار ابراهيم أو عصا موسى<sup>(٢)</sup> ، أو في مساعدة المؤمنين كارساله الطيور الابليل ، أو في معاقبة الكفار والعاصين ، كتخريبه سد مأرب بعد ضلالة أهله<sup>(٣)</sup> ، أو كنصرة لوط على أهل سدوم أو اهلاك أهل مدين بالزلزلة عندما لم يؤمنوا بشعيب ، وافلاته بختنصر على بيت المقدس ، وأخيراً لمعاقبته بعض الافراد ، كمعاقبة النمرود على تجبره عندما أرسل الله اليه بعوضة دخلت أنفه وعاثت فيه أربعين سنة حتى مات<sup>(٤)</sup> .

ولكن هذا النمط من التدخل ليس الا بالتدخل الموضوعي الخاص بوضع معين ما لا يتعداه بأي ضرورة الى مجال بنية التاريخ . هو تدخل مساعد يعين فعل من شأنه ، حتى دون هذا التدخل المباشر ، إن يضيف الى عين النتيجة التي أضفي اليها أساساً : فالسحر الذي أتى به ابراهيم مقابل النمرود ، أو موسى أمام فرعون وسحرته ، ولاحقاً ، احياء الدجال الموتى وإتيان الساء بالمطر عند امره باياها بذلك مما هو مسطور في تاريخ المستقبل من عناية خاصة بالدجال<sup>(٥)</sup> . كل تلك حالات من التدخل الالهي المباشر في أوضاع نتيجهتها معطاة مسبقاً ، ولا يفعل التدخل الالهي سوى اضافة مسحة عينية ، تاريخية وخبرية ، على

(١) يعلقن اليعقوبي ضرورة البرهان على النبوة بقوله ( تاريخ ، ٢/ ٣٤ - ٣٥ ) ان الله لم يبعث نبياً الا بما هو أغلب على أهل زمانه : سحر موسى عند قوم الاغلب عليهم السحر ، حديد وغناء داود في زمان الصنعة والملاهي ، تسخير سليمان الريح والجن في عصر بناء وطمسماط ، عجائب عيسى ابن مريم الطبية في زمان طب ، وأخيراً ، القرآن والمحاوراة في زمان كلام وكهانة وسجع .

(٢) الجديري بالتنويه . بأن البيروني ( هند ، ٨٨ ) يورد أخباراً عن البراهمة ماثلة لقصة عصا موسى .

(٣) ابن كثير ، بداية ، ١٥٨/٢ - ١٦٠ .

(٤) ابن قتيبة ، معارف ، ٣١ - قارن سيرة عنترة ، ٧٥/١ - ٧٦ . حول هوية النمرود ، انظر الطبري . تاريخ ، ٢٥٣/١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ .

(٥) ابن كثير ، نهاية ، ١٠٦/١ وما يليها .

النتيجة ، أي يقوم بمهمة وظيفية حسب تعبير رولان بارت . في هذه الاحوال ، يكون التدخل هنيئة غير متعددة في اطار سرد تاريخي لا تقرر نتيجته . ولعل ما يؤكد ذلك ان التدخل الالهي لا يتعدى نطاق ما هو بوسع الانبياء والسحرة : فسحر موسى مقابل لافعال مشابهة من قبل سحرة فرعون ، كما أنه مماثل في نوعه لما فعله نوح ، مثلاً ، عندما لعن حاماً وولده فاسوداً<sup>(١)</sup> . هو تدخل لا يطال بنية السرد التاريخي الخاص بتاريخ ظهور الله والذي تحدد بنيته غايته ، وهي الرجوع الى الاصل في النهاية ، بعد اللبلة : ليس ثمة بدايات جديدة مطلقة الا ابراهيم بشقي وجهته : اليهودية والاسلامية .

تاريخ اليهود مسيرة متعثرة نحو الكمال : فبدءاً من موسى ، نرى سجلاً من الارتدادات المتلاحقة عن الحق التي تنتهي بتسلط طغاة متسلطين آخرهم باختصر<sup>(٢)</sup> . كذلك الامر ، فإن الوحي المحمدي يتبدى باشارات سابقة على محمد المعنا اليها أعلاه ، ويستمر في شخص محمد الذي تنزل واجبات الدين جسده - فهو ولد مختوناً مسروراً في وسط الكثير من دلائل نبوته الاخرى<sup>(٣)</sup> - والذي ابتدأ عهداً يحتوي على الماضي المقدس مكتملاً في ذاته اكتماله في بدايته ، وذلك بدولة « لم تكن من طراز دول الدنيا ، وهي بالامور النبوية والاحوال الاخرية أشبه »<sup>(٤)</sup> حين جاء الاسلام « ودهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحي وتنزل الملائكة وما وقع من خوارق الامور . ونسي الناس أمر العصبية مسلمهم وكافرهم »<sup>(٥)</sup> .

ولكن ، كما يقرر منطق القدس والدنس ، انقلبت الخلافة ملكاً عضواً .

(١) أنظر مثلاً ، يعقوبي ، تاريخ ، ١٥/١ وابن قتيبة ، معارف ، ٢٦٠ ، وانظر الرواية المختلفة حول سبب اللعنة في وهب بن منبه ، تيجان ، ٣٢ .

(٢) انظر السرد المجلل لتاريخ بني اسرائيل في يعقوبي ، تاريخ ، ٤٦/١ وما يليها .

(٣) انظر ، مثلاً ، أبو الفداء ، مختصر ، ١١٠/١ . يشك ابن كثير في حديث ولادة النبي

مختوناً : بداية ، ٢٦٦/٢ .

(٤) ابن طباطبا ، فخري ، ٦٠ .

(٥) ابن خلدون ، تاريخ ، ٤/٣ .

وكان هذا ابتداء من ولاية معاوية بن أبي سفيان عند أغلب من كتب في هذا الامر وجعل من دولة بني العباس معياراً للصحة التاريخية ، على الرغم من دفاع البعض عنه ، وفي مقدمتهم ابن خلدون الذي رأى في معاوية خامس الخلفاء الراشدين<sup>(١)</sup> ودافع عنه ضد تهمة الكسروية<sup>(٢)</sup> ، وعلى الرغم من بقاء أنصار سريين لبني أمية رأوا في المستقبل عودة للسفانية ومسيرة للامويين من الاندلس عائدين الى الشام<sup>(٣)</sup> . فليست دولة بني أمية فقط ملكاً عضوضاً ، بل دولة بني العباس أيضاً ، « سقطت فيها دواوين العرب وغلب عجم خراسان على الامر ، وعاد الامر ملكاً عضوضاً محققاً كسروياً ، الا انهم لم يعلنوا بسبب أحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون في لعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، ولعن بنيه الطاهرين » ، مع أنهم (أي بني أمية) « لا اكثروا في احتجاج الأموال ولا بناء القصور ولا استعملوا مع المسلمين ان يخاطبهم بالتمويل ولا التسويد ، ولا يكاتبونهم بالعبودية والملك ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد »<sup>(٤)</sup> . هذا وموضوع فساد الزمان الذي لم ينفك جيل واحد من المسلمين عن الكتابة عنه والاشارة اليه ، هو من صلب الدور الثاني ، المدنس ، من التاريخ الذي لن ينته كما انتهى تاريخ بني اسرائيل ، بل ، بكونه يتضمن في بدايته (الوحي المحمدي) الحق بكامله ، كما كان موجوداً في اللوح وعند آدم ، سيكون النموذج الذي سيغلب في آخر الزمان كما رأينا .

ليس ثمة حالة وسط بين الملك والخلافة ، على الرغم من اجتهادات أوائل المتكلمين ، اذ ليس ثمة وسط بين القدس والدنس أو بين الكمال والنقص . ولذا ليس هناك اتجاه فعلي للنقص بذاته ، ولا يكون هناك من وجهة في التاريخ الا اذا افترضنا غاية تستعيد بداية بفعل الهي مباشر ، كالقيامة . نهاية اشياء التاريخ لا تنتج عن مسيرة التاريخ بل عن بدايته : فمرجع مسيرة الخلق في

(١) المصدر السابق ، ١١٤٠/٢ - ١١٤١ .

(٢) مقدمة ، ٣٦٦/١ - ٣٦٧ .

(٣) مسعودي ، تنبيه ، ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٤) ابن حزم ، أسناء الخلفاء ، ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، وقارن المقرئزي ، نزاع ، ٤٦ وما يليها .

الزمان بداية تستعاد وتستنسخ في النهاية أو في بدايات لاحقة ( كما في النبوة ) قبل الوصول الى النهاية في الساعة . بعبارات أخرى ، النهاية استعادة مطلقة للبداية ، وليست تقويميا لما بينهما . فإن ما يجري بين نقطتي البدء والانتهاه نقص محض لا بُدَّ خاصة به تجعل له علاقة مع النهاية الا العلاقة المفروضة من الخارج ، اي لزوم وقوع النهاية في لحظة زمانية معينة لاسباب لا علاقة لها بينية النقص الداخلية ، بنية التاريخ الأرضي ، أي ذلك الذي يشكل الدور الثاني من أدوار التاريخ، لا ترجع لغاية الزمان ، بل هي مستقلة عنها ، وعشبة بالقياس عليها ، وبقيائها تزج في دركات العشبة القصوى التي هي النار .

يتحقق دورا التاريخ - دور الكمال ذو البنية الالهية المباشرة المتجهة من كمال الى نقص الى تدارك هذا النقص ابتداء جديد للكمال ، ودور النقص القائم على الاخبار غير المتعلق بضرورة بالدور الاول - في فترتين متميزتين من التاريخ بمجمله . فالدور الاول يحكم اخبار ما قبل البلبلة واخبار المستقبل حكماً صارماً ومطلقاً ، اذ فيها بنية الكمال / النقص / الكمال بشكل مسيطر ، فهي تحكم الاطار العام ( خلق / عالم / نهاية ) كما تحكم الاطر المفردة : بداية / نقص / نهاية مفضية الى بداية تستنسخ سابقتها . ونجد الدور الاول هذا يحكم أيضاً الاطار العام ( أي بداية / نقص / نهاية ) لشأنين ما جرى بعد البلبلة ، هما تاريخي بني اسرائيل والمسلمين ، ولكنه لا يتدخل في عملية بناء تاريخ ما بعد البلبلة الا على وجه أخروي ، لا علاقة له بعلاقة عناصر هذا التاريخ ببعضها البعض ، وعلى وجه موضوعي ، كالذي أشرنا اليه أعلاه . وتتصل حلقات الدور الاول ببعضها البعض في اطار تاريخ النبوة الذي يشكّل المحك الوحيد للاستمرارية الذي يزيد على استمرارية الزمان المحض المعتبر بما هو أنسياب والذي سبق ودرسنا بناء بالتفصيل في أكثر من موضع أعلاه . وتاريخ النبوة تتالئ لبدايات تستنسخ بعضها البعض ، بدايات محاطة بتاريخ اخر ، يمارس دوره الثاني المندس . فترى ، على سبيل المثال ، سلسلة الأنبياء من نوح حتى يعقوب وولده تساق أباً عن جد في اطار الاخبار المتعلقة بالدول التي عاصرها أولئك ، دون ان يكون لحلقات السلسلة صلة ببعضها البعض بتوسط من التاريخ الجاري

حولهم بعبيّة التتالي الصرف . وفي تلك الأزمان التي لا تحتوي على نبوة متواترة القبول ، مثل ما دعي بالفترة ، وهي الزمان بين عيسى ومحمد<sup>(١)</sup> ، نرى خرافات الحكماء مثل لقمان وذا القرنين<sup>(٢)</sup> والخضر تملأ صفحات الدور الاول من التاريخ .

لا يفترق الدور الاول من التاريخ عن الثاني بكيفيّة التدخل الآلهي ، بل هو يتميز عن الثاني بالصبغة الاسطورية الصريحة التي تسم أخباره . فأخبار الخلق والبلبله والطوفان ، شأنها شأن أخبار المستقبل ، تجري في زمانية أسطورية تؤكد أسطوريتهما وخرقها للعادة بالوحدات القياسية التي تستخدمها . فاليوم الواحد عند الخلق قد يعني ألف سنة وقد يعني غيرها<sup>(٣)</sup> ، كما أن الدجال سيحكم الدنيا حسب الحديث ، « أربعين ، لا أدري : أربعين يوماً ، أو أربعين سنة ، أو أربعين شهراً »<sup>(٤)</sup> . وقد يكون الاربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهركاسبوع ، والبقية كسائر الايام<sup>(٥)</sup> ، أو الاربعون سنة سنة كنصف السنة وسنة كشهركاشهر ، والشهر كالاسبوع<sup>(٦)</sup> . يتأكد خرق العادة ليس بتشويش القياس الزماني فحسب ، بل في الاغراق في ايراد التفاصيل العينية . فهارون ، مثلاً ، كان أطول من موسى قامه وأبيض جسماً وكانت على جبهته شامة وفي أرنبه أنف موسى شامة وعلى طرف لسانه شامة لم يعرف مثلها<sup>(٧)</sup> ، والدجال اعور ( وهناك اختلاف حول ما اذا كان أعور في العين اليمنى أو اليسرى ) ، أجعد الشعر ،

---

(١) المفهوم الفترة ومحتواها أنظر (AL-AZMEH 1981) ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) حول الروايات المتعلقة بذوي القرنين ، أنظر بيروني ، آثار ، ٣٦ وما يليها وابن كثير ، بداية ، ١٠٣/٢ وما يليها ، أبو الفداء ، مختصر ، ٤٥/١ والدينواري ، أخبار ، ٣١ وما يليها .

(٣) مثلاً ، طبري ، تاريخ ، ٥٥/١ وما يليها ، والمقدسي ، بدء ، ١٤٦/٢ وما يليها .

(٤) ابن حنبل ، مسند ، ٦٥٥٥ .

(٥) ابن كثير ، نهاية ، ١٠٥ / ١ .

(٦) المصدر السابق ، ١١٤ / ٢ .

(٧) ابن قتيبة ، معارف ، ٤٣ .

أخراً الصوت ، ابن رجل طويل الانف « كأن أنفه منقار » وامرأة عظيمة الثديين<sup>(١)</sup> . كما تتأكد أسطورية هذه الازمان بأعمار الناس فيها ، بدءاً من آدم الذي مات عن ٩٣٠ عاماً<sup>(٢)</sup> ، ويتأريخ بعض الاحداث تاريخياً خالياً من السنوات : كأن يؤرخ ركوب نوح السفينة لسبعة عشر يوماً خلت من ايار ( والبعض يقول الاول من رجب ) ، ويؤرخ موت شيت يوم الثلاثاء لسبع وعشرين ليلة خلت من آب « على ثلاث ساعات من النهار »<sup>(٣)</sup> .

هذه هي الاسطورة التي دعت بعض المؤرخين الى الاستنكاف عن المساهمة في كتابة تاريخ ما قبل البلبله ، كما رأينا في الفصل الاول ، كما أن عدم امكانية ضبطها الفعلي ( على الرغم من محاولة ابن كثير في البداية والنهاية لضبط اخبارهما بناء على القرآن والحديث ، ومحاولة ابن تيمية في أحاديث القصاص<sup>(٤)</sup> ) هو ما حدا بالكثير من الفقهاء لمحاولة وضع ضوابط امام نشاط القصاص<sup>(٥)</sup> الذين « يخاطبون الجهال من العوام الذين هم في عداد البهائم »<sup>(٦)</sup> . ولكنها رغم ذلك ، اسطورية تؤكد انفراد دور من دوري التاريخ بخصائص ليست للثاني ، فالثاني تابع لشروط المعقولة التاريخية كما شرحت في الفصل الاول من هذا الكتاب ، كما أنها تعمل على توجيه التاريخ الى غاية معينة هي النهاية . أما الدور الآخر من التاريخ ، فهو ليس تاريخاً بقدر ما هو تأريخ لتتال عبي لاهداث الدنيا المتفقة . هو مجرد انسياب للزمان ولاحداث لا تجد في الزمان وانصرامه متكاً لبنيتها ، بل مجرد اطار خارجي ينظم مقالها . تاريخ الله عين تاريخ هيغل

(١) ابن كثير ، نهاية ، ٩٠/١ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٦ .

(٢) طبري ، تاريخ ، ١٤٨/١ وما يليها .

(٣) يعقوبي ، تاريخ ، ١٤ / ٨ .

(٤) تحقيق محمد صالح ، بغداد ١٩٧٢ .

(٥) مثلاً ، ابن الجوزي ، اخبار القصاص ، ١٠ - ١١ والسخاوي ، اعلان ٦٣ ، وابن الاخوة ، معالم ، ١٨٠ ، وقارن العقلانية الرقابية عند ابن عبد الرؤوف ، حسيبة ، ١١٣ .

(٦) ابن الجوزي ، اخبار القصاص ، ١٠٨ .

الذي تسترجع فيه النهاية البداية بتجاوز حلقاتها لبعضها البعض واستنساخها سوابقها، أما زمان الأرض فهو عبثية تتالي الحوادث التي لن تفلح بالاتيان بنتيجة لها لم تكن سابقة عليها ، بل لن تؤول إلا الى عبثية النهاية الجهنمية في مقابل تلك الحركة التي تنتهي في الجنة : وتتماً كما تاريخ هيغل ، فإن تاريخ الله يجري وفق سببية صارمة يفرضها الاصل التأسيسي على عكس زمان الأرض الذي يجعل من لحظاته أمكنة لا أزمنة . وتتماً كما عند هيغل ، نجد الثقافة ، أي الروح ، عنصراً فاعلاً تصدر عنه الأشياء وتعود اليه ، ونجد الطبيعة ، أي تاريخ الأرض دون عناية (كجسد الرجل الأقلق غير المختون) ، مجال الحظ والاتفاق ، أي مجال اللاضرورة التي لا نهاية لها الا في الهامش ، ولا جذر لها الا في نثرات تلفظها الحقيقية عندما تستعيد ذاتها (قارن هيغل ، موسوعة العلوم الفلسفية ، الفقرات ١٩١ - ١٩٢ و ٢٤١) . وفي النهاية ، فإن الاطار الميتافيزيائي الذي يحتوي ويبين هذه العلاقة بين الوجود واللاوجود هو عينه الذي يحكم كل الثنائيات المبينة على الاطلاق ، والذي يستنسخ في كل مجالات الثقافة العربية الاسلامية ويبين تصوراتها .





الفصل الرابع

ملاحظات ختامية

سلطان المعرفة ومعرفة السلطان

رأينا في الصفحات السابقة ان الكتابة التاريخية العربية - الاسلامية تتسم بتداولها لمباحث لا تشكل موضوع علم ، بل مشاغل لفن هو التأريخ . وتتسم هذه الكتابة أيضاً بأن المباحث التي تكون مشاغلها تبدو بصورة أشكال نمطية ( دعونا أعلاه لحصرها حسابياً ) لوحدات تشمل عليها المعرفة التاريخية - الملك وعلاقته - وتتضمنها في نسق تنبضي لا بنية داخلية له . لا في ذلك الشطر الذي أطلقنا عليه في الفصل الثالث عبارة « الدور الاول » . ورأينا في مسار تحليلنا للكتابة التاريخية موضع الدراسة ان القنوات التي توصلنا اليها حول سماتها العامة لا تشكل « قوانين » بالمعنى المتعارف عليه ، بل أطر توجيهية HEURISTIC ليس لها صفة الاطلاق ، فهي ليست إلا تعبيراً عن منحى عام لا إلزام فيه يشتمل على غلبة احصائية صرفة . الغلبة الاحصائية هذه تشمل محكات صدق الاخبار وقبولها او رفضها ( فهناك الكثير من الاخبار التي يقبلها البعض دون البعض ) ، كما تشمل وحدات المعرفة التاريخية المنمطة ( التي قد لا تقتصر على الملوك والكوارث والاديان بل قد تتعدها هنا وهناك الى الاخبار الاقتصادية أو الاجتماعية ) وتتجاوزها فتشمل في احيان نادرة مسارات تتجاوز العبية التسلسلية في سياقة التاريخ واخرى تدخل العبية على الغائية الصارمة التي تطبع التاريخ الالهي .

لسنا هنا بصدد الكلام حول قواعد واستثناءات . بل ان مقالنا هنا يدور حول وضع لادبيات تشترك في مباحثها ومشاغلها واشكالاتها دون ان يكون هذا الاشتراك عاملاً ضابطاً . فالاشتراك هنا جمع وليس حصراً ، هو لم وليس تركيياً ، وهو مجرد مؤشر على التشابه وليس محدداً للهوية وفاصلاً لها عما عداها . التاريخ معرفة بالماضي وتاريخياً لوحدات هذه المعرفة دون ان تتعدى وحدة المباحث تلك المباحث الى ذلك المستوى المؤسس ، معرفياً وسوسيولوجياً ، الذي يجعل منها

هوية صارمة الجدران واضحة الحدود مانعة الاشتراك والاختلاط . ان عدم الانضباط الذي يطبع الكتابة التاريخية دون ان يكون له الاستجابة البوليسية ( علمياً ) التي ستجابه بها كل حالات عدم الانضباط في كنف تشكل علمي معين - والذي يترادف مع عدم كون التاريخ علماً ، كما رأينا في الفصل الاول اعلاه - مؤشر على ان تماسك التاريخ له أسس يجب البحث عنها خارج ممارسة التاريخ . فمع ان التاريخ ليس بالفن ذي المسائل المبوبة تحديداً والموضوع المتوَجَّه لهذه المسائل ، ورغم كونه لا يتسم بتلك المجموعة المحددة والمبوبة من العمليات الذهنية التي تصاحب موضوع ومسائل العلم ، الا انه متماسك بفضل الاطر التوجيهية التي درسناها في الفصول السابقة والتي تبرر لنا اعتبار الكتابة وحدة بالامكان ان نضع فيها كتاباً . التاريخ فنٌ يعبر تماسكه عن وحدته ، ويعبر عدم انضباطه عن حدود هذه الوحدة . فهذه الوحدة ليست بتلك المنطبعة في تحديد الموضوع ومعالجته ، بل هي اشبه بالوحدة الادارية التي تأتي بعناصر من مواضع ومواقع شتى وتطرح بها في حيز يعمل على التنسيق فيما بينها تبعاً لاسس ادارية معروفة : التاريخ . المعرفة التاريخية وحدة لا يجمع بين عناصرها غير كونها تتعلق بالحوادث الماضية .

التاريخ ، بذلك ، معين من الاخبار والنماذج التي ليس لها مؤسسة متخصصة - هو نوع معرفي ، اذن ، ولكن نوع لا قوام له بجنس ، بل باجناس . هو نوع معرفي لا تتأق وحدته عن محور داخلي محصور به ، بل تتحدد بأطر خارجية . تحديد التاريخ ، بكلمة اوضح ، ليس تحديداً علمياً بحصر الموضوع ، بل هو تحديد سوسيولوجي لنوع من المشاغل والمباحث . ليس التاريخ نموذجاً لموضوع ومسائل الا ضمن توجهات عامة ، ولا يتعرض كتاب التاريخ للنقد الا عندما ينتهجون مسالك العوام والجهلة فيما يتعلق بالاسرائيليات التي انتقدتها من وجهة نظر تطهيرية ودينية ( حديدية ) ابن كثير والسخاوي وغيرهما<sup>(١)</sup> . مما يؤكد أن النقد ليس من « المؤسسة التاريخية » ( فلا وجود لها )

---

(١) رأينا نقد ابن كثير في مواضع متعددة من هذا الكتاب . بالنسبة للسخاوي ، انظر اعلان ، ٤٨ - ٤٩ وقارن ص ٦٣ وابن الجوزي ، قصاص ، ١١٧ .

بل من مؤسسة الحديث . ولا يتقدم التاريخ بما هو تاريخ بنقد لرسالة تاريخية ما الا اذا تناولت بالتشويه التام الأسس العامة التي تستند اليها : والمثال الوحيد على ذلك الذي استطعنا العثور عليه هو نقد المسعودي لسنان بن ثابت بن قرة الذي تناول الاخلاق والسياسة ثم « وصل ذلك باخبار المعتضد بالله وذكر صحبته اياه وایامه السالفة معه ، ثم ترقى الى خليفة خليفة في التصنيف مضاداً لرسم الاخبار وخروجاً عن جملة اهل التأليف ، وهو وان احسن فيه ولم يخرج من معانيه ، فإنه عيب لانه خرج عن صناعته »<sup>(١)</sup> : ليست مبادئ العلم ما يرجع اليه بالمسعودي في نقد ، بل ممارسة « جملة اهل التأليف » و « رسم الاخبار » . هو اذن ليس بالنقد الذي يمارسه علم ضد ما فارقه ، بل نقد ممارسة صناعية لمن ليس من اهلها . هذا مع انه ليست لصناعة التاريخ « اهل » بمعنى وحدة سوسيولوجية ذات اطر مؤسسية معروفة : فأبو محمد بن زكريا الرازي الطبيب الف كتاباً في سير الخلفاء<sup>(٢)</sup> ، وكان لعضد الدين الايجي المتكلم والنحوي الكبير كتاباً في العصور الاولى من تاريخ الاسلام<sup>(٣)</sup> ، ولم يكن الطبري مؤرخاً بمعنى انه انتمى لرابطة من المهنيين بل فقيهاً . ومتكلماً كتب في التاريخ ، كما ان مؤرخي العرب لم يكونوا مؤرخين محترفين : ففي البداية كانوا من النسابة والشعراء والخباريين<sup>(٤)</sup> ، ثم تحولوا<sup>(٥)</sup> الى اعضاء في مجموعات فكرية وسياسية مختلفة من الموظفين والمحدثين واهل البلاط وغيرهم<sup>(٦)</sup> ، ولم يكن هنالك الا قلة ، مثل مسكويه والمسعودي ، ممن كان التاريخ اهتماماً أساسياً لهم<sup>(٧)</sup> .

(١) مروج ، ١٤/١ .

(٢) المصدر السابق ، ١٠/١ .

(٣) WÜSTENFELD (1882) رقم ٤١٠٠ .

(٤) SEZGIN ، ٢٤٥/١ ، وجواد علي (١٩٥٠) . ١٤٩ .

(٥) راجع GIBB ، ٢٣٨ أ - ب ، ٢٤٠ ب

(٦) مصطفى (١٩٧٩) ٢٧٥/١ وما يليها

(٧) المصدر السابق ، ٢٨٥ - ولاحظ أن المؤلف يرى ان هذا كان اهتمامها الوحيد . راجع

KHALIDI (1975) ، الملحق .

على ذلك ، فالتاريخ فن يطلب لتنتائج التي تستخدم في علوم مختلفة . هو يستخدم على نطاق واسع في الحديث - حتى ان السخاوي رآه من فروض الكفاية<sup>(١)</sup> - وهو ذو ضرورة بينة لعلوم القرآن والنبوات والكلام والتصوف<sup>(٢)</sup> فكل هذه العلوم تعتمد ، بدرجات متفاوتة ، على استخدام احداث الماضي نماذج وعللاً في اقيستها وتفسيراتها. كما ان للمعرفة التاريخية اولوية على كل معرفة اخرى في كتب الاخلاق والسياسة<sup>(٣)</sup> ، اذ من التاريخ مادة هذه الكتب القائمة على التمثيل والاعتبار .

ليس للتاريخ مؤسسة سوسيولوجية ، بل هو معرفة تنهل منها مؤسسات علمية اخرى ، كالحديث والفقه المؤسسين في المدارس ، والتصوف المؤسس في الزوايا والخوانق ، والطب المؤسس في النقابات . وليست العلوم وحدها هي ما ينهل من التاريخ ، بل تعتمد عليه صناعة الكتابة بما تتطلب من الادب - اي المعرفة بالاخبار<sup>(٤)</sup> التي « يحسن بالعاقل الاديب معرفتها ولا يعذر في التغافل عنها »<sup>(٥)</sup> . فمعرفة التاريخ ليست من متطلبات العلوم فحسب ، بل من متطلبات الاداب ، وخصوصاً ، آداب البلاط : « فإنه قلّ مجلس عقد على خبرة أو أسس لرشد ، أو سلك فيه سبيل المروءة ، الا وقد يجري فيه سبب من أسباب المعارف : أما من ذكر نبي ، أو من ذكر ملك او عالم ، او نسب أو سلف أو زمان ، أو يوم من ايام العرب ، فيحتاج [ المرء ] اذا حضر ان يعرف عين القصد ، ومحل القبيلة ، وزمان الملك ، وحال الرجل المذكور ، أو سبب المثل المشهور »<sup>(٦)</sup> . مسامرة الملوك تتطلب معرفة « احوال يرغب فيها الملوك من

---

(١) اعلان ، ٤٤ - ٤٥

(٢) ايجي ، تحفة ، ٢١١ - ٢١٢ .

(٣) سخاوي ، اعلان ، ٤٥ .

(٤) التوحيدي ، امتاع ، ٣٣/١ وابن فريغون ، جوامع ، ٥٣٩ .

(٥) مسعودي ، مروج ، ١٦/١ .

(٦) ابن قتيبة ، معارف ، ٤٥ .

القصص والاخبار والمواظع والعبر والامثال وغرائب الاقاليم وعجائب البلدان ، وغير ذلك من الاحوال التي يرغب فيها الملوك»<sup>(١)</sup>. ولا ينسى السخاوي في دفاعه عن التاريخ التذكير بأن من فوائده ان الملوك والكبار يكافئون عليه<sup>(٢)</sup> (ربما كان هذا سبب قول رشيد الدين ان « أهل الادب والمؤرخين هم اكبر وخير الداعين للسلطين»<sup>(٣)</sup> ). وأخيراً يجب التأكيد على ان الوعظ والتذكير من الفاعليات التي تعتمد اعتماداً كلياً على المعرفة التاريخية<sup>(٤)</sup> اعتماد العبادات عليها ، كترتيل المعراج عند المتصوفة مثلاً<sup>(٥)</sup> ، وكرتيل اخبار كربلاء في التعزية الشيعية ، كما تعتمد ، في البعض من عناصرها ، ميثولوجيا الدعاية العسكرية في العصر المملوكي التي تمثلها سيرة الظاهر بيبرس التي قد تكون ألقت بناء على مبادرة السلطة في بداية فترة الحروب المملوكية - العثمانية<sup>(٦)</sup> .

في جميع تلك الحالات ، تنصدر المعرفة التاريخية المقال تنصدر المرجع . فحوادث الماضي هي النماذج والعبر المستخرجة من الماضي التي يجب الاعتبار بها في الحاضر والمستقبل ؛ حوادث الماضي هي المرجعية العمودية التي يجب ان تضبط بموجبها الأفعال والمعرفة على حد سواء . فالتاريخ كنموذج للفعل « تأديب للمتسلط واعتبار للمتذكر»<sup>(٧)</sup> ومنه حصول ملكة التجارب<sup>(٨)</sup> ، وحتى القرآن لم يغفل القصص عن الماضي من أجل الاعتبار<sup>(٩)</sup> . والتاريخ كمرجع للمقال

(١) طاش كبرى زاده ، مفتاح ، ٢٨٢/١ .

(٢) اعلان ، ٤٣ - ٤٤ . يعلمنا ابن الاثير (كامل ، ٥/١) انه لم يبيض مسودة تاريخية الا بناء على طلب المظفر ملك الموصل ، ويصر ابن تغري بردى (نجوم ، ٢/١ والمنهل ، ٣/١) على انه كتب كتبه في التاريخ لنفسه وليس بناء على طلبات ملكية .

(٣) جامع ، ٢١١ / .

(٤) ابجي ، تحفة ، ٢١٢ .

(٥) ن . العظمة ، (١٩٨١) ٤٣ - ٤٤ .

(٦) CAHEN (1957) ص ٢٠٥ .

(٧) سخاوي ، اعلان ، ٢١ .

(٨) حجي خليفة ، كشف ، ٩٥/٢ - ٩٦ .

(٩) سخاوي ، اعلان ، ٢٤ .

العلمي جملة من الاقوال والافعال التي تبني عليها الاقيسة الفقهية والتي تشكل كيفية استخدامها تأويلاً وتفسيراً وقياساً أسس علوم اصول الفقه واصول الدين والتفسير وغيرها . المعرفة التاريخية في كل حيزات فعلها النظرية والعملية اذن ، نقطة مرجعية لا التماس بعدها ولا نقض صريح لها . المعرفة التاريخية بحرفيتها مرجع أخير ومطلق تبني على أساس اطلاقه الاعتبارات والاقيسة - وعندما لا يكون وجود لاعتبارات بل معرفة تاريخية صرفة ، لا تسمح عبثية الحوادث التي درسناها للحوادث الا ان تخضع لمرجعية خارجية عنها ، هي في كل الاحوال مرجعية عمودية . بهذا فإن المعرفة التاريخية في المقال الفقهي والكلامي والتفسيري والاخلاقي والسياسي تقوم بوظيفة سياسية في أساسها : فهي دور السلطان في المقال ، وهي علاقة سلطان داخل المقال بين مرجع أفقي يرجع كل شيء الى ذاته ، والاشياء التي لا قوام لها الا به . وكون التاريخ ، كما رأينا ، في الفصل الاول ، مقال خبري بحث لا يعتمد على النظر ، شأن يؤكد علاقة السلطان التي تقيمها بعض اخبار الماضي . فاعتماد التاريخ على تقبل الاخبار استناداً الى نقلتها وتواترها ، والتراخي الذي استكشفنا بعض مظاهره في نقد النقلة ، ومفهوم عصمة الجماعة الذي تقوم به وحدة اليقين والتواتر ، كل ذلك من باب المرجعية المطلقة التي لا مرجع وراءها ولا بداية بعدها ، فهي البداية المطلقة والحقيقة الواحدة الذي يكون كل شيء تلوا لها يستنسجها بما هي أقوال وأفعال لا يجوز الحياد عن تفاصيلها . التاريخ ، اذن ، بما هو اخبار يقوم على المرجعية فن سياسي في اساسه ، فهو يحدد علاقات الاشياء بناء على تراتب يقدم التاريخ ذروته .

هذه الذروة لا تقتصر على الافعال النموذجية التي تجري سياقتها للملوك حتى يتم لها الاعتبار بها . ولا هو حكر على الاقوال النموذجية التي تبني عليها أقيسة العلوم او النص القرآني الذي لامناص امام حرفيته التي يجري التفسير انطلاقاً منها . فعلاقة السلطان تحكم السرد التاريخي بحد ذاته : فالسرد هذا في دوره الاول يقوم على اعمال تأسيسية تتعلق بالنسبة ، اعمال تجري استعادتها ويجري استنساخها ونسخها لاحقاً ، ثم يجري تحقيقها كاملة للمرة الاخيرة في نهاية الزمان . يتضمن التاريخ ايضاً ، كما رأينا ، أعمالاً تأسيسية اخرى ، هي



الاولائل مما لا علاقة له بالنبوة ، ومن هذه الاولائل اوائل الدول التي درسنا مرجعية الدول بالنسبة لها . من هنا يمكن التوكيد على ان الثقافة العربية - الاسلامية تتميز عن غيرها بكونها تلك التي تتخذ فيها الاسطورة شكل العلم ، وتنقل فيها الممارسة الاسطورية من الثقافة الشعبية المنكفئة في اطر اجتماعية ومحلية منغلقة نسبياً الى الثقافة التي تضطلع بتقديمها الدولة التي تجدد لها سلك مثقفها . فأوائل الدول الممثلة بتاريخ تأسيسها بدءاً من نقطة واحدة تحتوي على مؤسس يتفرق ولده في العالم ، كما بينا في الفصل الثالث ، تركيب للماضي على أساس الحاضر واقامة تاريخ على أساس علاقات اجتماعية معاصرة : فعلاقات القرابة المفصح عنها بشكل عواميد نسب ابنية ذات منطق موضعي<sup>(١)</sup> ، منطق يفصح عن علاقات سياسية بين فئات متعددة ، ولا قوام له الا بهذه العلاقات<sup>(٢)</sup> ، والارتقاء من الحاضر عوداً الى الماضي هو بمثابة اقامة عهد الماضي على الحاضر وميثاقاً للحاضر بناء على الماضي . وهذا ولا شك معنى قول لسان الدين بن الخطيب ان نسبة الجدد للجد كنسبة الحفيد للحفيد<sup>(٣)</sup> : في هذه العبارة يتلخص منطق النسب ، على عكس منطق التاريخ الذي يبتدىء بالجد وينتهي بالحفيد<sup>(٤)</sup> ، المنطق الذي في شكله تصاغ علاقة النسب المبتدئة بالحفيد وكأنها ابتدأت بالجد . هذا فحوى بدايات الامم وافتراق اولاد اسماعيل واولاد سام واولاد عدنان . وذلك هو ايضاً فحوى تحويل الفئات الحاكمة انسابها ودعجها بانساب اكثر نبلاً ، كالانساب العربية التي ادعاها الكثير من البربر من اصحاب الدول ، كما رأينا في مواضيع عديدة اعلاه<sup>(٥)</sup> ، والتي على اساسها

(١) BOURDIEU (1972) ص ٨٨ .

(٢) انظر العبارة الكلاسيكية لدى EVANS- PRITCHARD (1940) ص ١٤٧ .

(٣) مقري ، نفع الطيب ، ١٢١/٥ .

(٤) انظر الملاحظات الصائبة عند CARO-BAROJA (1957) ص ٣٠ . اودشكر صديقي الدكتور

خوان استييان على مساعدتي في فهم النص الاسباني .

(٥) بذلك فان استخدام الحكام للانساب يتضمن اعتبارات تزيد على اعتبارات الشرعية بمعناها

البسيط كما يرى الدارسون عموماً ، مثلاً CAHEN (1976) ص ٨٣ - ٨٤ .

تتركب الأساطير القائلة بوجود وحدات فعلية مثل « زناتة » و « مضر » ، والتي ليست غير وحدات اسطورية تستعاد بما هي اسماء لعناصر تدخل في صراع سياسي راهن<sup>(١)</sup> .

الانساب الاكثر نبلاً هي تلك التي ليس لها عمق تاريخي ابعد فحسب ، بل هي تلك التي تحتوي ، بسبب اصلها ومرجعها ومبدئها ، على مقدار اعظم من السلطان - وهذه المقادير شؤون نسبية بالطبع . وليس الخاق الملوك البربر<sup>(٢)</sup> وبعض الفرس وغيرهم انسابهم بالعرب ، والحاق بعض ملوك الفرس والترك والنسابة عموماً انساب هؤلاء وانساب الروم بعمود النسب الذي استخدمه العرب المسلمون والمبتدئ بنوح<sup>(٣)</sup> - ليست عمليات الالحاق هذه مجرد محاولات للانتساب للعرب . هي بالتأكيد كذلك ، ولكنها ذات ابعاد اخرى غاية في الأهمية . فمحاولة اقامة نسبة تعتمد على النسب المعتمد بدوره على معرفة تاريخية هي بمثابة المرجع الذي يفرض نفسه على كل ما عداه . تمارس المعرفة التاريخية بهذا الشكل سلطانها على الحاضر في اكثر من موضع في اطار انساب الملوك . فنسب ملك ما يتسلسل من الحاضر حتى الماضي من طبقة من السلطان الى اخرى : فهو يتبدى بسلطان الجد على الحفيد ، ويرجع سلطان الجد الى اندراجة في كنف سلطان له الاولوية عليه ، في سلسلة نسبية . ثم يرجع بهذه السلسلة النسبية الى سلسلة اخرى ، سابقة عليها ، وهي شجرة تسلسل الامم من شيت ونوح الى ذريات سام وحام ويافث . ليست لهذه الانساب البعيدة نتاجاً لكل عملية ارجاع حاصر الى ماضيها ، بل هي سابقة عليها ومساندة لها ، اذ هي من تراث تاريخي يرجع للامة الاسلامية كوحدة ، ومن المستحيل ان

---

(١) راجع الاعتبارات الانثروبولوجية في (1981) AL - AZMEH ص ٢١٨ .

(٢) حول نسبة البربر ومحاولتهم التعريب ، انظر (1915) BASSET .

(٣) عن الفرس : مسعودي ، تنبيه ، ١٠٨ - ١١٠ ، وابن خلدون ، تاريخ ، ٣٠٨/٢ ، وما يليها . عن الترك ، شعرائي ، مختصر ، ١٣٠ ورشيد الدين ، جامع ، ٢٠٣/١ - ٢٠٤ . و (1972) DANKOFF ص ٢٩ - ٣٠ . عن الروم ، أبو الفداء ، مختصر ، ٩٢/١ وابن كثير ، بداية ، ١٩٣/١ .

يخضع الى اي عملية تحويل من قبل النسابة. يرجع بذلك النسب الجزئي ، المبني داخلياً على أساس اولوية ومرجعية - اي سلطان - الماضي ، الى حيز آخر ، هو حيز المعرفة السابقة عليه ، المثبتة في الكتب والمكرسة من قبل اجماع الماضي المتمثل في التراث .

سلطان السابق على اللاحق ، اذن ، يمارس داخل وحدات المقال التاريخي وفي علاقة وحدات هذا المقال ببعضها البعض ، هذه الممارسة المتمثلة في استنساخ اللاحق للسابق واتخاذها ليس فقط كمرجع موجه ، بل كنموذج كامل ، وذلك بغض النظر عما اذا كان السابق داخل اللاحق وعنصره الاول أو خارج عليه ومن مادة أخرى . علاقة التأسيس بما بعده يبتنى على أساس اولوية قيمة وانطولوجية مطلقة ، يولد فيها المؤسس المؤسس توليداً كلياً ، مضيقاً عليه شيئاً من قيمته وشيئاً من وجوده يعتبره اللاحق كافياً بما هو قيمة وبما هو وجود .

صلة السلطان المطلق وحيد الاتجاه التي تربط السابق باللاحق داخل المقال لا تكفي بحد ذاتها للحفاظ على نفسها في استمرارية تاريخية . فهناك سلطان خارج وسابق على سلطان المقال يضيف عليه خاصيته السلطانية ، وهو وحدة مكتفية بذاتها غير عرضة لاي تفتت وانتقاص ، وحدة تمارس عنفاً رمزياً<sup>(١)</sup> عندما تفرض مجموعة من المسلمات التي لا نقاش فيها ولا بيان عليها - المسلمات التي تتخذ في التاريخ شكل اعمال التأسيس التي تكلمنا عنها ، اسطورية كانت في حقيقتها ام لا والتي يجري البيان عليها بأسس سلطوية خارجية هي التواتر والاسناد - والتي ، بكونها مسلمات عمياء ، تشكل ذخراً مقالياً اعتباطياً ( مشابهاً لاعتباطية اللغة عند سوسور ) هو بمثابة الملكة HABITUS في ثقافة معينة . من الطبيعي والمفهوم جداً ان تنظم اسس التربية الاسلامية بالسمع والتناول والاداء ، والاعادة والاجازة : فهذه تنظم اسس استمرارية السلطان المعطى للنصوص في استمرارية مؤسسات هذه النصوص المحتمية تحت جناح سلطان السيف .

---

(١) العبارة من (BOURDIEU AND PASSERON (1977 الفقرات ١ و ٢ و ١ و ١ و ٢

وقارن الفقرات ٣ شرح ٢ و ٣ و ١ و ١ و ٤ شرح ١ .

في كل الاحوال اذن ، معرفة التاريخ. اعادة واستعادة واستنساخ لاقوال تأسيسية وافعال ابتدائية لها في اوليتها صفة السبق بكل معانيه . وعيشية الأحداث جميعها في تفردا يجعل من الارتباط بالأصل ارتباطاً أساسياً ، والفراغ الذي يتحرك في اطاره التاريخ يقوي من سطوة التراتب ويجعله الممكن الوحيد سالباً عن التاريخ كل معنى الا ذلك الذي يفصح عن تجلّي البداية . تجلّي البداية في النص ، وتجلّي البداية في كون النص مقالاً مفروضاً من سلطة مؤسسة تجري في بنية النص التاريخي الاسترجاعية ، اذن ، اعادة انتاج لمؤسسة المعرفة في دورها : دور الحقيقة المفترضة ، ودور السلطان المؤسس .

تراتبية المعرفة ، اذن ، في بناها الداخلية والخارجية ، تراتبية سلطانية : وبالسלטانية نعني ذلك المنحى في الفكر الذي يرى في الشرعية ، السياسية والمعرفية وغيرها ، علاقة الرجوع الى نقطة عمودية هي حصيرة لدرجة انها لا تسمح بآية علاقات أو بنى أخرى . سلطانية المعرفة ملازمة ومكملة لسلطانية السلطان ، ويجري استنساخ البنية النسبية « القرابية » لوحداث التاريخ وتسلسلاته على صعيد التشريع للسلطان السياسي ، حيث يبدو التشريع القرابي وكأنه ليس التزاماً بالمتطلبات الاستنساخية التي لا يمكن التشريع إلا عن طريقها ، بما هي سلطان ثقافي . من البديهي ، اذن ، أن تكون الهرطقة والزندقة في الثقافة العربية - الاسلامية هي فقط تلك التي بموجبها يجري الانتقاص ( من الانتقاص النسبي - بالشرك عموماً - حتى الكلي الذي هو الرفض ) من البدايات الحصرية والمطلقة ( النبوة في هرطقة المتصوفة والجماعة في التشيع<sup>(١)</sup> ) : ان البدايات هي المطلقات ، والبدايات جزت صياغتها في الثقافة العربية - الاسلامية في اطار فن التاريخ ، الفن الذي ينتج أقوالاً تدخل في علوم وفنون وممارسات شتى . وفي نقاط تقاطع التاريخ من جهة ، وكل من العلوم والفنون والممارسات هذه من جهة أخرى ، ممكن تعيين المواقع التي يعمل فيها سلطان المعرفة - ومعرفة السلطان - على اعادة انتاج نفسها بصورة تحافظ على استمراريتها . وهنا

---

(١) راجع الملاحظات في «Ecriture» AL - AZMEH, الفقرة الاخيرة .

نقاط التقاء مؤسسة المعرفة ومؤسسات السلطان وههنا عبارة المعرفة عن السلطان ، وتوكيد السلطان للمعرفة . وههنا ، أخيراً موقع التاريخ من الثقافة العربية - الاسلامية : فهو مدخل السلطان الى العقل ، واضفاء العقل على السلطان .

# ثَبَتُ الْمَصَادِر

يحتوى الثبت الانجدي هذا على جميع الكتب والمقالات التي جرت الاشارة اليها في الهوامش، حيث كانت الاشارات مختصرة .

## المصادر العربية

- ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ١٣ مجلداً ، تحقيق C.J.TORNBERG ، بيروت ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .
- ابن الاخوة، معالم القرية في احكام الحسبة ، تحقيق R.LEVY ل لندن ١٩٣٨ .
- ابن بطوطة، رحلة ، بيروت ١٩٦٨ .
- ابن تغري بردى، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق أ. ي. نجاتي ج ١ ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزءاً، القاهرة ١٩٦٣ .
- ابن تيمية ، كتاب النبوات ، الرياض ، د.ت .
- ابن تيمية ، نقض المنطق ، تحقيق م . حمزة وس . الضيع وم . الفقي ، القاهرة ١٩٥١ .
- ابن الجوزي ، كتاب القصاص والمذكرين ، تحقيق M.S.SWARTZ ، بيروت ، د. ت

- ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ١٠ أجزاء ، حيدرآباد ١٣٥٧ .
- ابن الحاجب ، مختصر المنتهى الاصولي ، القاهرة ١٣٢٦ .
- ابن حجر ، الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ، حيدرآباد ١٣٤٨ .
- ابن حزم ، رسالة التوقيف على شارع النجاة في ابن حزم ، رسائل ، تحقيق ا . عباس ، ج ٣ ، بيروت ١٩٨١ .
- ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق E.LEVI-PROVENCAL القاهرة ١٩٤٨ .
- ابن حزم ، جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق ا . عباس ون . الاسد القاهرة د.ت .
- ابن حزم ، كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٣١٧ .
- ابن حزم ، التقريب لحد المنطق بالالفاظ العامة والامثلة الفقهية ، تحقيق ا . عباس ، بيروت ١٩٥٩ .
- ابن حنبل ، المسند ، تحقيق أ.م. شاکر ، ١٣ جزءا ، القاهرة ١٩٤٩ وما يليها .
- ابن الخطيب ، تاريخ اسبانيا الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام ، تحقيق E. LEVI-PROVENCAL ط ٢ ، بيروت ١٩٥٦ .
- ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس ( مجموعة من رسائله ) ، تحقيق أ.م. العبادي ، الاسكندرية ١٩٥٨ .
- ابن خلدون ، المقدمة : LES PROLÉGOMÈNES D'EBN KHALDOUN تحقيق E.QUATREMÈRE ٣ أجزاء ، باريس ١٨٥٨ .
- ابن خلدون ، تاريخ العلامة ابن خلدون ، ٧ أجزاء ، بيروت ١٩٥٦ ، وما يليها .
- ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق م . بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ .
- ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ٨ مجلدات ، تحقيق أ. عباس ، بيروت ١٩٧٠ .

- ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق ، ج. الشيال القاهرة ١٩٦٤ .
- ابن الصديق، ابراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون، أو المرشد المبدى لفساد طعن ابن خلدون في احاديث المهدي، دمشق ١٣٤٧ .
- ابن الصلاح، علوم الحديث، تحقيق ن. عتر، المدينة المنورة ١٣٨٦ .
- ابن طباطبا (ابن الطقطقى ) الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية القاهرة ١٩٦٢ .
- ابن عبد الرؤوف، حسبة : TROIS TRAITÉS HISPANIKES DE HISBA القاهرة ١٩٥٥ .
- ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، تحقيق أ. صالحاني، ط . ٢، بيروت ١٩٥٨ .
- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١، تحقيق ص. المنجد، دمشق د. ت .
- ابن فريغون ، جوامع العلوم ، النص في (1969) ROSENTHAL .
- ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تحقيق س. الدهان ، ط . ٢ دمشق ١٩٥٨ .
- ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق م. زايد، بيروت ١٩٧١ .
- ابن قتبية ، المعارف، تحقيق ث . عكاشة . ط . ٢ القاهرة، ١٩٦٩ .
- ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى في اجوبة اليهود والنصارى، بيروت د. ت .
- ابن كثير، البداية والنهاية ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩٣٢ .
- ابن كثير، نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم ، تحقيق م. ف. أبو عبة، جزءان، الرياض ١٩٦٨ .
- ابن مريم ، البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق م. بنشيب الجزائر، ١٣٢٦ .
- أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٢٥ .



- الاصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانباء، تحقيق GOTTWALD AND TABRIZI لبيزغ ١٣٤٠.
- ألف ليلة وليلة، ٤ مجلدات، بولاق ١٢٧٩.
- الأمدي، الاحكام في أصول الاحكام، ٤ أجزاء، القاهرة ١٩١٤.
- الايجي، تحفة الفقير الى صاحب السرير، الترجمة الانجليزية للمخطوط العربي الموجود في اسطنبول في (1969) ROSENTHAL.
- البغدادي، الخطيب، الكفاية في علم الرواية، حيدر آباد ١٣٥٧.
- البلاذري، الانساب، تحقيق ع. المعلمي، ٦ أجزاء، حيدر آباد ١٩٦٢-١٩٦٦.
- البيروني، الاثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق E. SACHAU لبيزغ ١٩٢٣.
- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، طبعة مراجعة على اساس تحقيق E. SACHAU، حيدر آباد ١٣٧٧.
- الفتازاتي، شرح العقائد النسفية، القاهرة ١٣٣٥.
- التوحيدي، من كتاب الامتاع والمؤانسة، اختيار أ. الكيلاني، جزآن، دمشق ١٩٧٨.
- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق G. SPRENGER, KADIR, M. WAJIB, W. NASSAU LEES جزآن، كلكوتا ١٨٥٤ وما يليها.
- الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق G. FLÜGEL لبيزغ ١٨٤٥.
- حجي خليفة، كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون، تحقيق G. FLÜGEL ٧ أجزاء، لبيزغ ١٨٣٥ وما يليها.
- الخوارزمي، مفاتيح العلوم، مقتطف في (1969) ROSENTHAL.
- الدوري، ع. بحث في نشأة علم التاريخ عن العرب، بيروت ١٩٦٠.
- الدينوري، الاخبار الطوال، ليدن ١٨٨٨.
- رشيد الدين، جامع التواريخ، ترجمة م. ص. نشأة وم. م. هنداي وف. ع.

- الصيد ، جزاءن ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الساعاتي ، ح . علم الاجتماع الخلدوني ، بيروت ١٩٧٢ .
- السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق ع . الحلوم . م . الطناحي ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٠ وما يليها .
- السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق D.W. MYHRMAN ، لندن ١٩٠٨ .
- السخاوي ، الاعلان بالتوينخ لمن ذم اهل التاريخ ، نشر القدسي ، دمشق ١٣٤٩ . ( ط . بغداد في الترجمة العربية لكتاب ROSENTHAL (1969) .
- السراج ، الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، تحقيق م . ح . هيلة ، ٦ أجزاء ، تونس ١٩٧٠ .
- السمعاني ، انساب الاشراف ، تحقيق م . حميد الله ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٩ .
- سيرة عنترة - انظر « قصة » .
- السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، بيروت . د . ت .
- السيوطي ، الشعارين في علم التاريخ ، تحقيق أ . سامرائي ، بغداد ١٩٧٦ .
- شرارة ، و . « المثقفون ومشكلة انفصام الدولة من المجتمع » في الفكر العربي ، ٢/١ (١٩٧٨)
- شرارة ، و . « الملك / العامة ، الطبيعة ، الموت » في مجلة « دراسات عربية » ١٦ / ١٢ (١٩٨٠)
- الشعراي ، مختصر التذكرة القرطبية ، مصر ١٣٠٢ .
- الصالح ، ص . ، علوم الحديث ومصطلحه ، ط . ١١ ، بيروت ١٩٧٩ .
- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ١ تحقيق H. RITTER فيسبادن ١٩٦٢ .
- طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، تحقيق ك . ك . بكري وع . أبو النور ، ٤ أجزاء ، القاهرة د . ت .
- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق M.J. DE GOEJE ، ١٢ أجزاء ، لندن ١٨٧٩ وما يليها .

- العروى، ع. ، العرب والفكر التاريخي، بيروت ١٩٧٣.
- العظمة، ع. ، ابن خلدون وتاريخيته، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١
- العظمة، ع. ، «السياسة واللاسياسة في الفكر العربي -الاسلامي»، في الفكر العربي، ٢٢/٣ (١٩٨١).
- العظمة، ن : «مخطوطات مهمة للمعراج ومنحاه في التصوير والرمز» في الموقف الادبي، ١١٩، (١٩٨١).
- علي، ج. «موارد تاريخ الطبري» في مجلة المجمع العلمي العراقي، ١ (١٩٥٠) و١/٣ (١٩٥٤).
- العمري، ا. موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، دمشق ١٩٧٥.
- الفردوسي، الشاهنامه، ترجمة س. مالطي، بيروت ١٩٧٧.
- القرافي، تنقيح الاصول في الاصول، القاهرة ١٣٠٦.
- القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق F. WÜSTENFELD ومراجعة ف. سعد، بيروت ١٩٧٧.
- قصة عترة بن شداد العبسي، رواية ابي سعيد عبد الله الاصمعي، ١٢ جزءا القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢.
- القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق ع. فراج، ٣ أجزاء، الكويت ١٩٦٤.
- الكافيحي، المختصر في علم التاريخ، النص في (1969) ROSENTHAL.
- المبشر بن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم، تحقيق ع. بدوي، بيروت ١٩٨٠.
- المحبي، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء القاهرة ١٢٨٤.
- المسعودي، اخبار الزمان ومن اباداه الحدشان، تحقيق ع.الصاوي، بيروت ١٩٨٠.
- المسعودي، كتاب التنبيه والاشراف، تحقيق M.J.DE GOEJE ليدن ١٨٩٤.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق C. PELLAT بيروت ١٩٦٥.

- مسكويه ، تجارب الأمم ، تحقيق H. F. AMEDROZ ، ٣ مجلدات ، مصر ، ١٩١٤-١٩١٦ .
- مسكويه «TEXTES INEDITS» تحقيق م. اركون في Annales islamologiques ٥ (١٩٦٣) .
- مصطفى ، ش. التاريخ العربي والمؤرخون ، بيروت ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ .
- معروف ، ب. ع ، الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٧٦ .
- المقدسي - كتاب البدء والتاريخ ، تحقيق C. HUART ومنسوب للبلخي ، ٦ اجزاء ، باريس ١٨٩٩ وما يليها .
- المقرئ ، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق ا. عباس ، ٨ اجزاء بيروت ١٩٦٨ .
- المقرئ ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، تحقيق م. م. زيادة وج. الشيال القاهرة ١٩٥٧ - ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠ .
- المقرئ ، اتعاظ الخلفاء باخبار الائمة الفاطميين من الخلفاء ، تحقيق م. أحمد ، ٣ اجزاء ، القاهرة ١٩٧١ وما يليها .
- المقرئ ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ .
- المقرئ ، النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم ، تحقيق ع. الهاشمي النجفي ، النجف ١٣٦٨ .
- الموافي ، ع . منهج النقد التاريخي عن المسلمين والمنهج الاوربي ، الاسكندرية د. ت .
- النديم ، كتاب الفهرست ، تحقيق ر. تجمد ، بيروت ، ١٩٧١ .
- نصار ، ن. الفكر الواقعي عند ابن خلدون ، بيروت ١٩٨١ .
- النويري ، نهاية الأرب في فنون الادب ، ١٨ جزءا ، القاهرة ١٩٢٣ ، وما يليها .
- وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، صنعاء ، ١٩٧٩ .
- الهمداني ، عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب ، تحقيق ع. كنون ،

القاهرة ١٩٦٥ .

- ياسين ، ب . « الوقائعية والغرائبية والوظيفية الاجتماعية في حكايات شهرزاد » في مجلة «دراسات عربية» ٥/١٧ (١٩٨١) .
- اليعقوبي، تاريخ ، جزآن، بيروت ، ١٩٦٠ (على اساس تحقيق (C.HUART).
- اليعقوبي، مشكلة الناس لزمانهم ، تحقيق و. ملورد، ط ٢ ، بيروت . ١٩٨٠ .

### المصادر الاجنبية

- Arkoun, M., *Contribution a l'étude de l'humanisme arabe en IV/X<sup>e</sup> siècle*: Miskawayh, Paris, 1970.
- Auerbach, E., *Literary Language and its Public in Late Latin Antiquity and in the Middle Ages*, London, 1965.
- Auerbach, E., *Mimesis. The Representation of Reality in Western Literature*, Princeton, 1968.
- Al- Azmeh, A., *Ibn Khaldun in Modern Scholarship: A Study in Orientalism*, London, 1981.
- Al- Azmeh, A., «Ecriture historique et pouvoir politique dans la culture arabo- musulman médiévale», in *Histoire et diversité des cultures*, ed. UNESCO , 1984.
- Bacher, W., «Bibel und Biblische Geschichte in der Muhammedanischen Literatur», in *Jeschurun*, ix (1872).
- Barthes, R., «L'Effet du réel», in *Communications*, 11 (1968).
- Barthes, R., «Historical Discourse», in M. Lane (ed.), *Structuralism*, London, 1970.
- Basset, R., «Les généalogistes berbères», in *Les Archives Berbères*, 1/2 (1915).
- Beck, E., «Iblis und Mensch, Satan und Adam, Der Werdegang einer Koranischen Erzählung», in *Le Muséon*, 89 (1976).
- Bloch, M., *Feudal Society*, 2 Vols., London, 1965.
- Bourdieu, P., «The Attitude of the Algerian Peasant Toward Time»,

in J. Pitt- Rivers (ed.), **Mediterranean Countrymen**, Paris- The Hague, 1963.

- Bourdieu, P., **Esquisse d'une théorie de la pratique**, Genève, 1972.

- Bourdieu, P., and Passeron, J.-C., **Reproduction in Education, Society, and Culture**, London and Beverley Hills, 1977.

- Bremond, C , «La logique des possibles narratifs», in **Communications**, 8(1966).

- Bull, W.E., **Time, Tense, and the Verb**, Berkeley and Los Angeles, 1968.

- Cahen, C., «Les Facteurs économiques et sociaux dans l'ankylose culturelle de L'Islam», in R. Brunschvig and G.E. von Grunebaum (eds.), **Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de L'Islam**, Paris, 1957.

- Cahen, C., «Notes sur l'historiographie dans la communauté musulmane médiévale», in **Rev. des Etudes Islamiques**, 44 (1965).

- Canard, M., «Un **hadith** sur la prise de Rome par les musulmans», in **Studia Islamica**, 6 (1958).

- Caro Baroja, J., **Estudios Mogrebies**, Madrid, 1957.

- Casanova, P., «La malhamat dans L'Islam primitif», in **Rev. de L'Histoire des Religions**, 61 (1910).

- Casanova, P., **Mohammed et la fin du monde**, Paris, 1911.

- Chelhod, J., «Les structures dualistes de la société bédouine», in **L'Homme**, 9/2 (1969).

- Chrara, W., **Transformations d'une manifestation religieuse dans un village du Liban- Sud (Ashura)**, Beirut, 1968.

- Connelly, B., «The Structure of Four Bani Hilal Tales: Prolegomena to the Study of Sira Literature», in **J. of Arabic Literature**, 4 (1973).

- Corbin, H. «Cyclical Time in Mazdaism and Ismailism», in **Man and Time. Papers from the Eranos Yearbooks**, Princeton, 1957.

- Curtius, E.R., **European Literature and the Latin Middle Ages**, London, 1953.

- Dankoff, R., «Kashghari and the Tribal and Kinship Organization of the Turks», in **Archivum Ottomanicum**, 4(1972).

- Eco, U., **A Theory of Semiotics**, London, 1976.
- Eliade, M., **Traité de l'histoire des religions**, Paris, 1949.
- Evans- Pritchard, E.E., **The Nuer**, Oxford, 1940.
- Fährndrich, H., «The Wafayat al- A'yan of Ibn Khallikan: A New Approach», in **J. of The American Oriental Society**, 93, (1973).
- Faruqi, Z., **Early Muslim Historiography**, New Delhi, 1979.
- Fränkel, H., **Wege und Formen frühgriechischen Denkens**, Munich, 1960.
- Froissart, J., **Chronicles**, Harmondsworth, 1978.
- Gibb, H.A.R., «Ta'rikh» in **Encyclopedia of Islam**, 1st. ed., Supplement.
- Goichon, A.-M., **Lexique de langue philosophique d'Ibn Sina**, Paris, 1938.
- Grunebaum, G.E. Von, «Firdausi's Concept of History», in **Fuad Köprülü Armagani**, Istanbul, 1953.
- Haarmann, U., «Auflösung und Bewahrung der klassischen Formen arabischer Geschichtsschreibung», in **Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft**, 121 (1971).
- Hafsi, I., «Recherches sur le genre *Tabaqat*», in **Studia Islamica**, 23/3 (1976) and 24/1,2 (1977).
- White, V.H., **Metahistory**, Baltimore, 1973.
- Hodgson, M.G., **The Venture of Islam**, 3 Vols., Chicago, 1974.
- Kennedy, E.S. and Pingree, D., **The Astrological History of Masha'allah**, Cambridge, Mass., 1971.
- Khalidi, T., **Islamic Historiography . The Histories of Mas'udi**, Albany, 1975.
- Khoury, R.G., **Wahb b. Munabbih**, Wiesbaden, 1972.
- Kohlberg, E. «Some Shi'i Views of the Antediluvian 'World' in **Studia Islamica**, 52 (1980).
- Lecomte, G., «Les citations de l'Ancien et du Nouveau Testament dans l'oeuvre d'Ibn Qutayba», in **Arabica**, 5 (1958)
- Le Roy Ladurie, E., **Montaillou**, Harmondsworth, 1980.
- Malti- Douglas, F., «Dreams, the Blind, the Semiotics of the Biog-

- raphical Notice», in *Studia Islamica*, 51 (1980).
- Matteo, I. di, «Il 'Tahrif' of alterazione della Bibbia secondo i musulmani», in *Bessarione*, 26 (1922).
  - McLean, P., *Jesus in the Qur'an and Hadith Literature*, Unpub. M.A. thesis, McGill University, Montreal.
  - Miquel, A., *Un conte des mille et une nuits*, Paris, 1977.
  - Momigliano, A., «Time in Ancient Historiography», in *History and the Concept of Time (History and Theory, Beiheft 6,)* 1966.
  - Moubarac, Y., *Abraham dans le Coran*, Paris, 1958.
  - Needham, J., *The Grand Titration*, London, 1969.
  - Noth, A., *Quellenkritische Studien Zur Themen, Formen, und Tendenzen frühislamischer Geschichtsüberlieferung*, Bonn, 1973.
  - Plessner, H., «On the Relation of Time to Death» in *Man and Time*, op. cit.
  - Propp, V., *Morphology of the Folktale*, Austin and London, 1968.
  - Puech, H.- C., «Gnosis and Time», in *Man and Time*, op. cit.
  - Rosenthal, F., *A History of Muslim Historiography*, 2nd, ed., Leiden 1968.
  - Rotter, G., «Formen der frühen arabischen Geschichtsschreibung», in idem (Ed.), *Deutsche Orientalistik am Beispiel Tübingens*, Tübingen and Basel, 1974.
  - Sezgin, F., *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leiden, 1967 ff.
  - Todorov, T., «Les catégories du récit littéraire», in *Communications*, 8 (1966).
  - Van Ess, J., *Die Erkenntnislehre des Adudaddin al- Ibi*, Wiesbaden, 1966.
  - Walker, P., «Eternal Cosmos and the Womb of History», in *International Journal of Middle East Studies*, 9/3 (1978).
  - Wüstenfeld, F., *Die Geschichtsschreiber der Araber und ihre Werke*, Göttingen, 1882.
  - Zotenberg, H., *Chronique de Tabari traduite sur la version persane de Bal'ami*, vol. 1, Paris, 1867.



## مؤلفات أخرى للدكتور عزيز العظمة ابن خلدون وتاريخيته

□ كتاب يقدم للقارئ العربي، وللمرة الأولى، إعادة نظر جذرية إلى الفكر الخلدوني تأخذ بالحسبان شأنيْن أساسيين هما تاريخية فكره وأهمية كتاب العبر. فيرد المفاهيم الخلدونية الأساسية والتي أخذت علامة على حداثة صاحبها، يردّها إلى المجالات الدلالية التي لها في ثقافة العصر الخلدوني وعلومه، ثم يُبين كيف أن المفاهيم المضمرة في كتاب العبر للدولة والسياسة هي التي تحدد إشكاليات ومفاهيم المقدمة وذلك على عكس النظرة المسلّم بها عموماً.



## التراث بين السلطان والتاريخ

□ نصوص يناقش فيها المؤلف بعض المفكرين العرب المعاصرين، وتتناول جملة من عمليات تغييب الواقع باسم استمرار تاريخي لا دخل للتاريخ فيه تحت لافتة «الأصالة». إنها نصوص تطمح إلى معارضة الإستبداد بالتاريخ، وإلى إعادة «الأصالة» نفسها إلى نصائها من التاريخ، ومن تاريخ الحاضر تحديداً. باختصار، إنها محاولة لفهم تاريخية الحاضر ولو من خلال نصوص تتناول الماضي والتراث.



## الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية

هل هناك علاقات سببية بين الأحداث كما تعرضها الكتابات التاريخية العربية وبين وجهة أحداث التاريخ وتطور مسيرته؟ وما هو منزى اهتمام أصحاب التاريخ وأصحاب السلطان بمعرفة الأنساب وبالرجوع إلى الأصول الأولى للأشياء وبارساء التقاويم؟ ثم ما العلاقة بين الخبر التاريخي وواقع الماضي؟ وكيف يُصنف أصحاب التاريخ حوادث الماضي إلى ما له قيمة تاريخية، كالأحداث السياسية، وما ليس له قيمة تاريخية، كالتشؤون الاجتماعية وغيرها؟ وما هو سبب اقتصار كتب التاريخ على السياسة والحرب دون المجتمع، وعلى الخواص دون العوام؟ كيف نفسر، والخال كذلك، المحتوى الفكري للتاريخ الحولي والتاريخ السلالي الملكي؟ وأخيراً ما علاقة الكتابة والمعرفة التاريخيتين بالنظام السياسي القائم على التسلسل الملكي والتسجي في التاريخ العربي - الإسلامي؟ . . .

تلك هي الأسئلة الرئيسية التي يطرحها مؤلف هذا الكتاب ويجاوب الإجابة عليها انطلاقاً من دراسة واسعة للأدبيات التاريخية العربية.